

معجم المفاهيم الحضارية في المملكة في مرحلة التكوين
د. حصة بنت عبدالعزيز القنيعير

بيعة معاوية بن يزيد ونهاية حكم العهد السفياني للأمويين
د. عبدالله بن عثمان الخراشي

الحقبة الأرمنية في تاريخ الدولة العبيدية
د. حمود بن محمد النجيدي

رسالة من سلطان المغرب إلى سلطان الحرمين الشريفين
أ. د. محمد أمين

الدبلوماسية الروسية في الجزيرة العربية والخليج العربي
أ. د. فيتالي نعومكين

العدد الثاني - السنة الثالثة والثلاثون ١٤٢٨هـ



لمزيد من المعلومات وللاستفسار الاتصال على

اللجنة التحضيرية للندوة - دارة الملك عبدالعزيز

هاتف ٤٠١١٩٩٩ تحويلة ٢١٤٩ مباشر ٤٠١٣٩٣٢

فاكس ٤٠٣٠٨٩٥ ص. ب ٢٩٤٥ الرياض ١١٤٦١

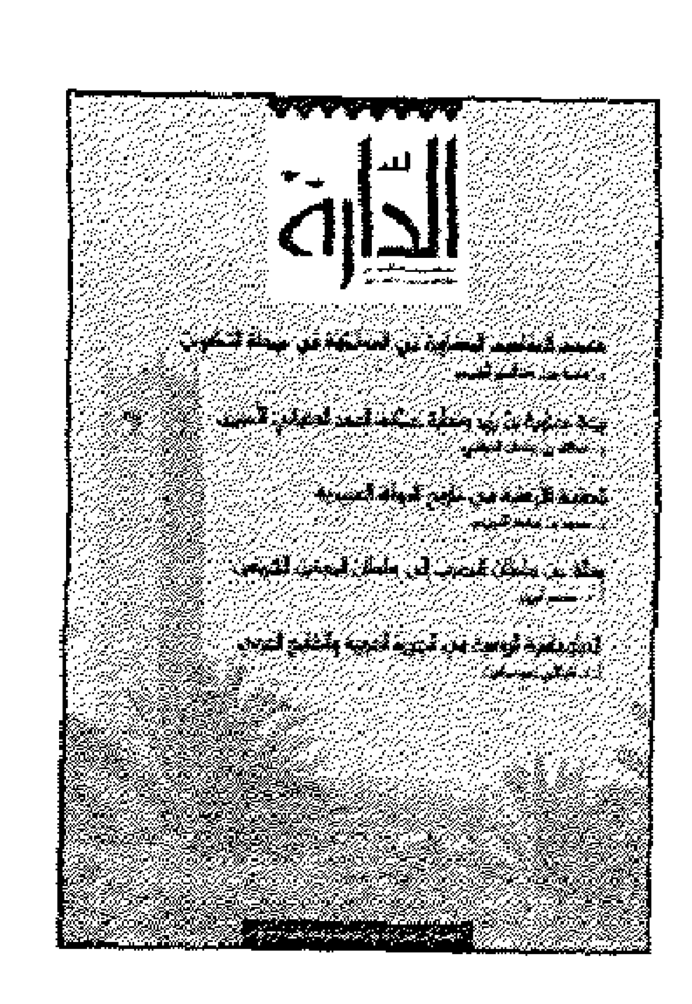
بريد إلكتروني: **info@darah.org.sa**



العدد الثاني - السنة الثالثة والثلاثون ١٤٢٨هـ







الإسهامات

ترسل البحوث باسم رئيس التحرير
ص. ب ٢٩٤٥ ـ الرياض ١١٤٦١ ـ المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩ ـ فاكس ٤٠١٣٥٩٧
بريد إلكتروني aldarahmagazine@aldarahmagazine.com

السعر

السعودية ٥ ريالات، الإمارات العربية المتحدة ٧ دراهم،
قطر ٧ ريالات، البحرين ٥٠٠ فلس، الكويت ٥٠٠ فلس،
سلطنة عمان ٥٠٠ بيسة، المغرب ٨ دراهم،
مصر ١٥٠ قرش، تونس دينار واحد
خارج الدول العربية ما يعادل دولارًا أمريكيًا واحداً

الاشتراكات السنوية

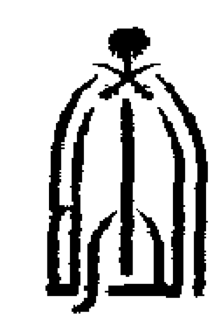
٢٠ ريالاً للاشتراك من داخل المملكة العربية السعودية
للاشتراك من الخارج ٦ دولارات أمريكية
ترسل الاشتراكات بشيك مصدق باسم
دارة الملك عبد العزيز على العنوان الآتي:
ص. ب ٢٩٤٥، الرياض ١١٤٦١ ـ المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩ / ٢٠١٦ ـ فاكس ٤٠١٢٨٩٤
بريد إلكتروني aldarahmagazine@aldarahmagazine.com
موقع الإنترنت www.aldarahmagazine.com

شركات التوزيع

السعودية: الشركة السعودية للتوزيع، الرياض، هاتف: ٤٤١٨٩٧٢
مصر: مؤسسة الأهرام للتوزيع، القاهرة، هاتف: ٥٧٨٦٢٠٠
الإمارات العربية المتحدة: دار الحكمة، دبي، هاتف: ٢٦٦٥٣٩٤
البحرين: مؤسسة الهلال للتوزيع، المنامة، هاتف: ٢٩٤٠٠٠
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، الكويت، هاتف: ٢٤١٧٨١٠
سلطنة عمان: المتحدة لخدمة وسائل الإعلام، مسقط، هاتف: ٧٠٠٨٩٥
قطر: دار الثقافة، الدوحة، هاتف: ٤١٢١٨٠
المغرب: الشركة الشريفية للتوزيع، الدار البيضاء، هاتف: ٤٠٠٢٢٣

تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز

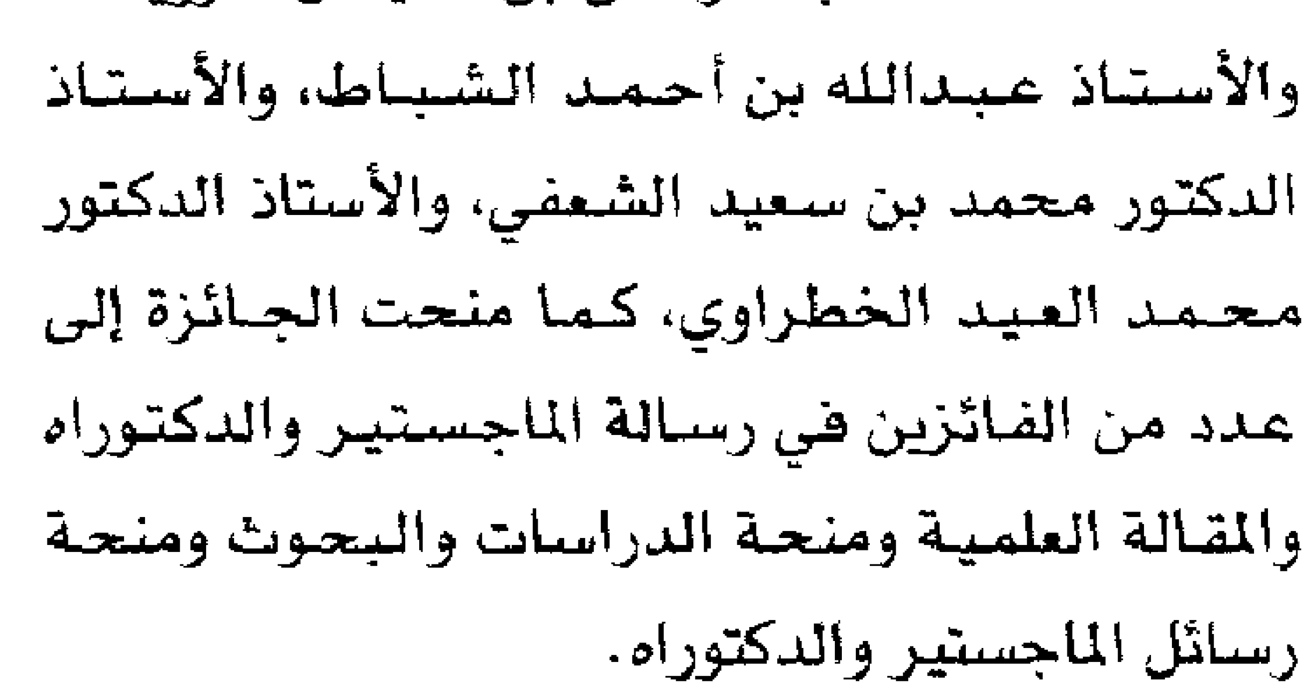
رقم الإيداع: ٠٠٨٢ / ١٤ بتاريخ ١٤١٤/١/٢٢هـ
ردمد ٠١٤٨ ـ ١٣١٩



نشاطات الدارة

مجلس الإدارة يقر أسماء الفائزين بجائزة ومنحة الأمير سلمان بن عبدالعزيز لدراسات تاريخ الجزيرة العربية

أقر مجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز برئاسة صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض ورئيس المجلس في اجتماعه مساء الثلاثاء ١٤٢٨/٣/١هـ أسماء الفائزين والفائزات بجائزة ومنحة الأمير سلمان بن عبدالعزيز لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، التي تحظى بالدعم المباشر من سموه حفظه الله. وقد فاز بالجائزة التقديرية للرواد في تاريخ الجزيرة العربية الأستاذ عبدالرحمن بن سليمان الرويشد، والأستاذ عبدالله بن أحمد الشباط، والأستاذ الدكتور محمد بن سعيد الشعفي، والأستاذ الدكتور محمد العيد الخطراوي، كما منحت الجائزة إلى عدد من الفائزين في رسالة الماجستير والدكتوراه والمقالة العلمية ومنحة الدراسات والبحوث ومنحة رسائل الماجستير والدكتوراه.

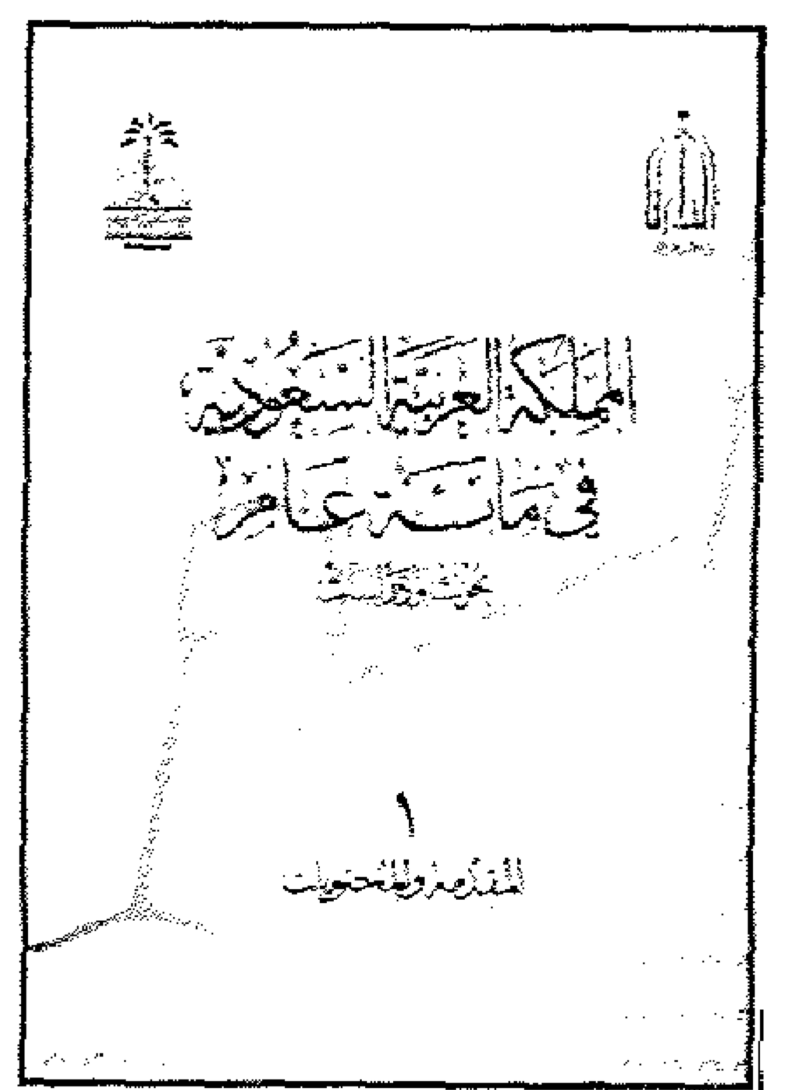


مجلس الدارة يوافق على إنشاء مركز للتراث السعودي

وافق مجلس إدارة الدارة في اجتماعه مساء الثلاثاء ١٤٢٨/٣/١هـ على إنشاء مركز للتراث السعودي بالدارة، الذي يعمل على توثيق الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في المملكة العربية السعودية من خلال استعراض الأنساق الاجتماعية المختلفة، ومن المتوقع أن ينتج عن هذا المركز توثيق المواد والمقتنيات التراثية بجميع أشكالها، كما وافق المجلس على تكوين لجنة تحضيرية لهذا المركز برئاسة الأمين العام للدارة وعضوية ممثلين عن عدد من الجهات ذات العلاقة هي وزارة الثقافة والإعلام، ووزارة التعليم العالي، ووزارة المالية، والهيئة العليا للسياحة، وجمعية الثقافة والفنون، ووكالة الآثار والمتاحف والمهرجان الوطني للتراث والثقافة.

الأمير سلمان بن عبدالعزيز يدشن بحوث مؤتمر المملكة العربية السعودية في مائة عام

يدشن صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض ورئيس مجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز ورئيس اللجنة العليا للاحتفال بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية كتاب (المملكة العربية السعودية في مائة عام: بحوث ودراسات) الذي يضم بحوث مؤتمر المملكة العربية السعودية في مائة عام والذي عقد في المدة من ٧-١١/١٠/١٤١٩هـ.



عقد مؤتمر (دول الخليج والمغرب العربيين والمتغيرات الدولية: الواقع والآفاق)

تستعد الدارة لعقد المؤتمر العلمي الخليجي المغاربي الثالث في جامعة سيدي محمد بن عبدالله بمدينة فاس بالمملكة المغربية بالتعاون مع مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، وذلك خلال الفترة ١٧ - ١٩ شوال ١٤٢٨هـ/ ٢٩-٣١ أكتوبر ٢٠٠٧م تحت عنوان (دول الخليج والمغرب العربيين والمتغيرات الدولية: الواقع والآفاق).

أبواب المجلة

عندما اعتزمت مجلة الدارة اتخاذ خطوات جديدة في سبيل الرقي بها، اعتمدت على مجموعة من الضوابط والمعايير التي من شأنها أن تحقق النجاح الذي تطمح إليه. وبناء على هذا أعادت النظر في أعداد المجلة خلال ربع قرن، فأخذت منها ما برز على نظائره، وزادت عليها ما يسمو بها، وعلى هذا جاءت أبواب المجلة في ثوبها الجديد، وهي:

◀ ١ - **البحوث العلمية.** وتعد عماد مجلة الدارة، التي حاولت منذ أمد أن تحقق فيها أعلى درجات الدقة العلمية والجدة والموضوعية، وجاءت في حلتها الجديدة منتقاة موافقة لاتجاه المجلة محققة للغرض من إنشائها.

◀ ٢ - **البحوث المترجمة.** والغرض من هذا الباب تزويد القارئ العربي بالبحوث التي صدرت بلغات أجنبية كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية ونحوها من اللغات العالمية التي كان للباحثين في تلك الأقطار اهتمام بتاريخ الجزيرة العربية عامة، أو بتاريخ المملكة العربية السعودية خاصة.

وتشترط الدارة لنشر هذه البحوث أن يذكر اسم المؤلف الأصلي كاملا، والمصدر الذي أخذ البحث عنه، وأن تتميز تعليقات الباحث عن تعليقات المترجم. ولابد من إرفاق الأصل المترجم لمطابقة الترجمة وتحكيمها.

◀ ٣ - **الوثائق.** وهو باب جديد، ترمي المجلة من إنشائه إلى التعريف بعدد من الوثائق المحفوظة في مراكز حفظ الوثائق في دارة الملك عبد العزيز وغيرها. وفي نشر هذه الوثائق المحفوظة إفادة للباحثين والمهتمين بتعريفهم بوثائق لم يكن يسهل تعريفهم إياها بغير دراستها ونشرها في المجلة.

ومن أجل نشر هذه الوثائق يفضل إرفاق صورة واضحة من الوثائق المدروسة، مع ذكر الجهة التي تحتفظ بها، ورقم الحفظ.

◀ ٤ - **مراجعة الكتب.** يختص هذا الباب بالبحوث النقدية المتصلة بالكتب المطبوعة في مجالات مجلة الدارة المتنوعة، بهدف التعريف بمحتوى الكتب ونقدها بأسلوب علمي من حيث السلبيات والإيجابيات ومواطن التميز وأوجه القصور.

وللنشر في هذا الباب ينبغي ألا تزيد مراجعة الكتاب عن تسع صفحات، وأن تتضمن المراجعة ما يأتي: موضوع الكتاب وحدوده الزمانية والمكانية والمرجعية، منهج الباحث في بحثه وأدواته ومصادره، إضافات الباحث واستدراكاته على من سبقه والجديد في بحثه، النقد الموضوعي (الإيجابيات، السلبيات)، إضافات المراجع واقتراحاته.

وللمراجع اختيار طريقة عرض الكتاب بما يلائم الكتاب وما يراه مناسبًا.

◀ ٥ - **ملخصات الكتب.** وهو من جديد المجلة، تلتزم فيه المجلة بوضع ملخص للكتب المؤلفة حديثًا، يعرف المطلع عليه بأبرز سمات الكتاب وموضوعاته ومجالاته. وقد يعرض الملخص مصادر الكتاب ومنهج المؤلف في كتابه، وغرضه من تأليفه. وقد يشار إلى ما يحتويه من أشكال وخرائط وصور ووثائق، أفاد منها المؤلف في كتابه.

ومجلة الدارة ترحب بالباحثين الذين يرغبون في نشر مراجعات علمية لكتبهم أو كتب غيرهم أو ملخصات لها، إذ تستقبلها على عنوانها البريدي، باب: مراجعة الكتب، أو باب: ملخصات الكتب. ومن المستحسن أن يرفق المؤلف نفسه ملخصا لكتابه.

◀ ٦ - **تعقيبات وتعليقات** تنشر فيه المجلة ما يرد إليها من الباحثين والقراء من تعقيبات أو تعليقات على ما نشر فيها بغرض زيادة التواصل العلمي بين الباحث وقرائه.

شروط النشر

تعنى مجلة الدارة بنشر البحوث العلمية ذات العلاقة بتاريخ المملكة العربية السعودية وجغرافيتها وآدابها وآثارها الفكرية والعمرانية بخاصة، والجزيرة العربية والعالم العربي والإسلامي بعامة.

وينبغي أن تتوافر في هذه البحوث الشروط الآتية:

١ - أن يتسم البحث بالأصالة والمنهجية العلمية والجدة في الموضوع والعرض.

٢ - أن يكون صحيح اللغة، سليم الأسلوب، واضح الدلالة.

٣ - ألا يكون قد سبق نشره أو قدم للنشر إلى جهة أخرى، وألا يكون مستلا من رسالة علمية أو كتاب مطبوع.

٤ - أن يكون البحث مطبوعًا على الحاسب الآلي، مرفقا معه القرص المنسوخ عليه.

٥ - أن يرفق مع البحث ملخص له باللغتين العربية والإنجليزية في حدود (٢٠٠) كلمة، مع الحرص على الدقة في كتابة العنوان باللغة الإنجليزية.

٦ - أن ترفق نماذج واضحة من الأشكال التوضيحية والصور والوثائق والمخطوطات.

٧ - أن توضع الحواشي في آخر البحث، على أن يكون الترقيم متواصلا.

٨ - أن تذكر المعلومات الوراقية (الببليوجرافية) للمصادر المعتمد عليها (الكتب، والمقالات، والمخطوطات) عند أول ذكر لها في الحواشي، استغناءً عن قائمة المصادر والمراجع.

٩ - أن تكتب الأسماء الأجنبية باللغة العربية، وتكتب بلغتها بين قوسين عند أول ورود لها.

١٠ - أن يرفق الباحث سيرة ذاتية له توضح نشاطه العلمي والعملي.

منهج النشر

١ - تخضع البحوث الواردة للمجلة للتحكيم العلمي. ويلزم الباحث إجراء التعديلات المنصوص عليها في تقارير المحكمين، مع تعليل ما لم يعدل.

٢ - يعطى الباحث عشرين مستلة من بحثه، وخمس نسخ من المجلة.

٣ - تمنح المجلة الباحث مكافأة مالية، وفق اللائحة المعتمدة.

٤ - لا يعاد البحث إلى صاحبه سواء نشر أم لم ينشر.

٥ - تحتفظ المجلة بحقها في الحذف والاختزال والتعديل اليسير بما يتوافق مع أغراض الصياغة والمنهج العلمي المتبع.

٦ - لا تعبر الآراء الواردة في البحوث بالضرورة عن رأي المجلة.

٧ - لا صلة لترتيب البحوث بالمجلة بالقيمة العلمية للبحث أو الباحث، إذ الترتيب موضوعي وفني، وبما يناسب أبواب المجلة.

٨ - ترسل البحوث والدراسات والآراء والتعليقات إلى رئيس التحرير.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الثاني ربيع الآخر ١٤٢٨هـ، السنة الثالثة والثلاثون
الدارة



البحوث

معجم المفاهيم الحضارية في المملكة العربية السعودية في مرحلة التكوين من ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م إلى ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م من خلال صحيفة أم القرى

د. حصة بنت عبدالعزيز القنيعير

استدعى تأسيس الدولة السعودية إدخال قدر هائل من المفاهيم الحضارية الجديدة، شمل كثيرا من مناحي الحياة في مستوياتها السياسية والاقتصادية والعلمية والاجتماعية، وذلك من خلال الأنظمة والتشريعات والمراسيم التي أصدرتها الدولة. وقامت على نشرها صحيفة أم القرى، الصحيفة التي جرى اعتمادها صحيفة رسمية للدولة.

وتجلى من البحث أن اللغة التي كانت تنقل المفاهيم المستخدمة في صحيفة أم القرى لغة عربية سليمة تخلصت إلى حد كبير من العامية ومن الدخيل، ويحمد للقائمين على هذه الصحيفة أنهم حافظوا على اللغة العربية الفصيحة، وجاء استخدامهم لبعض الألفاظ العامية والأعجمية قليلا أملاه استقرار الكلمة العامية أو الأعجمية، وكان يعبر عن معظم المفاهيم في تلك الصحيفة بالمصطلحات المركبة تركيبا إضافيا أو وصفيا، كذلك بالجمل المعقدة المكونة من كلمات عدة، وحدث لبعض ألفاظ تلك المفاهيم تغييرات عكست ما تعرضت له البلاد من تطورات في المستويات السياسية والإدارية والاجتماعية؛ مما يؤكد أن البلاد مرت بفترتين مهمتين في مرحلة تكوين البلاد.

بيعة معاوية بن يزيد ونهاية حكم العهد السفياني للأمويين

د. عبدالله بن عثمان الخراشي

رشح يزيد بن معاوية ابنه معاوية لولاية العهد؛ ليستخلفه في الحكم بعده، وقد تولى الحكم بعد وفاته، ولم يتجاوز عمره العشرين عاما، ونتيجة لمرضه، ولصغر سنه، وحداثته بأعباء الحكم اضطربت الإدارة والأمور العامة؛ لكنه لم يخلع نفسه من الحكم كما رأى بعض المؤرخين، وفي الوقت ذاته لم يبايع أحدا بولاية العهد؛ مما أدى إلى بروز شخصيات منافسة وتحديدا عبدالله بن الزبير بمكة المكرمة الذي بويع بالخلافة واضعا بذلك حدا مبكرا لنهاية الحكم الأموي للفرع السفياني؛ لكن جهود مروان بن الحكم وابنه عبدالملك أعادت السلطة إلى البيت الأموي بفرعها المرواني.

الحقبة الأرمنية في تاريخ الدولة العبيدية

د. حمود بن محمد النجيدي

يؤرخ البحث لفترة النفوذ الأرمني في مصر في الدولة العبيدية (٢٩٧ - ٥٦٧هـ/ ٩٠٩ - ١١٧١م) من منتصف سنة (٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م)، وينتهي سنة (٥٣١هـ/ ١١٣٧م)، وقد شغل الأرمن خلال هذه الفترة منصب الوزارة في الدولة العبيدية، وقامت علاقتهم مع الخلفاء العبيديين على أساس سلب السلطة منهم، وإثارة الفرقة والصراع بين الأسرة العبيدية، ومحاولة الوزراء الأرمن التقرب إلى العامة عن طريق تحسين أحوالهم الاقتصادية، كما عملوا على تنمية الموارد المالية للدولة العبيدية. وقد أثارت سياسة التحكم والتسلط التي مارسها الوزراء الأرمن ردود فعل لدى الخلفاء العبيديين، وأدركوا الخطر الكبير الذي يمثله هؤلاء الوزراء؛ مما جعلتهم ينشغلون بالأوضاع الداخلية كلية عن الاهتمامات الخارجية خصوصا في المحافظة على مصالحهم ومناطق نفوذهم في الأقاليم المختلفة. وتعد سياسة التحكم التي مارسها الوزراء الأرمن أحد العوامل السياسية التي أدت إلى سقوط الدولة العبيدية.

(٥٩-١٠٥)

رسالة من سلطان المغرب إسماعيل بن الشريف بن علي الحسني إلى الشريف سعد بن زيد سلطان الحرمين الشريفين (١١٠٥هـ/١٦٩٣م)

أ. د. محمد أمين

يتلخص مضمون هذه الرسالة في فكرة عامة هي نصيحة سلطان المغرب إسماعيل بن الشريف بن علي الحسني للشريف سعد بن زيد في أمور تتعلق بحكمه لبلاد الحرمين الشريفين؛ فهي تعكس متانة الروابط التي كانت قائمة بين أشراف المغرب وأشراف الحجاز، كما أنها تكشف وضعا سياسيا مضطربا أثرت تداعياته سلبا على سكان تلك البقاع، وعلى زوارها من الحجاج والمعتمرين، وهي تبرز بما تضمنته من نصائح صريحة مدى اطلاع سلطان المغرب واهتمامه بما كان يجري من أحداث بالحجاز، ورغبته في إصلاح الحال، وعموم الاستقرار بتلك الربوع، وقد تناولت الرسالة فضل الحرمين الشريفين وأجر وثواب من ولاه الله أمرهما، كما ركزت على أهمية استشعار ثقل وشرف المسؤولية الملقاة على عاتقه، ودعوة سعد إلى الاعتبار بما ألم به من فقدان ملكه في مرحلة سابقة، ثم عودته إليه، وضرورة التزامه الحزم والعدل في تدبير شؤون البلاد والعباد.

(١٠٧-١٤٢)



الدبلوماسية الروسية في الجزيرة العربية والخليج العربي
أواخر القرن التاسع عشر - أوائل القرن العشرين

أ. د. فيتالي نعومكين

بدأت روسيا تهتم سياسيا واقتصاديا بالمنطقة في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، فافتتحت فيها قنصليات، وأنيطت بالقنصلية الروسية التي افتتحت في جدة عام ١٣٠٨هـ/ ١٨٩١م مهمة حماية الحجاج ومراقبتهم، وتلبية احتياجاتهم، وفضلا عن البعد السياسي والتجاري لاهتمام الإمبراطورية الروسية بالجزيرة العربية كان هناك أيضا البعد العسكري - الإستراتيجي حين أخذت روسيا تقوم بمحاولات المجابهة لا ضد منافستها التقليدية الدولة العثمانية وحدها، وإنما أيضا ضد بريطانيا التي صارت تكتسب المزيد فالمزيد من الأهمية في المنطقة.

(١٤٣-١٨٣)

الوثائق

الخطابات العربية في تصنيف الخارجية - متنوع من تصنيفات الأرشيف العثماني

د. سهيل صابان

يشتمل هذا التصنيف على آلاف الخطابات العربية الموجهة إلى السلطان عبدالحميد الثاني، وهي موجهة من بعض العرب من مناطق متنوعة من الوطن العربي، بالإضافة إلى بعض الموظفين العثمانيين العاملين في تلك المناطق، وقد جعلت تلك الخطابات في خمسين ملفا رتبت حسب تاريخ ورودها إلى السلطان، وجميعها كتبت باللغة العربية؛ إلا أن بعض الملفات كتبت باللغة الفرنسية وبجوارها ترجمة عثمانية مختصرة، وتتضمن تلك الخطابات موضوعات متعددة، تصب معظمها في الشكاوى، أو وصف الأحوال في بعض المناطق العربية، كالتي أرسلها المواطنون العرب في فلسطين، وخطابات بعثها أهالي بعض المناطق في مصر وإدلب وحلب والشام والبصرة والموصل، وغير ذلك من المناطق العربية.

(١٨٥-١٩٦)





من أرشيف الدارة

الملك عبدالعزيز مع مردم بك والوفد
السوري بالقرب من الطائف
١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م
المصور : حكمت مردم بك
المصدر : مجموعة رفعت شيخ الأرض

معجم المفاهيم الحضارية في المملكة العربية السعودية في مرحلة التكوين من ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م إلى ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م

من خلال صحيفة أم القرى(*)

د. حصة بنت عبدالعزيز القنيعير
قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

عانى مجتمع شبه الجزيرة العربية لفترات زمنية طويلة ظروفًا اقتصادية وسياسية واجتماعية ومعيشية قاسية؛ نتيجة للقوى الداخلية والخارجية التي بددت قدراته، وأجبرته على العيش عصورًا من العجز والتمزق والتخلف، إذ انشغل القادة المحليون في خلافات وصراعات وحروب أهلية متواصلة عمّقت من معاناة مجتمع الجزيرة، أما القوى الخارجية فقد انزلقت في هوّة الازدراء لهذا المجتمع والاعتقاد بأنه مجتمع يرفض الاستقرار والمدنية، ويعيش فوق أرض خاوية من الخيرات.

وقد ظل مجتمع الجزيرة العربية على هذه الحال حقبة طويلة من الزمن عدا فترات استقرار متقطعة وقصيرة وغير شاملة(١).

(*) هذه الدراسة مبنية على معجم أعدته الباحثة وجمعته من صحيفة أم القرى. وتعذر نشر المعجم لكثرة عدد صفحاته.

(١) انظر تطور الإدارة العامة في المملكة العربية السعودية خلال مائة عام ١٣١٩-١٤١٩هـ/ ١٩٠٢-١٩٩٩م، إعداد معهد الإدارة العامة، الرياض، ١٩٩٩م، ص١٣.

وفيما يتعلق بالأوضاع السياسية في منطقة الحجاز على وجه الخصوص في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فلم يكن "بأحسن مما يجاوره من الأقاليم بحكم الارتباط وخضوع الجميع للخلافة التركية التي أطلق عليها بعض المؤرخين الرجل المريض...، وما أحسب التاريخ يخالف الصواب والواقع إذا قال عن تلك الفترة: إنها أشد فترة مرت بهذا الإقليم، من حيث العبث السياسي والتدهور الاقتصادي"(٢).

لكن المنطقة شهدت نقلة حضارية بدأت معالمها في التبلور والظهور منذ أن دخل الملك عبدالعزيز منطقة الحجاز في العام ١٣٤٣هـ الموافق ١٩٢٤م حيث كان على رأس اهتماماته تأسيس مشروع البناء الحضاري لدولة حديثة قوية الأركان.

ولقد كانت منطقة الحجاز لا سيما مكة المكرمة قبل دخول الملك عبدالعزيز تتمتع إلى حد ما بسمات المجتمع المدني حيث وجدت بعض المدارس التي أنشئت لها أول وكالة للمعارف في المنطقة، كما أنشئت جريدة سميت القبلة، كذلك وجدت دار لسبك النقود الهاشمية، وأخرى لطبع الطوابع البريدية(٣). لكن بنية المجتمع المدني وما يحتاجه من مؤسسات وبنى تحتية لم تكن مكتملة وغير مستقرة؛ لهذا فقد كان دخول الملك عبدالعزيز إلى مكة المكرمة إيذانا بإقامة المجتمع المدني المؤسسي؛ الأمر الذي ساعد على دخول كثير من المفاهيم الحضارية التي لم تكن معروفة في تلك المنطقة، واستدعاها قيام حكومة تسعى إلى ترسية مفهوم الدولة الحديثة بكل ما تعنيه كلمة دولة.

---

(٢) الفوزان، إبراهيم فوزان، إقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثة، ١٩٨١م، ص٥٣.

(٣) السباعي، أحمد، تأريخ مكة دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، ط (٤)، ١٩٧٩م، ١/ ٦٢٣.

ويعود اختيار الموضوع إلى أن تأسيس المملكة بصفته حدثًا ضم مناطق متباعدة ومتنافرة تسودها الحروب والغارات والنهب والسلب يعد حدثًا جديدًا في التاريخ الحديث، وقد تناوله المؤرخون وصنفوا فيه كثيرًا من المؤلفات، لكن أحدًا منهم لم يتناول ذلك الحدث من حيث مساهمته في إدخال قدر هائل من المفاهيم الحضارية الجديدة دفعة واحدة إبان مرحلة التأسيس التي شملت كثيرا من مناحي الحياة في مستوياتها السياسية والاقتصادية والعلمية والاجتماعية، وقد أدت تلك النقلة الحضارية إلى أن أصبح الناس البسطاء يعرفون مفاهيم لم تكن متداولة بينهم، مثل: نقابات، وانتخابات، وسفراء، وسفارات، وبنوك، ومجالس بلدية، ومديريات، وغير ذلك مما يقتضيه قيام دولة حديثة.

لقد كان تفاعل الدولة مع المفاهيم الحديثة حاضرًا في رغبة الملك عبدالعزيز ورجاله في تأسيس دولة عصرية سُنت من أجلها التشريعات والأنظمة، وتعني "القواعد والأحكام التي تقوم بوضعها جهة مختصة في مسائل عامة؛ لتكون هذه القواعد نظاما عاما تسير عليه الدولة أو المؤسسة؛ بغرض ترتيب وتنظيم أعمالها"(٤) على جميع الأصعدة السياسية والاقتصادية والعلمية والاجتماعية، وأهم وسيلة لتحقيق ذلك كان استحداث نظم وقوانين إصلاحية في البناء الإداري والتنظيمي لجهاز الدولة؛ مما أدى إلى نقلة مجتمعية تجلت في مستويات عدة.

في مستوى سلطة الدولة:

"وضعت في مكة التعليمات الأساسية الشبيهة من بعض الوجوه بما نسميه الدستور، ووضعت للبلاد نظم قامت مقام القوانين"(٥)، وتشير مفاهيمها إلى العناية ببناء دولة حديثة وإرساء دعائمها،

---

(٤) تطور الإدارة العامة في المملكة العربية السعودية خلال مائة عام ١٣١٩-١٤١٩هـ/ ١٩٠٢-١٩٩٩م، إعداد معهد الإدارة العامة، الرياض، ١٩٩٩م.

(٥) الزركلي، خير الدين، شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، ط (٣)، ١٩٨٥م، ١/ ٣٥٤.

وإنشاء الوزارات والإدارات ومراكز الشرطة والشؤون الأمنية، وتعيين موظفي الدولة في كل القطاعات الحكومية، وإصدار التشريعات والأنظمة، وكان عددها يربو على مئة وعشرين نظاما عبر المراسيم والأوامر السامية.

في مستوى العلاقات الخارجية:

اتفاقات دولية وترسيم حدود ومعاهدات ومفاوضات وتبادل برقيات ومؤتمرات وبعثات تعليمية، وتمثيل سياسي، ويذكر خير الدين الزركلي أنه "لم يعرف بلد من البلدان التي تألفت منها مملكة عبدالعزيز التمثيل السياسي الأجنبي قبل عهده، وكل ما كان من قبل بضع قنصليات في الحجاز لشؤون الحج ومآرب أخرى... وكان أول ما بدأ به عهد الملك عبدالعزيز بعد دخوله الحجاز تنظيم العلاقات الدولية بين بلاده وبلاد الأمم الأخرى تنظيمًا صحيحًا أقيم على قواعد المعاملة بالمثل والصداقة المتبادلة"(٦).

في المستوى الاقتصادي والمالي:

سك العملة، واتفاقيات تجارية واستثمارات وإنشاء مصارف وشركات ومؤسسة للنقد ومصلحة للجمارك واستيراد وتصدير وضرائب ورسوم.

في مستوى المجتمع المدني:

أحوال مدنية ومدارس ومحاكم، ومستشفيات ونقابات ومجالس شورى ومجالس بلدية وانتخابات وأوقاف وإصلاح طرق وشوارع وترقيم المنازل وتسمية الشوارع، ومعظم هذه المفاهيم جديدة، وقد استوعبتها البلاغات والمراسيم والقرارات والبيانات الرسمية التي كانت تصدرها الحكومة، وتشير كثرتها وتتابعها إلى ولادة دولة تهدف إلى أخذ مكان لها في المجتمع الدولي الحديث، كما تسعى إلى

(٦) السابق، ص ٣٨١، ٣٨٣.

تأسيس مجتمع مدني يحظى بكل ما تحظى به المجتمعات الحديثة، وقد صحب هذا إنشاء أول جريدة رسمية كانت بمثابة الوعاء الذي حمل كل تلك المفاهيم، وساعد على نشرها بين المواطنين.

الدراسات السابقة:

إن الدراسة الوحيدة التي وقفت عليها في هذا الموضوع الدراسة التي قام بها محمد رشاد الحمزاوي بعنوان معجم المفاهيم الحضارية (القانونية والإدارية والاجتماعية والسياسية) من خلال الرائد الرسمي ١٨٦٠-١٩٠٠م تناول فيها المفاهيم التي سادت في تونس في فترتين تاريخيتين، هما فترة الاستعمار وفترة الحكم الوطني إلى أن تمّ الاستقلال.

تساؤلات الدراسة:

انطلقت الدراسة من الأسئلة الآتية:

١ - ما المفاهيم الحضارية التي دخلت المنطقة مع بدء قيام الحكم السعودي في الحجاز؟

٢ - ما مدى تفاعل الدولة مع تلك المفاهيم الحديثة؟

٣ - ما المدونة التي استوعبت تلك المفاهيم ونقلتها؟

٤ - ما دور اللغة في التعبير عن تلك المفاهيم؟

٥ - ما مدى استقرار تلك المفاهيم بعد قيام المملكة العربية السعودية وإلى اليوم؟

٦ - ما الألفاظ التي لحقها التغيير، وأقرها الاستعمال الرسمي بعد قيام المملكة العربية السعودية؟

منهج الدراسة:

تقوم الدراسة على المنهج الوصفي الذي يقتصر على دراسة اللغة في زمان ومكان معينين، وذلك بالجمع والاستقراء والتحليل والمناقشة.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الثاني، ربيع الآخر ١٤٢٨هـ، السنة الثالثة والثلاثون
الدارة

المدونة المعتمدة:

وقد اعتمدنا في عملنا هذا على صحيفة أم القرى، وهي أول صحيفة صدرت في عهد الملك عبدالعزيز بعد دخوله الحجاز عام ١٣٤٣هـ، الموافق ١٩٢٤م، حيث صدرت أسبوعية بمكة المكرمة، وظهر العدد الأول منها في الخامس عشر من جمادى الأولى عام ١٣٤٣هـ الموافق الثاني عشر من ديسمبر ١٩٢٤م، وقد حوت الكثير من الأخبار والأحداث والأنظمة والمراسيم والبيانات. وتكمن أهميتها في كونها "ذات سمات ميزتها عن سائر الصحف، فهي الصحيفة الرسمية للدولة، وما زالت تحمل هذه السمة، ومن خلالها تنشر النظم والتعليمات والبلاغات وسائر الأعمال على المستويين السياسي والإداري، وتكون تلكم التعليمات سارية المفعول حال نشرها....، وقد أتاحت هذه المهمات لها حضورًا فاعلا مكنها من الوصول إلى الخاصة والعامة، وجعلها تظفر بكفاءات بشرية ذات خبرة في العمل الصحفي، كما يسرت لها فرصة الاستمرار في الصدور حتى في أحلك الظروف وأشد الأزمات، خصوصا عندما شحت الإمكانات، وانقطع إمداد الورق أثناء الحرب العالمية الثانية"[٧]، فضلاً عن أنها الصحيفة التي تعبر عن سياسات الدولة واتجاهاتها في الداخل والخارج، وكانت افتتاحيتها تتضمن بعض المشكلات والقضايا السياسية أوالاقتصادية أو الاجتماعية داخليًا وخارجيًا، ويتضح من خلالها موقف الدولة من تلك القضايا؛ مما جعلها بحكم تخصصها في تلك القضايا مرجعًا في هذا الاختصاص، وهو ما يعرف اليوم بعلوم الإدارة والمفاهيم الحضارية.

وقد كنت اخترت عنوانا هو: المصطلح الإداري السعودي، دراسة معجمية تأصيلية للمفاهيم الحضارية من خلال صحيفة أم القرى.

---

(٧) الكشاف التحليلي لصحيفة أم القرى. القسم الأول ١٣٤٣-١٣٧٣هـ الموافق ١٩٢٤-١٩٥٣م، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ١/ ١٣.

ولكن بعد استقرائي للمدونة وجدت أن ما حوته يدخل في حيز المفاهيم أكثر منه في حيز المصطلحات؛ الأمر الذي دفعني إلى تغيير عنوان الدراسة ليكون: معجم المفاهيم الحضارية في مرحلة التكوين من ١٩٢٤ - ١٩٥٣م؛ أي: منذ دخول الملك عبدالعزيز الحجاز إلى وفاته؛ وذلك لأنه لم توجد قبل ذلك جريدة رسمية عنيت بما عنيت به أم القرى، وأعني بها الفترة التي سبقت دخوله الحجاز، واسترد فيها الرياض عام ١٩٠٢م، وكانت فترة عدم استقرار، أما وقوفي عند سنة وفاته فذلك لأن الدولة بعد ذلك التاريخ كانت قد استقرت إلى حد كبير، وكان دخول الملك عبد العزيز الحجاز وتأسيس الدولة المنطلق الأساس لوضع الأنظمة وسنّ القوانين وإنشاء المؤسسات والإدارات الحكومية، وإقامة العلاقات والتمثيل الديبلوماسي مع دول العالم الخارجي.

ولا شك أن بناء الدولة لا يتم بسهولة، وأنه ليس من خلال وثبة واحدة تنتقل الشعوب من درك التخلف والضعف إلى صعيد التحضر والقوة، بل إن ذلك يتحقق في خطوات وخلال مراحل متتالية، كل منها تفضي إلى ما تليها؛ لهذا كانت هذه المدونة حافلة بكل المفاهيم والمصطلحات التي استجدت إثر قيام الدولة، وكانت الدولة تنص عليها في المراسيم والبيانات والبلاغات لتنشرها أم القرى كما وردت.

بناء الدولة ليس من خلال وثبة واحدة تنتقل الشعوب من درك التخلف والضعف إلى صعيد التحضر والقوة

المنهجية:

اعتمدنا في عملنا هذا على استقراء مدونة أم القرى المحفوظة على ميكروفيلم، وقد واجهتنا صعوبة نتيجة لعدم وضوح بعض الأعداد، ونقص بعض الصفحات، وتآكل بعضها الآخر. وبعد أن قطعنا مرحلة لا بأس بها في البحث علمنا بقيام دارة الملك عبدالعزيز بإصدار كشاف تحليلي للصحيفة يقع القسم الأول منه في جزأين، ويغطي الفترة التي خصصناها للمعجم وهي من ١٩٢٤ إلى ١٩٥٣م.

وقد ساعدنا ذلك الكشاف على إعادة النظر فيما قمنا به من عمل سابق، كما ساعد على استكمال ما لدينا من نقص في بعض الأبواب.

وقد قامت الدارة بترتيب الكشاف حسب سنوات الصدور؛ أي: منذ السنة الأولى والعدد الأول الذي صدر في ١٥-٥-١٣٤٣هـ. وتحوي المادة مراسيمَ وأخبارًا وبلاغات ومقالات وإعلانات، إضافة إلى اهتمامها بالحركة الأدبية. وقد جرى ترتيبها حسبما وردً في كل عدد بعناوين صغيرة، حمل العنوان الأول رقم (١)، وحمل آخر عنوان في العدد الذي نُعي فيه الملك عبدالعزيز رقم (١٠٧٢١)، وذلك في السنة (٣٠) العدد ١٤٨٩ بتاريخ ٦-٣-١٣٧٣هـ الموافق ١٣-١١-١٩٥٣م.

أما المنهجية التي اتبعناها في عملنا في المعجم فقد تمت على مراحل:

١ - استقراء كل أعداد أم القرى بدءًا من العدد الأول وانتهاءً بالعدد ١٤٨٩، وقد قمنا بمسح كامل لمادته، وسجلنا من مفاهيمه ما رأيناه يستحق التسجيل دون تكرار أو إهمال أو إسقاط.

٢ - كان اهتمامنا محصورا في القوانين والتشريعات والمراسيم والأنظمة والأخبار ذات المضامين التي تخدم غرضنا من البحث، وهي المفاهيم المتعلقة بالإدارة والمجتمع والسياسة والاقتصاد، وكل ما له صلة بتأسيس الدولة، ذلك أن المعجمية الحديثة تستوجب "أن يعتمد كل معجم على ما يسمى عند أهل الاختصاص بالحقل المعجمي، ويعنى به مجموع الكلمات أو المصطلحات التي تشمل ميدانًا معينًا دون غيره حتى يمكن معالجة ذلك الميدان دون إهمال ولا إسقاط ولا تكرار؛ مما يساعد صاحب المعجم على ضبط لغة المعجم ومكانها وزمانها"(٨)؛ مما يعني أننا أسقطنا القضايا المتعلقة باللغة والأدب والشعر وأخبار الاحتفالات والمناسبات الخاصة والعامة.

---

(٨) الحمزاوي، محمد رشاد، معجم المفاهيم الحضارية من خلال الرائد الرسمي ١٨٦٠-١٩٠٠، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، سلسلة اللسانيات، عدد ٩، تونس، ١٩٩٨م، ص٨.

٣ - سجلنا المصطلحات في جذاذات، وقد حوت الجذاذة المفهوم وتعريفه بالسياق، ويعدّ التعريف بالسياق وبالاستعمال من أقوم التعريفات اللغوية عند الاختصاصيين لصلة مفهوم المصطلح بمحيطه. ثم أوردنا معلومات تتعلق بالمدونة، وهي السنة والعدد والصفحة والتاريخ باعتماد التاريخين الهجري والميلادي.

٤ - رتبنا الجذاذات حسب الترتيب الهجائي، وكانت أكثر المفاهيم قد عبر عنها بالمركبات لا بالألفاظ المفردة، فبدأنا بمصادر الصيغ المجردة فالمزيدة فالأسماء المجموعة، كما بدأنا بالمداخل المفردة متى ما وجدت ثم المركبة.

٥ - اهتممنا بالمفاهيم لا بالمصطلحات؛ ذلك أن تلك الفترة لم تشهد ولادة ولا استقرارًا للمصطلحات السياسية والإدارية والاجتماعية الحديثة بدليل أن التعبير عن تلك المفاهيم كان يتم في الأغلب بالمصطلحات المركبة تركيبًا إضافيًا أو وصفيًا، كذلك بالجمل المعقدة المكونة من كلمات عدة(٩)، علاوة على أن المفهوم سابق المصطلح، وعادة ما يتم التعبير عنه بمركب أو بجملة أو عبارة ريثما يستقر المفهوم ثم يصار إلى اختزالها، ونقلها بأسلوب من أساليب العربية المعروفة في وضع المصطلحات، هذا إضافة إلى أن الفترة التي شملها بحثنا لم تكن قضية المصطلحات الحديثة والتعبير عنها في اللغة العربية قد عرفت في المنطقة العربية على النحو الذي تعرف به اليوم.

(٩) ومن أمثلة ذلك من المركب الإضافي: مشروع الأيتام، وأمير القطيف، وشركة البترول. ومن المركب الوصفي: الخبير المالي، ومنشور ملكي، وبيان عام. ومن المركبات الطويلة والمعقدة: وجوب تنظيم تسمية الشوارع بأسماء أعلامنا البارزين في التاريخ الحديث والقديم، واحتجاجات الشعب العربي السعودي على تمزيق فلسطين وتجزئتها، وخلاصة أعمال مجلس الشورى في عام، ومهندس إصلاح الطرق المنتدب من مصر.

اللغة

إن اللغة التي نقلت أم القرى بوساطتها تلك المفاهيم لغة عربية سليمة تخلصت إلى حد كبير من العامية ومن الدخيل، على الرغم من أن المنطقة لمّا تزل قريبة عهد بالحكم العثماني، حيث كانت اللغة التركية مهيمنة في معظم البلاد العربية، فكانت لغة بعض الخاصة والعامة، كما كانت لغة الإدارة، إضافة إلى أن مكة كانت مركزًا دينيًا غلبت عليه العجمة لغلبة اللغات والجنسيات التي استوطنت مكة، لكنها - حسب يحيى بن جنيد - " كانت في القرن التاسع عشر الميلادي مركزًا ثقافيًا مؤثرًا، تتوافر الدلائل على وجود المكونات الثقافية فيها التي أثرت في حياة مجتمعها تأثيرا واضحا"(١٠)، غير أن الذي يحمد للقائمين على أم القرى أنهم حافظوا على اللغة العربية الفصيحة، وجاء استخدامهم لبعض الألفاظ العامية والأعجمية قليلا أملاه استقرار الكلمة الأعجمية أو العامية وعدم وجود المقابل الفصيح الذي يدل عليها، وسنلحظ فيما بعد أن هذه الألفاظ اختفت وحلّ محلها لفظ فصيح(١١).

ولا ريب أن لغة المعاجم تسير وفق منهجية في التسمية والتعبير عن المفاهيم، لهذا فالسؤال الذي يطرح في هذا المجال هو أين تقع لغة أم القرى من هذا المنهج، وهل شكلت لغة حديثة أو متطورة موازية لحركة النمو التي شهدتها البلاد؟

يلحظ أننا لن نعني في هذا الحيز من الدراسة بالخوض في منهجيات وضع المصطلح للتعبير عن المفاهيم، ذلك أننا قد أشرنا في

(١٠) ابن جنيد. يحيى محمود. الحياة الثقافية في مكة المكرمة في القرن التاسع عشر الميلادي ١٢١٥-١٣١٧هـ. كتاب الرياض، ص١٣.

(١١) كان ممن تولى رئاسة تحريرها: يوسف ياسين ورشاد ملحس ومحمد سعيد عبدالمقصود وفؤاد شاكر وعبدالقدوس الأنصاري، وهم ممن يشهد لهم بالتميز في اللغة العربية، كما كان يكتب فيها نخبة من الشباب الذين أسهموا في تأسيس الحركة الأدبية في المملكة، ومن ثم صاروا رموزا لها مثل: محمد حسن عواد وحمزة شحاتة وعزيز ضياء وغيرهم.

مطلع الدراسة إلى أن المعجم خاص بالمفاهيم التي جاءت في صورة عناوين صيغت في شكل مركبات وجمل وعبارات؛ ولهذا اهتممنا بالمفاهيم لا بالمصطلحات التي تعبر عنها وأساليب وضعها، لكن هذا لم يمنعنا من ملاحظة أن كثيرًا من الألفاظ التي كانت متداولة قد نالها شيء غير قليل من التغير، ويلحظ "أن سيطرة المنهج الوصفي على البحوث اللغوية في الغرب ولا سيما بعد دوسوسير، جعل الدارسين يبتعدون عن استخدام مصطلح التطور لارتباطه بمعنى التقييم؛ أي: الانتقال من حال إلى حال ترقيًا نحو الأفضل، ولذلك غدا مصطلح (change) الذي يدل على التغير أكثر استعمالا من مصطلحي التطور المعروفين في اللغة الفرنسية وبعض اللغات الأوربية الحديثة وهما (Evolution) ، (Developpement)، وإذا ما حدث استخدام لأحد هذين المصطلحين فالغالب أن المقصود هو التغير"(١٢).

وقد أجرينا مسحًا شاملاً لكل الألفاظ التي حوتها المدونة بدءًا من العدد الأول وانتهاءً بالعدد الأخير الذي وقفنا عنده، وقد بحثنا في تغير الألفاظ من حيث ما طرأ على صيغها ودلالاتها من تضييق أو توسيع أو تخصيص، كما بحثنا في استخداماتها المختلفة ومستويات ذلك الاستخدام وتاريخه، مع إيراد سياقاتها المختلفة ومراعاة التدرج الزمني؛ ليتضح تاريخ التغير الذي لحق بعض الألفاظ.

ومن حيث تأريخ الألفاظ فإنه هنا لا يرتبط بتاريخ استعمال المتكلمين لها، ولكن يرتبط بتاريخ استعمالها استعمالا رسميًا، ما يعني أن ما رصدناه من تاريخ يعد مؤشرًا على تداولها في تلك الفترة في المستوى الرسمي فقط، وكان ذلك الاستعمال انعكاسًا لما تعرضت له البلاد من تطور في المستويات السياسية والإدارية والاجتماعية؛

(١٢) قدور، أحمد محمد، مبادئ اللسانيات، ط (٢)، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر دمشق، ١٩٩٩م، ص٣٢٣.

ولهذا فقط كشف تغير الألفاظ تبعًا لتاريخ استعمالها عن فترتين مهمتين في مرحلة تكوين البلاد، حيث وجدنا بعض الألفاظ التي استخدمت في المرحلة الأولى من التأسيس وغُيّرت في مرحلة لاحقة، ولهذا التغيير أسبابه التي سنقف عليها، كما لحظنا من خلال استقراء المدونة أن ألفاظًا بقيت قيد الاستعمال ولم ينلها أيّ تغيير في الفترة الزمنية نفسها؛ مما يعد مؤشرًا على استقرارها واستمرار العمل بها طوال تلك السنين، لكن التغيير حدث فيما بعد، حيث نجد لها مقابلا مختلفًا يجري به الاستعمال في أيامنا هذه، لكن لابد من ملاحظة أن التغيير يحدث أحيانا دونما سبب واضح، ولا سيما عندما تحل كلمتان متقاربتان واحدة محل الأخرى، وسنأتي على ذكر ذلك ما استطعنا.

الألفاظ التي جرى تغييرها لأسباب تتعلق بالدلالة أو بالصيغة:

١ - المظاهرات والإضراب في المملكة العربية السعودية احتجاجًا على تجزئة فلسطين في ١٥ -٥-١٣٥٦هـ الموافق ٢٣-٧-١٩٣٧م. هياج أهالي (الجبيل والمجمعة وشقراء وينبع) احتجاجًا على ما يحدث في فلسطين في ٦-٢-١٣٦٧هـ الموافق ١٩-١٢-١٩٤٧م، و١٢-٣-١٣٦٧هـ الموافق ٢٣-١-١٩٤٩م، و٢٦-٣-١٣٦٧هـ الموافق ٦-٢-١٩٤٨م. ويلحظ أن الاستعمال جرى باستخدام (المظاهرات) في العام ١٣٥٦هـ الموافق ١٩٣٧م، ثم استبدلت الكلمة بكلمة هياج في العامين ١٣٦٧هـ و ١٣٦٨هـ الموافق ١٩٤٧م و ١٩٤٨م إبان أزمة فلسطين، لكن كلمة (هياج) لها دلالة عامة، حيث الهياج حسب لسان العرب "يوم القتال... وتهايج الفريقان إذا تواثبا للقتال... والهيج والهياج الحرب"[١٣]، كما أن الهياج عام في الإنسان والحيوان. أما المظاهرة فلها دلالة خاصة وتعني تجمع الناس للاحتجاج على أمر يزعجهم يتعلق في الأعم الأغلب

(١٣) ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ١٩٧٥م (هيج).

بالنواحي السياسية والاقتصادية، والمظاهرة (مفاعلة) صيغة تدل على المشاركة، وفي اللغة "تظاهروا عليه: تعاونوا، والتظاهر التعاون، والمظاهرة المعاونة"(١٤)، وفي القرآن الكريم مخاطبا بعض زوجات النبي ﷺ ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١٥) أي: إن تتعاونا عليه، فالمظاهرة بناء على ذلك تعني مطلق التعاون، وقد خصصت دلالة الكلمة هنا؛ فأصبحت تعني التجمع والتجمهر للاحتجاج أو للتأييد، ولهذا فلقد جرى العدول فيما بعد عن كلمة (هياج) إلى كلمة (مظاهرة)، وهذا عائد لأن الكلمة قد ضُيقت دلالتها، وصارت شائعة في العالم العربي بهذا المعنى للتعبير عن المواقف السياسية التي تقوم بها الجماهير.

٢ - البدء في رصف المشعر الحرام في ١٢- ٧- ١٣٥٦هـ الموافق ١٧-٩-١٩٣٧م، ورصف شارع المسعى في ١-٧- ١٣٥٧هـ الموافق ٢٦-٨-١٩٣٨م، والانتهاء من ترصيف الطريق بين مكة وجدة على الطراز الحديث في ١١-١٠-١٣٦٠هـ الموافق ٣١-١٠-١٩٤٠م. وقد بدأ الاستخدام بكلمة رصف التي عُدل عنها إلى كلمة ترصيف، جاء في تاج العروس "ورصف الحجارة ترصيفا، مثل رصَفها رصفًا"(١٦). أما المستعمل في الوقت الحاضر فهو (رصف) ربما آثروا الصيغة المجردة؛ لأنها الأولى، كما أنها أخف وإن كانت الثانية أقيس لدلالة التضعيف على الكثرة.

٣ - جرى استخدام كلمة خطاب للدلالة على الخطب التي ألقاها الملك عبدالعزيز - رحمه الله - أو أحد أبنائه أو بعض زائريه أو بعض المسؤولين، وذلك منذ العام ١٣٤٤هـ الموافق ١٩٢٦م، لكن

(١٤) السابق (ظهر).

(١٥) التحريم، آية ٤.

(١٦) الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، القاهرة، ١٣٠٦هـ.

في الأعـــوام من ١٣٥٩هـ الموافق ١٩٤٠م إلى ١٣٦٨هـ الموافق ١٩٤٩م جرى استخدام النطق الملكي والنطق السامي للتعبير عن الخطاب الذي يلقيه الملك أو نائبه أو ولي العهد، ثم تمّ العدول عن ذلك باستخدام كلمة الخطاب أيّا كان قائله. ولا يخفى أن (النطق) كلمة عامة تشمل الخطاب وغير الخطاب، أما (الخطاب) فهي أكثر دلالة على ذلك النوع من الكلام الذي يُلقى في محفل رسمي من قبل الحاكم أو غيره من الحاضرين.

٤ - وردت كلمة (اعتمار) للتعبير عن تأدية مناسك العمرة منذ العام ١٣٦٨هـ الموافق ١٩٤٩م وحتى العام ١٣٧٩هـ الموافق ١٩٥٠م. وهي مصدر اعتمر. وقد جاء في القرآن الكريم ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ﴾[17]، لكن عُدل عن استخدام المصدر إلى استخدام الاسم (العمرة) فأصبحوا يقولون: أدى فلان مناسك العمرة. وهو الاستعمال الذي استقر إلى أيامنا هذه.

٥ - جلب مهندسين في ١٥-١-١٣٤٦هـ الموافق ١٥-٧-١٩٢٧م، واستقدام مستشار مالي في ١٠-١١-١٣٥٠ هـ الموافق ١٨-٣-١٩٣٢م. واستحضار ثلاثة معلمين في١٠-٦-١٣٥٥هـ الموافق ٢٨-٨-١٩٣٦م. استخدمت فيما سبق الكلمات (جلب واستقدام واستحضار) على التوالي، وقد جرى تضييق دلالة (جلب): لأنها كلمة عامة تدل على كل ما يجلب عاقلا وغير عاقل، لكنها أكثر ملاءمة لغير العاقل، أمّا استحضار واستقدام فمن الحضور والقدوم جيء بهما على صيغة استفعال الدالة على الطلب، وتخص الوافدين من الناس الذين يُطلب حضورهم للقيام بأعمال خاصة للقطاعين العام والخاص، وقد استقرت كلمة (استقدام) وحدها إلى أيامنا هذه، وكان سبب التغيير لغويًا دلاليًا.

---

(١٧) البقرة، آية ١٥٨.

٦ - جرى استخدام المصدر تنوير في ٢٩-٦- ١٣٤٦هـ الموافق ٢٣-١٢-١٩٢٧م (تنوير دار الحكومة بالكهرباء)، واستمر إلى ١١-٦-١٣٥٨هـ الموافق ٢٨-٧- ١٩٣٩م (تنوير الحوانيت في العاصمة)، كما استخدم المصدر إنارة في ٤-٨-١٣٦٤هـ الموافق ٢٧-١-١٩٢٨م (إنارة الحرم)، واستمر إلى ١٥-٢-١٣٥٢هـ الموافق ٩ - ٦ - ١٩٣٣م (إنارة مكة بالكهرباء)، وأما في ١١-٨-١٣٤٦هـ الموافق ٣-٢-١٩٢٨م فقد استخدم المصدر إضاءة (إضاءة القصر الملكي)، واستمر ذلك إلى ١٩- ٦- ١٣٦٩هـ الموافق ٧-٤-١٩٥٠م (الإضاءة الجديدة في المسجد الحرام).

٧ - ترفيعات في مجلس الشورى في ٢٦- ٤- ١٣٥٧هـ الموافق ٢٤-٦-١٩٣٨م، وترفيعات عسكرية في ١٧-٨-١٣٧٢هـ الموافق ١-٥- ١٩٥٣م. بدأ استخدام كلمة ترفيع في العام ١٣٥٧هـ الموافق ١٩٣٨م. واستمر إلى العام ١٣٧٢هـ الموافق ١٩٥٣م. وفي ١-٥- ١٣٥٩هـ الموافق ٧-٦-١٩٤٠م بدأ استخدام الكلمة المرادفة (ترقية)، وقد استمر استخدامها إلى أيامنا هذه، حيث استقرت كلمة (ترقية) التي هي أكثر دلالة على المفهوم من (ترفيع) التي ضيقت دلالتها.

٨ - كما جرى استخدام كلمة (ترقية) للدلالة على التطوير مثل: ترقية شؤون الري والزراعة في ٣٠-٩-١٣٥٦هـ الموافق ٣-١٢-١٩٣٧م، وترقية شؤون العمال في ٥-٤-١٣٥٧هـ الموافق ٣-٦-١٩٣٨م. لكن لم أجد هذه الكلمة بعد ذلك التاريخ للدلالة على (التطوير)، وهي الكلمة التي يجري بها الاستعمال في أيامنا هذه.

٩ - تعيين الحدود بين نجد والعراق ورد في ٥-٤-١٣٤٤هـ الموافق ٢٣-١٠-١٩٢٥م، كما ورد مرة أخرى في ٢٨-١١-١٣٥٤هـ الموافق ٢١-٢-١٩٣٦م لدى الحديث عن تعيين الحدود بين المملكة العربية السعودية ومملكة اليمن، وقد استمر العمل بكلمة (تعيين)



إلى نهاية زمن الدراسة، أما الكلمة المستخدمة في أيامنا هذه فهي (ترسيم الحدود)، حيث جرى تضييق الدلالة، فالترسيم أكثر دلالة على تحديد الحدود الفاصلة بين بلدين متجاورين.

١٠ - في ١٠-٦-١٣٦٠هـ الموافق ٤-٧-١٩٤١م جرى استخدام كلمة (عائدية) الأراضي في قولهم: تحديد الأراضي لإثبات عائديتها. وقد جرى تضييق الدلالة وصارت الكلمة المستخدمة فيما بعد واستقرت إلى أيامنا هذه هي (ملكية) بدلاً من (عائدية).

١١ - جرى في الأعوام من ١٣٤٣هـ الموافق ١٩٢٥م إلى ١٣٦٠هـ الموافق ١٩٤٠م استخدام كلمة (منشور) للدلالة على بيان أو كلمة موجهة من الملك إلى الشعب، ومن ذلك (المنشور الذي أصدره السلطان عبدالعزيز بخصوص منع التجار من الاحتكار في ١٣-٧-١٣٤٣هـ الموافق ٦-٢-١٩٢٥م)، وكذا (المنشور الملكي، نص الكلمة التي كتبها الملك عبدالعزيز إلى الشعب الحجازي في ٧-٨-١٣٦٠هـ الموافق ٢٩-٨-١٩٤١م)، وقد جرت ترقية الدلالة حيث إن (المنشور) يعني ما تقوم بعض التنظيمات السرية بكتابته وتوزيعه؛ ليقرأه الناس بعيداً عن أعين الدولة.

١٢ - استخدمت كلمة (تأصيل) للدلالة على التثبيت في وظيفة من الوظائف، وذلك كقولهم: (تأصيل... على وظيفة في ١٦-٥-١٣٦٧هـ الموافق ٢٦-٣-١٩٤٨م)، وقد عُبر عن هذا المفهوم فيما بعد بكلمة (تثبيت) التي جرى استخدامها بعد وفاة الملك عبدالعزيز، حيث صدر مرسوم من لدن الملك سعود يقضي بتثبيت الأمراء والوزراء وموظفي الدولة في مراكزهم في ٧-٣-١٣٧٣هـ الموافق ١٣-١١-١٩٥٣م. وهي أكثر دلالة على المفهوم من (تأصيل)، كما أنها الكلمة المتداولة في هذه الأيام.

١٣ - منذ العام ١٣٤٨هـ الموافق ١٩٣٨م، وإلى آخر فترة الدراسة، أي: العام ١٣٧٣هـ الموافق ١٩٥٣م جرى استخدام المركب (التمثيل

السياسي) للدلالة على من يمثل المملكة من سفراء وغيرهم لدى الدول العربية والإسلامية والأجنبية. وقد ضيقت دلالة المركب فيما بعد حتى استقرّ المركب (التمثيل الديبلوماسي)؛ لأن (السياسة) كلمة عامة تصلح لأشياء كثيرة، كما تشمل كل من يعمل في الحقل السياسي من وزراء ومسؤولين ورؤساء أجهزة الدولة، أما (ديبلوماسي) فلها دلالة خاصة على كل ما له علاقة بالسفارات وتبادل السفراء والقناصل والبعثات الديبلوماسية، وغير ذلك مما يقتضيه العمل الديبلوماسي.

١٤ - جرت النسبة إلى الجمع (ملوك) في مثل عطف ملوكي، وذلك منذ العام ١٣٤٥هـ الموافق ١٩٢٦م إلى العام ١٣٥٣هـ الموافق ١٩٣٤م. كما نسب إلى المفرد (ملك) في قولهم: (بلاغ ملكي) و(الركاب الملكي) في ٣٠-٦-١٣٤٤هـ الموافق ١٥-١-١٩٢٦م، و ٦-١-١٣٤٥هـ الموافق ٨-٤-١٩٢٧م.

وجرى الاستخدام بهما معا إلى أن استقرّ الاستخدام على (ملكي) في قولهم: (تلطيف ملكي) في ٨-٣-١٣٦٨هـ الموافق ٧-١-١٩٤٩م، و (إنعام ملكي) في ٢-٧-١٣٦٨هـ الموافق ٢٩-٤-١٩٤٩م ربما عملا برأي النحاة القدماء الذين منعوا النسبة إلى جمع التكسير، لكن مجمع اللغة العربية قال بجوازه عند الحاجة[١٨]، فالتغيير هنا تمّ بسبب صرفي.

١٥ - استخدمت كلمة (تعاطي) للدلالة على مزاولة مهنة من المهن في مثل: قرار مجلس الشورى بشأن تعاطي الطبابة والصيدلية في ١٢-٣-١٣٤٧هـ الموافق ٢٧-٨- ١٩٢٨م، كذلك في صدور قانون تعاطي الصيدلية في ٢٥-٨-١٣٥٤هـ الموافق ٢٢-١١- ١٩٣٥م.

(١٨) ينظر كتاب سيبويه، تحقيق عبدالسلام هارون، د. ت، ج ٣/ ٣٧٨، كذا الحمزاوي، محمد رشاد، أعمال مجمع اللغة العربية في القاهرة، ط (١)، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٦م، ص٥٩٧.

ولم يرد استعمالها فيما بعد ذلك العام، حيث حلت محلها كلمة (مزاولة) التي ما زالت قيد الاستعمال إلى هذا الزمن، وربما كان التغيير من باب ترقية الدلالة، حيث اقتصر استخدام كلمة (تعاطي) على تناول المسكرات والمخدرات.

١٦ - استخدمت أم القرى المصدر (مزايدة)، وهو مصدر الثلاثي المزيد بالألف (زايد) إشارة إلى السلع التي تعرض على الجمهور بغية بيعها بأعلى سعر. وذلك في ٢٤-٨-١٣٤٣هـ الموافق ٢٠-٣-١٩٢٥م، وقد عُدل عنه إلى (مزاد). وهو مصدر ميمي لفعل مجرد، وذلك لارتباط المصدر بدلالة سلبية تعني المتاجرة في المواقف والقيم، لتحقيق مكاسب شخصية. فغُير المصدر لترقية الدلالة إضافة إلى طلب الخفة الصوتية، لكن (المزايدة) أقيس من مزاد.

١٧ - شاع استخدام الكلمات (تعريفة، وتعرفة، وضريبة، ورسوم) للدلالة على ما يدفع مقابل ما تقدمه الدولة من خدمات، وكان أقدم استخدام لكلمة تعريفة قد ورد في ٢٩-٧-١٣٤٤هـ الموافق ١٢-٢-١٩٢٦م، واستمر العمل بها إلى ٢٣-٩-١٣٧٢هـ الموافق ٥-٢-١٩٥٣م.

أما تعرفة فقد ورد أقدم استخدام لها في ١٩-٧-١٣٥٦هـ الموافق ٢٤-٩-١٩٣٧م. وذلك في إعلان عن تعرفة الحج في ذلك العام، وكان آخر استعمال للكلمة في ١٦- ٩-١٣٧٢هـ الموافق ٢٩-٥ -١٩٥٣م في البيان الخاص بتعرفة حج ذلك العام، وأما رسوم فقد ورد أقدم استخدام لها في ٥-٥-١٣٥٠هـ الموافق ١٨-٩-١٩٣١م، وذلك عند صدور الأمر المتعلق بالرسوم المقررة على الجوازات، فرسوم المحاكم في ٢٠-١ -١٣٥٣هـ الموافق ٤-٥-١٩٣٤م، ثم رسوم إقامة الأجانب في ١-٣- ١٣٧١هـ الموافق ٣٠-١١-١٩٥١م.

وكان أول استعمال ورد للضريبة في ١٢-٢-١٣٧٢هـ الموافق ٣١-١٠-١٩٥٢م، وذلك في قرار مجلس الشورى بشأن الضرائب

المستحقة لبلدية جدة، ثم حول ضريبة الدخل في ٢٣-٧-١٣٧١هـ الموافق ١٨-٤-١٩٥٢م.

ويلحظ أنه لم يكن هناك حد فاصل بين الضريبة والرسوم، حيث يوجد تداخل بينهما، غير أن المستخدم الآن هو (الرسوم) التي تؤخذ من المواطنين والمقيمين نظير الخدمات التي تقدمها الدولة كرسوم تأسيس للهاتف والكهرباء ورسوم رخص البناء من المواطنين، وأما (الضرائب) فتؤخذ من الشركات الأجنبية والبنوك.

١٨ - أثناء استقرائنا للمدونة لحظنا تعددًا في الألفاظ المعبرة عن مفهوم واحد، مثل: (الإرادة السامية، الأمر العالي، الإرادة السنية، الأمر السامي، بلاغ رسمي، أمر ملكي، مرسوم ملكي)، ولعل المركبات الثلاثة الأول أثر من آثار لغة الإدارة التركية التي كانت شائعة في الوطن العربي في ذلك الزمن، وقد توقف استخدامها حسب الترتيب في الأعوام ١٣٥٦، ١٣٦١، ١٣٦٢هـ الموافق ١٩٣٨، ١٩٤٢، ١٩٤٣م. أما بلاغ رسمي فقد استخدم أول مرة في ٥-١١-١٣٤٣هـ الموافق ٢٦-٦-١٩٢٥م، وأما المرسوم الملكي فقد استخدم أول مرة في ٢١-٣-١٣٥٢هـ الموافق ١٤-٧-١٩٣٣م. وأما الذي استقر منها وبقي قيد الاستعمال فهو:

الأمر السامي: وهو قرار مكتوب ليس له شكل محدد يحمل توقيع الملك بوصفه رئيس مجلس الوزراء، وذلك لما يتخذه في شؤون معينة كاعتماد السفراء والممثلين الأجانب، أو تنفيذ الأحكام القضائية، ويمكن أن يصدر من النائب الأول أو الثاني لرئيس مجلس الوزراء.

الأمر الملكي: وهو قرار مكتوب بطريقة معينة في شأن من شؤون الدولة دون عرضه على مجلس الشورى أو مجلس الوزراء، يحمل توقيع الملك بصفته رئيسا للدولة كتعيين ولي العهد، أو نواب رئيس مجلس الوزراء ،أو السفراء أو غيرهم.

المرسوم الملكي ويعني: قرارًا مكتوبًا بشكل معين يحمل توقيع الملك بصفته رئيس الدولة، وذلك بالموافقة على موضوع بحثه، ووافق عليه مجلس الشورى ومجلس الوزراء، كالموافقة على الأنظمة والاتفاقات الدولية وغيرهما(١٩).

١٩ - تميزت أم القرى بالإحكام اللغوي الذي يفوق لغة بعض الصحف في أيامنا هذه، وقد تجلى ذلك في استخدام صيغ المصادر المجردة والمزيدة للتعبير عن المفاهيم، ومن ذلك: الاحتدام في المسعى، إزالة الأطلال والنواتئ، استتباب الأمن، استيفاء الرسوم، إيفاد بعثة علمية إلى مصر، تعقّب سيارات الحجاج، توارد وصول الحجاج، توالي التبرعات. طِبابة (فِعالة للدلالة على المهنة، ومُدخر (اسم مكان مما فوق الثلاثي) للدلالة على المكان الذي تحفظ فيه المتروكات (مستودع)، وموردة جديدة للماء (اسم فاعل مما فوق الثلاثي)، بوادر العمل الزراعي (جمع بادرة).

ومما سبق نلحظ أن جانبا كبيرا من تغيير الألفاظ كان ناتجًا عن مراعاة الدقة في إقرار البديل كما في المستوى الصرفي حيث تصبح الصيغة المختارة أكثر دلالة على المعنى من الكلمة السابقة، كما يكون ناتجًا عن تخصيص الدلالة أو تضييقها أو ترقيتها، وأحيانا لا يكون تغير مجال الاستعمال أن اللفظ الجديد أخصّ من القديم ولا أعم منه، ولكن يكون بسبب الرغبة في التسهيل، وأحيانا قليلة يكون البديل بسبب التأثر باللغات الأجنبية.

جانب كبير من تغيير الألفاظ ناتج عن مراعاة الدقة في إقرار البديل

أما فيما يتعلق بالكلمات الأعجمية فقد ورد عدد قليل منها مثل: (كوشان)، وتعني التصريح، أو الفسح الذي تمنحه بلدية المنطقة

---

(١٩) انظر النظام الأساسي للحكم، أيضا رسلان، أنور أحمد، القانون الإداري السعودي، معهد الإدارة العامة، ١٤٠٨، ص١٩٧.

للمواطنين، وكذلك كلمة (بازان)[٢٠]، وتعني البئر التي يجلب منها الماء عن طريق السقّائين، ولعل الكلمتين أثر من آثار اللغة التركية في المنطقة، إضافة إلى: الكونداسة (آلة تقطير الماء) وكرنتينا (المحجر الصحي) وتلغراف وتليفون وكود وبوليس وأوتيل.

وأما الكلمات التي وردت حسب استخدام العامة فهي: السواقين (السائقون)، والمهفات (المراوح)، وأسعار الأرزاق (المواد الغذائية)، والتفاريق (أجزاء العملة)، والوفد اليماني (اليمني)، ونظامات الشرطة (أنظمة).

وبعد فلعلّ فيما تقدم إجابة عن الأسئلة التي طرحناها في مطلع الدراسة عن دور اللغة في التعبير عن المفاهيم الحضارية، ومدى استقرار تلك المفاهيم باستقرار الألفاظ المعبرة عنها، وما الذي لحقه التغير منها وأقره الاستعمال الرسمي، ثم دور أم القرى في تشكيل لغة حديثة موازية لحركة النمو التي شهدتها البلاد.

لا ريب أن لغة أم القرى كانت انعكاسًا لما شهدته البلاد من تطور ونمو في كلّ المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ حيث سارت اللغة جنبًا إلى جنب مع كلّ التطورات التي مرت بها البلاد، وكان ذلك واضحًا في اللغة التي عمل القائمون على مؤسسات الدولة وكذلك القائمون على صحيفة أم القرى على ترقيتها؛ لتواكب ما تمرّ به البلاد من تطورات، وقد لحظنا من خلال استقرائنا للألفاظ المستعملة للتعبير عن المفاهيم الحضارية كيف أن بعضها توارى من ساحة الاستعمال، وبعضها بقي قيد الاستعمال إلى آخر زمن الدراسة، واستمرّ العمل به إلى أيامنا هذه، وبعضها الآخر لم يعد له وجود الآن حيث استبدلت به ألفاظ أخرى.

---

(٢٠) "بازان: يقوله أهل مكة للأبزن الذي يأتي إليه ماء العين عند الصفاء، ويعنون به (آب زان)، أي: الأبزن: لأنه شبه حوض... ". المحبي، محمد الأمين بن فضل الله، قصد السبيل فيما في اللغة العربية من الدخيل، تحقيق وشرح عثمان محمود الصيني، ط (١)، الرياض ١٩٩٤م، ١/ ٢٤٤.

ومما يدل كذلك على الاهتمام بترقية اللغة ومسايرتها لمناحي التغيير أن ما وجدناه من ألفاظ عامية أو أعجمية كان قليلا جداً على الرغم من أن البلاد كانت قريبة عهد بالحكم التركي، كما كانت الأمية غالبة فيها، وهذا كله يعدّ مؤشراً على أن اللغة لم تكن بمنأى عمّا كان يحدث في البلاد من تطور ورقي.

جدول بالكلمات المستقرة والمغيّرة وتاريخها(*)

الكلمة المتغيرة	تاريخ استعمالها	الكلمة المستقرة	نوع التغيير(**)
تشييد مجزرة سلخانة	٢٥-٦-١٣٤٧هـ ٢٧-١٠-١٣٥٨هـ	مسلخ	
التمثيل السياسي	٢٤-١٠-١٣٥٧هـ استمر العمل بها حتى آخر فترة الدراسة	التمثيل الدبلوماسي	تضييق الدلالة
تعيين الحدود بين نجد والعراق تعيين الحدود بين المملكة العربية السعودية ومملكة اليمن	٥-٤-١٣٤٤هـ ٢٨-١١-١٣٥٤هـ واستمر العمل به إلى نهاية فترة الدراسة.	ترسيم	تضييق الدلالة
تنسيقات وترتيبات في تغيير موظفين، وتعيين آخرين التنسيقات في الدوائر الحكومية	١١-١١-١٣٤٧هـ ١٧-٧-١٣٥٠هـ	تعديل - تغيير	تخصيص الدلالة
تعديل رسوم الجمرك	٢٣-٦-١٣٤٤هـ	تغيير	

(*) لم أرتب هذا الجدول حسب الترتيب الهجائي، فقد كان اهتمامي منصبًا في الكلمة، وسنة استخدامها، ومدى استقرارها أو تغييرها، كما اكتفيت هنا بالتاريخ الهجري: لأنني أثبت التاريخ الميلادي المقابل فيما سبق.

(**) يلحظ أن التغيير قد يكون له سبب واضح، وأحيانا لا يكون له سبب واضح، لكنه يحدث، وتكون الكلمة التي استقرت قريبة من الكلمة المغيرة، أو يكون بينهما فرق دقيق.

تابع - جدول الكلمات المستقرة والمغيّرة وتاريخها

الكلمة	تاريخ استعمالها	الكلمة المستقرة	نوع التغيير
السفر للتداوي السفر للشفاء والاستشفاء	٢٢-٣-١٣٧١هـ ١١-٦-١٣٧١هـ	للعلاج	
التجريد من الجنسية تجـريد من يسـتخـدم القوى المسلحة الأجنبية من الجنسية السعودية	٥-٩-١٣٦٨هـ	سحب	
عطف ملوكي إنعام ملكي تلطيف ملكي	٢٨-٥-١٣٤٥هـ ٥-٧-١٣٥٦هـ ٢٦-١٠-١٣٧١هـ	مكرمة ملكية	تخصيص الدلالة
عطف ملوكي عطف ملكي	٣-٧-١٣٥٣هـ ١٦-٧-١٣٥٥هـ	ملكي	سبب صرفي
ترفيعات في مجلس الشورى ترفيعات عسكرية	٢٦-٤-١٣٥٧هـ ١٧-٨-١٣٧٢هـ	ترقية	
ترقيـة شـؤون الري والزراعة. ترقية شؤون العمال	٣٠-٩-١٣٥٦هـ ٥-٤-١٣٧٥هـ لم أجد هذه الكلمة بعد هذا العام	تطوير	تخصيص الدلالة
التأصيل على وظيفة	١٦-٥-١٣٦٧هـ	تثبيت	تخصيص الدلالة

تابع - جدول الكلمات المستقرة والمغيّرة وتاريخها

الكلمة	تاريخ استعمالها	الكلمة المستقرة	نوع التغيير
تثبيت الأمراء والوزراء وموظفي الدولة في مراكزهم	٦-٣-١٣٧٣هـ	تثبيت	
اعتمار	٢٨-٣-١٣٦٨هـ	مناسك العمرة	تخصيص الدلالة
توزيع منشور الملك منشور ملكي نصّ الكلمة التي كتبها الملك لشعب الحجاز منشور كريم (خطاب الملك إلى العالم الإسلامي والعربي)	١٩-٢-١٣٥٦هـ ٧-٨-١٣٦٠هـ ٢٤-١٢-١٣٥٣هـ	كلمة	ترقية الدلالة
تحديد الأراضي لإثبات عائديتها	١٠-٦-١٣٦٠هـ	ملكيتها	تضييق الدلالة
تعاطي الصيدلة	٢٥-٨-١٣٥٤هـ	مزاولة	ترقية الدلالة
جلب مهندسين استقدام مستشار استحضار معلمين	١٥-١-١٣٤٦هـ ١١-١١-١٣٥٠هـ ١٠-٦-١٣٥٥هـ	استقدام	لغوي دلالي
مظاهرة هياج	١٥-٥-١٣٥٦هـ ٢٦-٣-١٣٦٧هـ	مظاهرة	تخصيص الدلالة
رصف ترصيف	١٢-٧-١٣٥٦هـ ١١-١٠-١٣٦٠هـ	رصف	

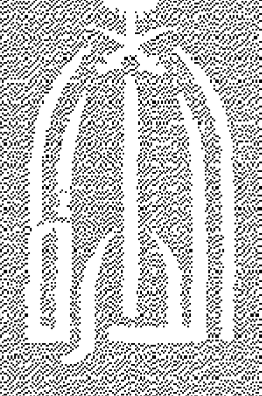
تابع - جدول الكلمات المستقرة والمغيّرة وتاريخها

الكلمة	تاريخ استعمالها	الكلمة المستقرة	نوع التغيير
الرقاد في المستشفيات	٢٢-٥-١٣٦٤هـ	التنويم	تخصيص الدلالة
مقاولة لشراء آلة تقطير المياه	٨-٧-١٣٤٤هـ	١- مناقصة. ٢- منافسة.	تخصيص الدلالة
عيد الجلوس حولية الجلوس ذكرى الجلوس	١٣-١١-١٣٥٦هـ ٢-١٢-١٣٥٨هـ ٢٨-٩-١٣٥٣هـ		
أقراص السكينة	٢٠-١٠-١٣٤٥هـ	الحبوب المهدئة	تضييق الدلالة
اتفاقية صناعة المخدرات	٣-٦-١٣٥٥هـ	الأدوية المخدرة	ترقية الدلالة
الحجاج الواردون توارد قدوم الحجاج	١٩-١٢-١٣٥٩هـ	قدوم الحجاج	
مستخرجات البترول	١٢-٥-١٣٥٥هـ	مشتقات البترول	تخصيص الدلالة
المخابرات التليفونية	٢٥-١-١٣٥٠هـ	المكالمات	تخصيص الدلالة
شهر السنبلة	٥-٤-١٣٥٢هـ	برج	تخصيص الدلالة
الأقوات قوافل الأرزاق	٢٢-٥-١٣٤٣هـ ١٢- ٧- ١٣٤٣هـ	المواد الغذائية	تضييق الدلالة
قيد وقبول التلاميذ	١-١-١٣٤٦هـ	قبول وتسجيل الطلاب	تخصيص الدلالة

تابع - جدول الكلمات المستقرة والمغيّرة وتاريخها

الكلمة	تاريخ استعمالها	الكلمة المستقرة	نوع التغيير
القضاء يعلن أنه لن يقبل أي مخابرة ترد إليه أو للمحاكم إلا بعد وضع الطوابع	٨-٤-١٣٤٥هـ	دعوى	تخصيص الدلالة
الأمراض السارية الأمراض المشبوهة الأمراض المشهورة الأمراض ذات الأهمية الدولية مرض كرنتينائي	١٣-١٠-١٣٤٥هـ ٢٣-١٢-١٣٦٦هـ ١-١٢-١٣٦٧هـ ١-١٢-١٣٦٧هـ ٢-٢-١٣٧١هـ	الأمراض السارية والمعدية الأمراض الوبائية	تخصيص الدلالة





ص.ب ٢٩٤٥ - الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩/٢١٦٤ - فاكس ٤٠١٣٥٩٧
بريد الكتروني info@darah.org.sa

مجموعة رسوم تذكارية لزيارة

صاحب السمو الملكي
الأمير سعود آل سعود
ولي عهد المملكة العربية السعودية
إلى الظهران خلال شهر يناير ١٩٥٠م

إعداد
دارة الملك عبدالعزيز

٥٦ صفحة



يمثل هذا الكتاب سجلاً مصوراً للزيارة الكريمة التي قام بها الملك سعود بن عبدالعزيز - رحمه الله - عندما كان وليًا للعهد إلى مدينة الظهران في شرق المملكة العربية السعودية خلال شهر ربيع الآخر ١٣٦٩هـ الموافق شهر يناير من العام ١٩٥٠م. وقد قسم هذا السجل أربعة أقسام، ضمّ القسم الأول صوراً لوصول سموه، وما جرى له من استقبالات، وما أعد له من مآدب. أما القسم الثاني فيصور الزيارة التي قام بها لمنشآت شركة أرامكو، وتبرز صور الكتاب سموه وهو يتابع أعمال الشركة، ويتفقد مشروعاتها، ويشارك العاملين فيها. أما القسمان الثالث والرابع من السجل فضمّا عدداً من الزيارات الخاصة التي قام بها سموه، إلى جانب مجموعة من الصور والرسوم الخاصة بسموه وعدد من أنجاله الكرام.

بيعة معاوية بن يزيد
ونهاية حكم العهد السفياني للأمويين

د. عبدالله بن عثمان الخراشي
جامعة الملك سعود - كلية الآداب - قسم التاريخ

من المعروف أن دراسة الأحداث التاريخية وتحليلها وتفسيرها والبحث عن أسبابها ونتائجها لا يتأتى إلا من خلال منهجية علمية تعتمد على تدقيق الروايات، والتأكد من صحتها، ومعرفة الظروف المحيطة بالحدث، والعوامل المؤثرة فيه سواء كانت دينية أو سياسية أو اقتصادية، ومما يلحظ على بعض الدراسات الحديثة الخاصة بالتاريخ الإسلامي أن أصحابها اجتهدوا في تفسير الأحداث وتحليلها، ومعرفة العوامل المؤثرة فيها وخاصة العوامل السياسية والاقتصادية منها، وعلى الرغم من واقعية بعض هذه الدراسات وجودتها، إلا أن الملحوظ عدم التفاتها إلى عوامل أخرى مؤثرة في الحدث لا تقل أهمية - إن لم تكن أهميتها أكبر - من العوامل السياسية والاقتصادية، ويأتي في مقدمتها العوامل الدينية وتأثير النصوص الشرعية والقيم السائدة على المواقف والأحداث خاصة في العهد الإسلامي المبكر؛ مما يجعل النتائج التي تتوصل إليها هذه الدراسات لا تعكس الواقع الذي يطمح أصحابها إلى الوصول إليه.

إن العهد الأموي - وخاصة أوله "العهد السفياني" - حديث عهد، ووثيق صلة بالعهدين النبوي والراشدي، بل هو في الواقع امتداد لهما، وقد عاش في تلك الفترة عدد من الصحابة وكبار التابعين، وكانت النصوص الشرعية -خاصة تلك المتعلقة بالجوانب السياسية

ونظام الحكم، التي تحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم - بينهم غضة طرية ذات أثر واضح في المواقف والأحداث[١].

لقد وقعت بعد وفاة الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وتولي ابنه يزيد الخلافة، أحداث خطيرة، وهاجت رياح فتنة أخرى - بعد خمود نار الفتنة الأولى التي حدثت بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه - كادت أن تعصف بالخلافة الأموية، ومدار هذه الأحداث هو اختلاف وجهات نظر العناصر المؤثرة فيها في تقويمها وتحديد الموقف منها.

وفي هذا السياق فإن فترة خلافة معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان من أشد الفترات حرجاً وخطورة على الخلافة الأموية، حيث إن فترة حكمه، واعتلال صحته، ووفاته المبكرة، وامتناعه من استخلاف أحد من بني أمية، وظهور بيعة ابن الزبير بالحجاز كل ذلك كان يعني نهاية مبكرة للحكم الأموي، أو كادت أن تكون كذلك!

كل ذلك كان يعني نهاية مبكرة للحكم الأموي أو كادت أن تكون كذلك

يلحظ الباحث في تاريخ تلك الفترة وأحداثها أن المصادر تختزل إلى حد لافت للنظر فترة خلافة معاوية بن يزيد رغم أهميتها،

---

(١) انظر على سبيل المثال موقف ابن عمر من بيعة يزيد، ومنعه آل عدي من الخروج عليه، وإنكاره على عبدالله بن مطيع العدوي خروجه، واستشهد بذلك بحديث النبي ﷺ: "من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية". مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، الرياض، ١٤٠٠هـ، ج٣، ص١٤٧٨، وفي ذلك يقول ابن تيمية: "... ولهذا استقر رأي أهل السنة على ترك القتال في الفتنة للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ، وصاروا يذكرون هذا في عقائدهم، ويأمرون بالصبر على جور الأئمة وترك قتالهم". انظر ابن تيمية الحراني، أحمد، منهاج السنة، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٢، ص٢٤١، ومثله موقف يسير الأنصاري حين رفض الخروج على يزيد مستشهدا بحديث: "لا يأتيك في الجماعة إلا خير". انظر ابن عبدالبر، أبو عمر يوسف، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي معوض وعادل عبدالموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ، ج١، ص١٤٦.

وانعكس ذلك على مناقشات المؤرخين قديماً والباحثين حديثاً، وهذا مما حفز الباحث لدراسة هذا الموضوع.

يتناول البحث مقدمة عن نظام الخلافة ومتغيراته قبل استخلاف معاوية بن يزيد، ثم الحديث عن شخصية معاوية بن يزيد وبيعته بولاية العهد، ثم استخلافه وتنازله عن الخلافة، وامتناعه عن بيعة أحد من بني أمية، وما ترتب على ذلك من أحداث.

إن نظام الخلافة والاستخلاف يعد أمراً جديداً في الجزيرة العربية، فبعد بعثة النبي ﷺ وتكوين المجتمع الجديد مارس النبي ﷺ دوره قائدًا وحاكمًا إلى جانب كونه نبياً مرسلاً.

وبعد وفاته ﷺ تطلب الأمر وجود من يخلفه في إدارة شؤون المسلمين، وبالرغم من وجود نصوص شرعية صريحة تنص على حتمية وجود الحاكم، إلا أنه لا يوجد نص يحدد أسلوب اختيار هذا الحاكم ونظامه، ولهذا جاءت التطبيقات في اختيار الخلفاء بعد وفاة النبي ﷺ متنوعة، فانتخب أبو بكر الصديق من قبل المهاجرين والأنصار في السقيفة، واستخلف عمر بن الخطاب من قبل أبي بكر، وتم اختيار عثمان بن عفان من الستة أهل الشورى الذين حددهم عمر، وارتضى أغلب المسلمين علياً وبايعوه بالخلافة، وآل الأمر - في سابقة جديدة حين خلف الابن أباه - للحسن بن علي، وتولى الخلافة[٢].

بعد تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية عام الجماعة "٤١هـ"، أصبح معاوية الخليفة الشرعي المجمع على ولايته، وبقي

(٢) هنالك رأيان حول تولي الحسن بن علي الخلافة، فقول يرى أنه تولاها بعهد من أبيه، وآخر أن أباه لم يعهد إليه، وإنما بايعه أنصار أبيه بعد استشهاده - رضي الله عنهم - أجمعين، وهو الراجح لرواية الإمام أحمد حين سأل الناس علي بن أبي طالب حين وفاته أن يستخلف قال: "لا ولكن أترككم كما ترككم عليه رسول الله ﷺ...". قال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن سبيع، وهو ثقة، ورواه البزار بإسناد حسن. انظر الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ، ج٩، ص ١٢٧.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز العدد الثاني ربيع الآخر ١٤٢٨هـ، السنة الثالثة والثلاثون
الدارة

كذلك عقدين من الزمن نعمت فيه الدولة الإسلامية بعهد من الاستقرار بعد الفتنة...

طرأت للخليفة معاوية فكرة جديدة في نظام الحكم تمثلت باختيار ابنه يزيد ولياً للعهد، والجديد فيها هو: اختياره ولياً للعهد في حياته، وأخذ البيعة له، إلى جانب أن ولي العهد هو ابن للخليفة. وبصرف النظر عن أساس الفكرة، ومنشئها، وهل كانت برأي منه أو مشورة من غيره فإن الأهم هو اقتناع الخليفة بها وتنفيذها.

اختلفت الآراء والمواقف حول مبادرة الخليفة معاوية، وليس هذا مقام مناقشتها والذي يهمنا هو ما له صلة بموضوع البحث، وهو: هل أراد الخليفة معاوية سن نظام ولاية العهد أو تأسيس نظام متوارث للحكم يكون في بني أمية؟

يرى بعض الباحثين أن الأمر كذلك(٣)، والذي يظهر للباحث أن هذا الرأي مبني على ما وقع فعلاً من أحداث ليس لمعاوية شأن بها، ولا نجد من الروايات ما يدلل على أن معاوية أعد نظاماً أو ترتيباً معيناً للخلافة بحيث تكون متداولة في بني أمية، مع أنه يدرك تماما قلة عدد أبنائه وأحفاده، وصغر سن أكبرهم نسبيا، وهذان العاملان المهمان يؤثران سلباً في النظام المتوارث، مع أنه كان يوجد عناصر من بني أمية مؤهلة للخلافة، أمثال مروان بن الحكم وعمرو بن سعيد بن العاص، إلا أنه لم يَرِد ما يدل على أن الخليفة معاوية وضع آلية لنقل الخلافة إلى أي منهم لضمان استمرارها في البيت الأموي أو أنه أوصى ابنه يزيد بذلك، ولا أخال أن رجلاً محنكاً - كمعاوية - يمكن أن يغفل مثل هذا الأمر لو فكر فيه فعلاً...! وغاية الأمر أن معاوية استخلف ابنه يزيد؛ لأنه يراه لا يقل كفاءة عن

---

(٣) الخضري، محمد، الدولة الأموية، دار حراء، جدة، ١٤٢٢هـ، أحمد، محمد حلمي، الخلافة والدولة في العصر الأموي، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٣٨٦هـ، ص١٠٠، بطاينة، محمد ضيف الله، تاريخ الخلفاء الأمويين، دار الفرقان، عمان، ١٤٢٠هـ، ص١١١.

أقرانه(٤)، وأن اختياره وليا للعهد إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم(٥) تاركا مستقبل الخلافة - الذي لم يخطط له على الإطلاق - لظروف عصر ابنه.

وعلى أية حال فإن مبادرة معاوية لم تلق قبولاً من الجميع، وعارضها أناس لهم مكانتهم وأثرهم في المجتمع الإسلامي، وخاصة في الحجاز، ومن هؤلاء العبادلة "عبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس وعبدالله بن الزبير"، والحسين بن علي - رضي الله عنهم - وغيرهم، ولكن معارضتهم لم يعبر عنها بعمل ثوري؛ لأن في أعناقهم بيعة لمعاوية لا يجوز نقضها إلا بمسوغ شرعي، وبيعة يزيد بولاية العهد ليست كذلك.

لكن بعد وفاة معاوية استخلف ابنه يزيد؛ فتباينت ردود الفعل تجاهه ما بين مؤيد ومعارض، وتطورت مواقف المعارضة إلى أن بلغت ذروتها بإعلان خلع الخليفة، والذي يهمنا هنا ويرتبط بموضوع البحث، هو النظر إلى شرعية بيعة يزيد بن معاوية وخلافته، ومدى إلزامها للآخرين بالسمع والطاعة.

تشير الروايات إلى أن معظم الأمصار بايعت يزيد بالخلافة كما بايعه عدد من مشاهير الصحابة وكبار التابعين من أهل الحجاز، وفي مقدمتهم عبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس ومحمد بن الحنفية - رضي الله عنهم - وغيرهم(٦)، وامتنع عن البيعة عناصر أخرى تركزت في

(٤) انظر الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير الأعلام، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٦٧هـ، ج٢، ص٢٦٧.

(٥) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ، ج٥، ص٣٠٤، يعلق ابن كثير على ذلك بقوله: "لما مات الحسن قوي أمر يزيد عند معاوية، ورأى أنه لذلك أهلا، وذلك من شدة محبة الوالد لولده، ولما كان يتوسم فيه من النجابة الدنيوية وسيما أبناء الملوك ومعرفتهم بالحروب، وترتيب الملك، والقيام بأبهته، وكان يظن أن لا يقوم أحد من أبناء الصحابة بهذا المعنى". انظر البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٧٧، ج٨، ص٨٠، ابن خلدون، عبدالرحمن، مقدمة ابن خلدون، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت، ص٢١٠.

(٦) عن تفاصيل الأحداث انظر: خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص٢٣٢، الطبري، التاريخ، ج٥، ص٢٣٨.



المدينة، وكانوا يعدون أقلية في ذلك الوقت، وفي مقدمتهم الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير رضي الله عنهم.

وهنا يجب التنبيه لأمر مهم، وهو أن بيعة بعض من بايعه من الصحابة والتابعين لا تعني قناعتهم بشخص يزيد أو أنه الأكفأ(٧)، وإنما بايعوه؛ لأنه استمد شرعيته من استخلاف أبيه - الخليفة المجمع على شرعية خلافته - له تماما كما استخلف أبو بكر عمر بن الخطاب رضي الله عنهما - مع الفارق بين الشخصيتين - وإلا لو كان الأمر غير ذلك لما وسعهم قبول البيعة، وهم ممن اعترض على بيعته بولاية العهد أيام أبيه من قبل.

إن بيعة يزيد واستخلافه تعني إقرار مبدأ الوراثة في الاستخلاف، وإضفاء صفة الشرعية عليه، وبعبارة أخرى إن البيعة التي أُمر الناس بالوفاء بها شرعاً باتت أمرًا محسوماً، وقيداً لا يمكن التخلص منه، حيث سيعين الخليفة القائم ولياً للعهد، ومن ثم تصبح بيعته بالخلافة نافذة وهو ما لم يكن معهوداً من قبل، وهذا أخطر ما في الأمر.

إذا رجعنا إلى سياق الأحداث نجد أن يزيد بن معاوية - الخليفة الشرعي - كان ساخطاً على الرافضين لبيعته؛ لأنه يرى كما يقول ابن كثير: "أنه الإمام وقد خرجوا على طاعته، وأمروا عليهم غيره فله قتالهم حتى يرجعوا للطاعة ولزوم الجماعة..."(٨).

---

(٧) تعبر عن ذلك مقولة ابن عمر: "إن كان خيرا رضينا به، وإن كان بلاء صبرنا". خليفة بن خياط، التاريخ، ص٢، ويقول الصحابي يسير الأنصاري: "إن يزيد ليس بخير أمة محمد ولا أفقهها فقها ولا أعظمها فيها شرفا، وأنا أقول ذلك، ولكن لأن تجتمع أمة محمد ﷺ أحب إلي من أن تفترق". ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، ج٧، ص٦٧، ابن عبدالبر، الاستيعاب، ج٤، ص١٤٦.

(٨) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٢٤، يقول ابن بطال الفقيه الأندلسي شارح صحيح البخاري: "وعقد الخلافة من الإمام المتولي لغيره بعده جائز على عامة المسلمين لإطباق الصحابة ومن معهم على العمل بما عهد أبو بكر لعمر، وكذا لم يختلفوا في قبول عهد عمر إلى الستة، وهو شبيه بإيصاء الرجل على ولده لكون نظره فيما يصلح أتم من غيره فكذلك الإمام". انظر: ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تحقيق الشيخ عبدالعزيز بن باز، دار الفكر، بيروت، د. ت، ج١٣، ص٢١٨.

تركزت معارضة المبايعين لبيعة يزيد في الحجاز بشكل كبير، ولكنها لم تظهر بموقف موحد فقد خرج الحسين بن علي - رضي الله عنهما - إلى العراق، وانتهى أمره بمأساة كربلاء، وتزعم معارضة أهل المدينة عبدالله بن مطيع العدوي، وعبدالله بن حنظلة، وقمعت معارضتهم بموقعة الحرة، وكانت معارضة ابن الزبير بمكة هي الأقوى والأخطر.

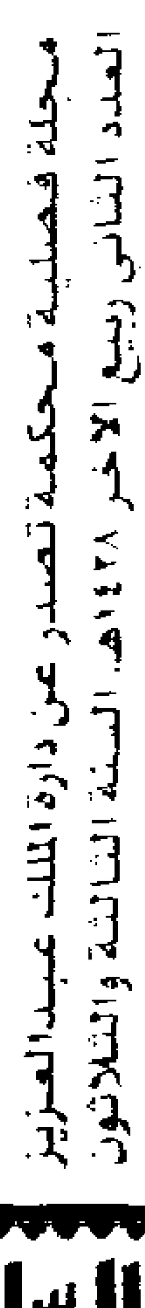
حوصر ابن الزبير بمكة من قبل جيش يزيد بقيادة الحصين بن نمير السكوني، وكان المتوقع أن تنهى معارضة ابن الزبير مع طول الحصار.

لكن أثناء الحصار وقعت أمور لم تكن في الحسبان على الإطلاق ألقت بظلالها على مجريات الأحداث، فقد توفي الخليفة يزيد بن معاوية، ولم يكن خلفه مهيئاً لقبول الخلافة فضلاً عن القيام بأعبائها، بل ولم تطل فترة الخليفة الجديد، حيث توفي دون أن يستخلف أحداً محدثاً بذلك أكبر أزمة تواجه الحكم الأموي.

إن الكثير من التساؤلات يمكن أن تثار لاستجلاء حقيقة الأحداث وتطوراتها، ومن ذلك التعرف على شخصية معاوية بن يزيد، وملابسات بيعته بولاية العهد أولاً، ثم بالخلافة ثانياً، والتعرف على موقفه السلبي من الخلافة، وسبب عدم استخلافه أحداً من بني أمية، وأثر ذلك كله في حكم الأمويين.

شخصية معاوية بن يزيد:

لم تكن شخصية معاوية بن يزيد مميزة بحيث تحظى باهتمام المؤرخين وكتاب التراجم، فكانت المعلومات عن حياته وسيرته نزرة يسيرة، وهو ما تعبر عنه مقولة القلقشندي حين قال في ترجمته: "ولم أقف على شيء من حليته..."[٩]، وتعكسه ترجمة ابن عساكر



---

(٩) القلقشندي، أحمد بن علي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبدالستار فراج، عالم الكتب، بيروت، ج١، ص٢٢٤.

المحدودة له في تاريخه الموسوعي الذي خصصه لدمشق[١٠]، ويبدو أن صغر سن معاوية، واعتلال صحته، وزهده بالخلافة، ثم وفاته المبكرة. كلها عوامل أدت إلى محدودية ترجمته أو الحديث عنه... وسنحاول في السطور القادمة تلمس معالم شخصيته بما هو متاح من معلومات.

معاوية بن يزيد هو الابن الأكبر لأبيه، وله من الإخوة خالد وأبو سفيان وعبدالله - الملقب بالأسوار - وعبدالرحمن وأبو بكر ومحمد وعثمان وعتبة ويزيد[١١].

اختلفت الروايات في تحديد عمره[١٢]، فقيل: سبعة عشر عاما[١٣]، وقيل: ثمانية عشر[١٤]، وقيل: عشرون[١٥]، وقيل: ثلاثة وعشرون[١٦]، وقيل: أربعة وعشرون عامًا وثلاثة عشر يومًا[١٧]، والمرجح أن عمره لم يتجاوز عشرين عاما؛ لأن والده - يزيد - توفي وعمره ستة وثلاثون عاما على الأرجح أو ثمانية وثلاثون[١٨]، فإذا افترضنا أنه تزوج وهو في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره، وأنجب بعدها بسنة أو سنتين، فلن يتجاوز عمر معاوية بن يزيد العشرين.

(١٠) ابن عساكر أبو القاسم علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق عمر العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ، ج٥٩، ص٢٩٦.

(١١) المصعب الزبيري، أبو عبدالله، نسب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، ١٩٥١م، ص ص ١٢٨، ١٣٠.

(١٢) انظر جماع هذه الأقوال عند ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٥٩، ص٣٠١.

(١٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٢هـ، ج٤، ص١٣٩.

(١٤) خليفة ابن خياط، التاريخ، ص٢٥٥.

(١٥) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٥٩، ص٣٠١.

(١٦) البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٩م، ق٤، ج١، ص٣٥٩، ابن زيد الربعي، محمد بن عبدالله، تاريخ مولد العلماء ووفياتهم، تحقيق محمد المصري، مركز المخطوطات والتراث والوثائق، الكويت، ١٤١٠هـ، ص٧١.

(١٧) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٥٩، ص٣٠١.

(١٨) انظر خليفة بن خياط، التاريخ، ص٢٥٥.

أما عن صفات معاوية بن يزيد فقد تباينت الآراء حولها ما بين مدح وقدح، فجاء في وصفه أنه كان "ركيكاً ليناً"[١٩] وأنه كان "ضعيفاً في أمر دنياه"[٢٠]، وعلل بعضهم سبب تكنيته بأبي ليلى بأنه تقريع له لعجزه عن القيام بالأمر[٢١].

وفي المقابل مدحه آخرون، فقالوا: "إنه من صالح القوم"[٢٢]، وأنه "كان فتى صالحاً كثير التفكر في أمر معاده"[٢٣]، وأنه "كان له مذهب جميل"[٢٤]، وأنه "كان شاباً ديناً"[٢٥]، وأنه "كان يظهر التأله"[٢٦]، وأنه "كان رجلاً صالحاً ناسكاً"[٢٧].

من الواضح أن كثيراً من النعوت السابقة لمعاوية بن يزيد- وخاصة الذامة منها - هي انعكاس لموقفه من الخلافة، ففي حين كان عزوفه عن الخلافة، وامتناعه عن استخلاف أحد من بني أمية سبباً في وصفه بالعجز والضعف والركاكة واللين، عد ذلك آخرون أنه صلاح وورع وزهد وتدين، وعلى أية حال فإن الانطباع عن شخصية معاوية بن يزيد أنه كان - رغم صغر سنه - إلى التدين والزهد والورع أقرب.

من الواضح أن كثيرا من النعوت الذامة لمعاوية هي انعكاس لموقفه من الخلافة

---

(١٩) البلاذري، أنساب الأشراف، ق٤، ج١، ص٣٥٧، والركيك من الرجال: الضعيف في عقله ورأيه. ابن منظور، لسان العرب، ج١٠، ص٤٣٢.

(٢٠) البلاذري، أنساب الأشراف، ق٤، ج١، ص٣٥٨.

(٢١) البلاذري، أنساب الأشراف، ق٤، ج١، ص٣٥٦، المسعودي، علي بن الحسين، التنبيه والإشراف، ليدن، ١٨٩٣م، ص٣٠٧، قال: وكانت العرب تفعل ذلك بالعاجز.

(٢٢) أبو زرعة الدمشقي، تاريخ أبي زرعة الدمشقي، تحقيق شكر الله القوجاني، دمشق، ج١، ص٣٥٨.

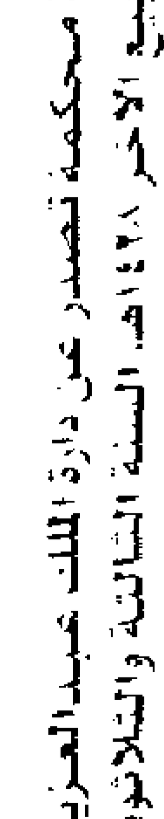
(٢٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ق٤، ج١، ص٣٥٨.

(٢٤) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ١٤١٢هـ، ص٣٥٤، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٤، ص١٣٩.

(٢٥) القلقشندي، مآثر الإنافة، ج١، ص١٢٢.

(٢٦) البلاذري، أنساب الأشراف، ق٤، ج١، ص٣٥٨.

(٢٧) الفسوي، يعقوب المعرفة والتاريخ، تحقيق أكرم العمري، مكتبة الدار، المدينة، ١٤١٠هـ، ج٣، ص٤٢٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨، ص٢٣٧.



بيعة معاوية بن يزيد بولاية العهد :

مر بنا حرص يزيد بن معاوية على تثبيت ملكه، ومحاربة الرافضين لبيعته، وبينت الأحداث حرصه على إبقاء الحكم في بني أمية، إلا أنه واجه معضلة في اختيار خلفه، إذ لم يكن أمامه إلا أحد خيارين، فهو: إما أن يختار ابنه الأكبر معاوية - وكان وقتها صغيراً في السن غير مؤهل للحكم - أو أن يختار شخصاً آخر من غير نسله من بني أمية أكفأ من معاوية، وكان الخيار الثاني يعني انتقال الملك - ربما بشكل نهائي - من البيت السفياني إلى فرع آخر من البيت الأموي، وهو ما تحاشاه يزيد.

على الرغم من إجماع الروايات على استخلاف يزيد بن معاوية ابنه معاوية من بعده، إلا أن بيعته بولاية العهد فيها خلاف، وقد ألمح إلى ذلك البلاذري بقوله: "وأما معاوية بن يزيد فولاه أبوه يزيد عهده في صحته، ويقال: بايع له حين احتضر"(٢٨).

جاء في كثير من الروايات بأن يزيد بن معاوية بايع ابنه معاوية بولاية العهد، ورد ذلك عند المصعب الزبيري(٢٩)، وابن سعد(٣٠)، والبياسي(٣١) وابن عساكر(٣٢)، ويحفظ البلاذري روايتين تضمنتا تفاصيل عن بيعة معاوية بولاية العهد، جاء في الأولى من رواية زيد بن واقد قال: "مرض يزيد بن معاوية بعد ولايته بسنتين، فلما برئ استشار حسان بن مالك بن بحدل في بيعة ابنه معاوية، فأشار عليه بذلك، فدعاه فصافقة بولاية العهد، فبايع له حسان بن مالك الناس"، وفي الرواية الثانية عن الوليد بن مسلم أن أمّ معاوية بن

(٢٨) البلاذري، أنساب الأشراف، ق٤، ج١، ص٢٥٧.

(٢٩) المصعب الزبيري، نسب قريش، ص ١٢٨.

(٣٠) ابن سعد، الطبقات، ج٥، ص٣٩.

(٣١) البياسي، أبو الحجاج يوسف، الإعلام في الحروب الواقعة في صدر الإسلام، تحقيق شفيق أحمد، المدينة، ١٤٠٨هـ، ج١، ص١٤١.

(٣٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٥٩، ص٢٩٧.

يزيد - أمّ هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة - هي التي أشارت على يزيد أن يبايع ابنه بولاية العهد، فاستشار حسان بن مالك؛ فشجعه على ذلك، فأحضر الناس وأعلمهم أنه قد ولاه الخلافة بعده، فبايع له ابن بحدل والناس(٣٣).

يبدو من الروايات السابقة وكأن أمر بيعة معاوية بن يزيد بولاية العهد أمر محسوم، ولكن من خلال استقراء الأحداث تثور في الذهن تساؤلات عدة تجعل من الصعب قبول ذلك حقيقة مسلمة، وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: جاء في بعض الروايات حكاية استخلاف يزيد بن معاوية لابنه في آواخر حياته دون أن تشير الى بيعته بولاية العهد، فقد ذكر البلاذري أنه بايع له حين احتضر(٣٤)، وذكر خليفة بن خياط أن يزيد استخلف ابنه معاوية، وسلم الأمر إليه(٣٥)، وعند معمر بن المثنى أن يزيد استخلف ابنه معاوية، فولي ثلاثة أشهر، وقريب منها رواية وهب بن جرير(٣٦)، وعند عوانة بن الحكم أن يزيد بن معاوية ولى ابنه معاوية بن يزيد، وسلم الأمر إليه(٣٧)، ونلحظ في هذه الروايات أن يزيد بن معاوية استخلف ابنه حين شارف على الموت دون أن تشير إلى أنه كان ولياً للعهد، ولو كان معلوماً أن معاوية ولي عهد أبيه لما دعت الحاجة إلى استخلافه خاصة عند الاحتضار، إذ إن بيعته ستكون أمرًا إجرائيًا تلقائيًا كما حصل من بيعة يزيد مع أبيه معاوية بن أبي سفيان.

(٣٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ق٤، ج١، ص٢٥٧.

(٣٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ق٤، ج١، ص٢٥٦، البلخي، أحمد بن سهل، البدء والتاريخ، ص١٦.

(٣٥) خليفة بن خياط، التاريخ، ص٢٥٥.

(٣٦) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٥٩، ص٢٩٩.

(٣٧) الطبري، التاريخ، ج٧، ص١٧.

ثانياً: من المعروف أن فترة خلافة يزيد بن معاوية كانت فترة مضطربة، وواجه خلالها معارضة قوية، وأساس المشكلة هو عدم قناعة معارضيه بنظام ولاية العهد أولاً، وبشخص يزيد لوجود من هم خير منه فضلا وسابقة ثانيا، ومن ثم فليس من الحكمة أن يعمد يزيد في ظل تلك الظروف، ويعين ابنه وليًا للعهد وهو صغير في السن غير مؤهل لتحمل أعباء الخلافة، فيعطي بذلك مبررات أقوى لخصومه في معارضته.

ثالثاً: ورد في بعض الروايات أن معاوية بن يزيد بويع بالخلافة وهو كاره لها، وفي روايات أخرى أنه لم يمارس شيئا من مهامها، وأنه خلع نفسه من الخلافة[٣٨]، فإذا كان الأمر كذلك فما فائدة بيعته بولاية العهد؟ ولماذا يقبل معاوية الخلافة ويستمر الوضع كذلك إلى بيعته بعد وفاة أبيه؟

رابعاً: إن ما نقلته الروايات عن موقف الأقاليم بعد وفاة يزيد بن معاوية يوحي بأن ولاية معاوية بن يزيد للعهد لم تؤخذ بعين الاهتمام ربما لانتفائها، ففي العراق اضطرب الوضع وخطب عبيدالله بن زياد في الناس، وأخبرهم بوفاة يزيد، واختلاف أهل الشام، ودعاهم لأن يختاروا لأنفسهم رجلاً يرضونه[٣٩]، وفي رواية أنه دعاهم لبيعته حتى ينظروا ما يصنع الناس[٤٠].

وفي الحجاز أثناء حصار الحصين بن نمير لابن الزبير بمكة، وصل الخبر بوفاة يزيد بن معاوية، فعرض الحصين على ابن الزبير أن يبايعه بالخلافة على أن يرحل معه إلى الشام، فأبى[٤١]، وفي بلاد

---

(٣٨) سنشير لهذه الراويات في موضعها أثناء الحديث عن خلافة معاوية بن يزيد.

(٣٩) خليفة بن خياط، التاريخ، ص٢٥٧، الطبري، التاريخ، ج ٧، ص١٨-١٩.

(٤٠) البلاذري، أنساب الأشراف، ق٤، ج١، ص٣٩٦، الطبري، التاريخ، ج٧، ص١٨.

(٤١) انظر خليفة بن خياط، التاريخ، ص٢٥٧، البلاذري، أنساب الأشراف، ق٤، ج١، ص ٣٤٨، الطبري، التاريخ، ج٧، ص١٧.

الشام - معقل بني أمية - كتب الضحاك بن قيس إلى قيس بن الهيثم - كلاهما من ولاة يزيد في مدن الشام -: أن يزيد قد مات وأنتم إخواننا وأشقاؤنا؛ فلا تسبقونا بشيء حتى نختار لأنفسنا(٤٢).

إن المنطق يقتضي أن يقر ولاة بني أمية في تلك الأقاليم بيعة معاوية بن يزيد بعد وفاة أبيه لو كان ولياً للعهد فعلا، ثم ينظرون إلى ما يؤول إليه الأمر.

أخيرًا لا ننفي أن يكون يزيد بن معاوية قد فكر أو عزم على تعيين ابنه ولياً للعهد، ولكن للظروف التي واجهها، وانشغاله بمحاربة خصومه، ولصغر سنه هو شخصياً، وصغر سن ابنه، ولوجود من ينازعه الأمر من الأكفاء، كل ذلك جعله يؤجل مشروعه إلى حين تكون الظروف مناسبة، ولكن فجاءة الموت حالت دون ذلك، واضطر يزيد حينها إلى استخلاف ابنه دون حساب لعواقب الأمور.

خلافة معاوية بن يزيد:

توفي يزيد بن معاوية في الرابع عشر من شهر ربيع الأول عام أربعة وستين للهجرة، واستخلف ابنه معاوية رغبة منه في إبقاء الحكم متوارثاً في بني أمية، ولكن ما الذي يتوقعه يزيد من ابنه وهو يعلم صغر سنه وحداثة تجربته؟ ليس هنالك - فيما يبدو - سوى احتمال واحد، وهو أن يحظى الخليفة الصغير برعاية، وإعانة، بل ربما وصاية أحد أخلص رجالات بني أمية، وهو خاله حسان بن مالك بن بحدل الكلبي(٤٣)، وذلك حتى يكبر الصغير؛ ويكون قادراً على القيام بأعباء الخلافة، خاصة وأن يزيد يتوقع أن الأمور ستهدأ بعد استشهاد الحسين بن علي بكربلاء، وبقمع تمرد أهل المدينة بالحرة، وبتضييق الحصار على ابن الزبير بمكة الذي تعد نهايته مجرد مسألة وقت.

---

(٤٢) الطبري، التاريخ، ج٧، ص١٨.

(٤٣) ابن سعد، الطبقات، ج٥، ص٤١.

لكن الأحداث التي وقعت بعد ولاية معاوية بن يزيد كانت مفاجئة وخطيرة ومتتابعة، ورغم اختلاف الروايات حول بعض تفاصيل هذه الأحداث إلا أنها تتفق بوجه عام على أن معاوية بن يزيد لم يكن قادراً على القيام بأعباء الخلافة، وعاجلته منيته، ولم يستخلف أحداً من بني أمية من بعده، والأخيرة أخطر ما في الأمر، ولعلنا نستجلي ذلك في السطور الآتية:

يمكن من خلال الروايات التي بين أيدينا بشكل عام أن نميز بين موقفين للأحداث، أحدهما: أن معاوية بن يزيد حين استخلف نزع نفسه من الخلافة، واعتزل الناس حتى توفي، والآخر أنه اعتزل الناس لمرضه حتى توفي، ولم ينزع نفسه من الخلافة.

أما الروايات التي حكت الموقف الأول: فقد جاء في رواية الواقدي أنه لما ولي يزيد بن معاوية ابنه الخلافة خطب الأخير في الناس، فقال: إن كانت الخلافة خيراً فقد استكثر منه آل أبي سفيان، وإن كانت شراً فلا حاجة لنا فيه، فاختاروا لأنفسكم إماماً تبايعونه هو أحرص مني واخلعوني، فأنتم من حل من بيعتي، ثم كلف حسان بن مالك أن يضبط ما قبله، وأن يصلي بالناس إلى أن يرضى المسلمون بإمام يجتمعون عليه. وقريب من ذلك رواية أبي أسماء السكسكي زاد فيها: أنه بعد خطبته نزل فأغلق بابه، وتمارض فلم ينظر في شيء حتى مات[٤٤]، أما اليعقوبي فيورد نصا مغايراً لخطبة معاوية بن يزيد[٤٥]، يتضمن نقدًا لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وليزيد ابنه. وواضح من مضامين تلك الخطبة التي أوردها اليعقوبي أنها لم تسلم - إن صحت - من التحريف والوضع، إذ ليس من المعقول أن يتعرض معاوية لأبيه وجده بهذا النقد الشديد... وأين ؟ في معقل بني أمية..! ولكن الرواية - على علاتها - تتفق في بعض أجزائها مع سابقتها.

(٤٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ق٤، ج١، ص٣٥٩.

(٤٥) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص٢٥٤.

إلى جانب هذه الروايات نصت روايات أخرى على تخلي معاوية عن الخلافة، ثم وفاته دون أن تشير إلى الخطبة، ومنها رواية وهب بن جرير(٤٦) ورواية ابن كثير(٤٧).

أما الروايات التي حكت الموقف الثاني، فمنها رواية جويرية بن أسماء، فقد ذكر أنه بعد مبايعة الناس لمعاوية بن يزيد ولي ثلاثة أشهر، وقيل: أربعون يوما، ولم يزل في البيت لم يخرج إلى الناس لمرضه، فكان يأمر الضحاك بن قيس الفهري يصلي بالناس، فلما ثقل معاوية بن يزيد قيل له: لو عهدت إلى رجل عهدا، واستخلفت خليفة، فقال: والله ما نفعتني حيا، فأتقلدها ميتا، ولكن إذا مت فليصل علي الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وليصل بالناس الضحاك بن قيس حتى يختار الناس لأنفسهم، ويقوم بالخلافة قائم(٤٨). وفي رواية وهب بن جرير أن معاوية ولي شهرين أو أربعين ليلة ثم مات، فلما حضرته الوفاة قيل له: لو استخلفت، قال: كفلتها، وفي رواية: كفيتها حياتي فأتضمنها بعد موتي، فأبى أن يستخلف(٤٩)، وعند معمر بن المثنى أنه ولي ثلاثة أشهر، فلم يخرج إلى الناس، ولم يزل مريضاً، فقيل له: اعهد، فقال: لا يسألني الله عن ذلك، ولكن إذا مت فليصل بالناس الوليد بن عتبة والضحاك بن قيس حتى يقوم بالخلافة قائم(٥٠). ويلحظ هنا أنه قيد استخلافه بموته، وفي رواية خليفة أنه أقر عمال أبيه، ولم يول أحداً، ولم يزل مريضاً حتى مات، وكانت ولايته نحوا من شهر ونصف(٥١)، وعند عمر بن شبة أنه لما

---

(٤٦) البلاذري، أنساب الأشراف، ق٤، ج١، ص٣٥٧.

(٤٧) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨، ص٢٣٨.

(٤٨) ابن سعد، الطبقات، ج٥، ص٣٩.

(٤٩) البلاذري، أنساب الأشراف، ق٤، ج١، ص٣٥٧، الربعي، تاريخ مولد العلماء، ص٧١.

(٥٠) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٥٩، ص٢٩٩.

(٥١) خليفة بن خياط، التاريخ، ص٥٥.

استخلف معاوية بن يزيد جمع عمال أبيه، وبويع له بدمشق هلك بعدها بعد أربعين يوما من ولايته(٥٢)، وفي رواية العباس بن هشام قال: بويع لمعاوية بن يزيد بعد أبيه بالشام، فمكث أربعين ليلة ثم مات(٥٣)، وفي رواية أبي مسهر قال: عهد يزيد بن معاوية لمعاوية بن يزيد، فأقام أربعين يوماً، فلما حضرته الوفاة قيل له: ألا تعهد؟ قال: ما أصبت من حلاوتها ما أتحمل به مرارتها(٥٤)، وذكر البلاذري أنه لما مات يزيد بايع الناس معاوية وأتته بيعة الآفاق... ولم يزل في أيامه مريضا، وكان الضحاك بن قيس يصلي بالناس. فلما ثقل قيل له: لو عهدت عهدا، فقال: والله ما نفعتني حيا أفأتحملها ميتا، والله لا يذهب بنو أمية بحلاوتها القليلة، وأتحمل مرارتها الطويلة، وإذا مت فليصل علي الوليد بن عتبة، وليصل بالناس الضحاك بن قيس حتى يختاروا لأنفسهم رجلا مرضيا عندهم، ثم توفي(٥٥).

والذي يظهر للباحث أن الروايات التي حكت الموقف الثاني أقرب للصواب لأمور عدة منها:

١ - كثرة الروايات التي أشارت إليه، وتقدمها.

٢ - لو كان معاوية بن يزيد رافضا للخلافة عازما على التخلي عنها فلِمَ يقبلها أصلا؟.

٣ - أشارت بعض الروايات التي حكت الموقف الأول إلى أن معاوية بن يزيد أعلن خلع نفسه علنا، وفي خطبة عامة، وهو أمر مستبعد؛ لأن إجراء كهذا يحدث الفوضى والتنازع والبلبلة، ولم يكن الأمر يتطلب ذلك، إلى جانب أن تداعيات الأحداث، واضطرابها والبحث عن خليفة بديل كل ذلك وقع بعد وفاة معاوية، وليس بعد خلعه نفسه.

---

(٥٢) الطبري، التاريخ، ج٧، ص١٧.

(٥٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٥٩، ص٣٠٠، الربعي، تاريخ مولد العلماء، ص٧١.

(٥٤) أبو زرعة، التاريخ، ج١، ص٣٥٩.

(٥٥) البلاذري، أنساب الأشراف، ق٤، ج١، ص٣٥٦، ابن سعد، الطبقات، ج٥، ص٣٩.

٤- أن الروايات التي أشارت إلى خلع نفسه من الخلافة أشارت أيضا إلى أنه قبيل وفاته طلب منه أن يستخلف فأبى، ومعلوم أن حق الخليفة بالاستخلاف يسقط بخلع نفسه، فلا معنى أن ينتظر الناس لحظة وفاته ليطلبوا منه أن يستخلف.

خلاصة القول: أن معاوية بن يزيد قَبِل الخلافة، غير أنه عجز عن القيام بأعبائها لصغر سنه وحداثة تجربته وظروف ولايته، إلى جانب مرضه، فكان الحال كما عبر عنه البلاذري أنه "لم يعزل أحدا من عمال أبيه، ولا حرك شيئاً، ولا أمر، ولا نهى"(٥٦) إلى أن توفي.

بقي أخيراً أن نناقش سبب عدم استخلاف معاوية بن يزيد أحدًا من بني أمية رغم إلحاحهم عليه أن يستخلف، وأثر ذلك في حكم بني أمية.

يبدو من خلال النصوص السابقة حرص بعض رجالات بني أمية - خاصة مروان بن الحكم أكبر الطامحين إليها - على استمرار الخلافة فيهم، وإضفاء صفة الشرعية عليها باستخلاف معاوية بن يزيد أحدهم، ولكن معاوية امتنع تورعاً عن ذلك، وقد تكرر هذا الدافع بصيغ مختلفة كما مر بنا في الروايات السابقة(٥٧) حين طلب منه أن يستخلف فتارة يقول: والله ما نفعتني حيا، فأتقلدها ميتا، وتارة: كفلتها أو كفيتها حياتي؛ فأتضمنها بعد موتي، وتارة: لا يسألني الله عن ذلك، وتارة: ما أصبت من حلاوتها ما أتحمل به مرارتها، إلى غير ذلك من الأقوال المحفوظة، والذي ظهر أن الروايات عبرت عن الواقع، فمعاوية لم يمتد به العمر؛ ليمارس شيئاً من أمور الحكم، لا سيما وأن من حوله كانوا يحثونه على اختيار خليفة من قومه، ولا يوجد من إخوته فضلا عن أبنائه من هو مؤهل للخلافة، فأصبح جميع - الطامحين إليها من بني أمية أو غيرهم - سواء، ومن ثم لم يشأ أن يتحمل

(٥٦) البلاذري، أنساب الأشراف، ق٤، ج١، ص٣٥٦.

(٥٧) راجع الروايات، ص١١، ١٢.

مسؤولية اختيار خليفة للمسلمين من قومه مع وجود من هو خير منه من غيرهم، خاصة وأن أمرهم ظاهر كابن الزبير بالحجاز.

وعموما فأياً كانت دوافع معاوية بن يزيد من عدم استخلاف أحد من بني أمية إلا أن الأهم هو أثر ذلك وتداعياته في خلافة بني أمية.

لقد كان السبيل الوحيد والرباط الوثيق لاستمرار الخلافة متوارثة في البيت الأموي هو الاستخلاف، وهو ما جعل بيعة يزيد بن معاوية من قبل بيعة راسخة، ولهذا حرص كبار بني أمية والموالون لهم على إقناع معاوية بن يزيد بأن يستخلف أحداً من بني أمية؛ فيُكسب خلفه الصبغة الشرعية الملزمة بالسمع والطاعة امتداداً للموقف السابق، ولكن حينما لم يفعل كان ذلك بمثابة "العقال الذي حُل"، والذي كان يقيد الناس بالسمع والطاعة لمن يستخلفه الخليفة، ومن هنا أدت وفاة معاوية بن يزيد إلى وجود فراغ في السلطة، ولم يعد أمام الناس عموما، وأصحاب الرأي والتأثير خصوصا ما يلزمهم شرعاً بالبيعة لأحد من بني أمية، وأصبح المجال مفتوحا لمن هو كفء للخلافة أو من يطمح إليها كما صور ذلك بيت الشاعر الذي يقول :

إني أرى فتنا تغلي مراجلها   والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا

من هنا ظهرت بيعة ابن الزبير بالحجاز؛ لأنه الأبرز والمرشح الأول لها، ولعل أقرب رواية تصور الوقع رواية هشام بن عمار قال فيها : "إنه لما مات معاوية بن يزيد مال أكثر الناس إلى ابن الزبير، وقالوا : هو رجل كامل السن، وقد نصر أمير المؤمنين عثمان، وهو ابن حواري رسول الله، وأمه بنت أبي بكر بن أبي قحافة، وله فضل في نفسه ليس لغيره، فما هو إلا أن ورد كتاب ابن الزبير بتولية الضحاك بن قيس دمشق حتى سارعوا إلى طاعة ابن الزبير وبيعته، فأخذها الضحاك له عليهم[٥٨]. بل إن مروان بن الحكم نفسه كان يرى أن

(٥٨) البلاذري، أنساب الأشراف، ق٤، ج١، ص ٣٥٩.

يرحل ليبايع ابن الزبير[٥٩] وعن ذيوع بيعة ابن الزبير وانتشارها يقول أبو معشر: "بويع لابن الزبير سنة أربع وستين، وانتشرت بيعته في الحجاز واليمن والعراق والمشرق وعامة بلاد الشام والمغرب وفرق عماله في الأمصار..."[٦٠].

وبهذا تتجلى خطورة فترة خلافة معاوية بن يزيد، وتسببه في نقل الخلافة من البيت الأموي إلى ابن الزبير في الحجاز، وكادت أن لا تعود لولا جهود مروان بن الحكم، وابنه عبدالملك التالية، واستعادتهم لها. وفي ذلك يقول المسعودي - بعد انتصار مروان على الضحاك بن قيس بمرج راهط -: "فكانت هذه الوقعة سبب رد ملك بني أمية وقد كان زال عنهم إلى بني أسد بن عبدالعزى"[٦١].

(٥٩) الطبري، التاريخ، ج٧، ص٣٤.

(٦٠) الطبري، التاريخ، ج٧، ص٣٤، المسعودي، التنبيه، ص٣٠٧، ابن عبدالبر، الاستيعاب، ج٣، ص٤٠، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٢٨، ص٢٤٦.

(٦١) المسعودي، التنبيه، ص٣٠٩.

زيارة جلالة الملك سعود بن عبدالعزيز آل فيصل آل سعود للولايات المتحدة

بدعوة من الرئيس دوايت د. إيزنهاور

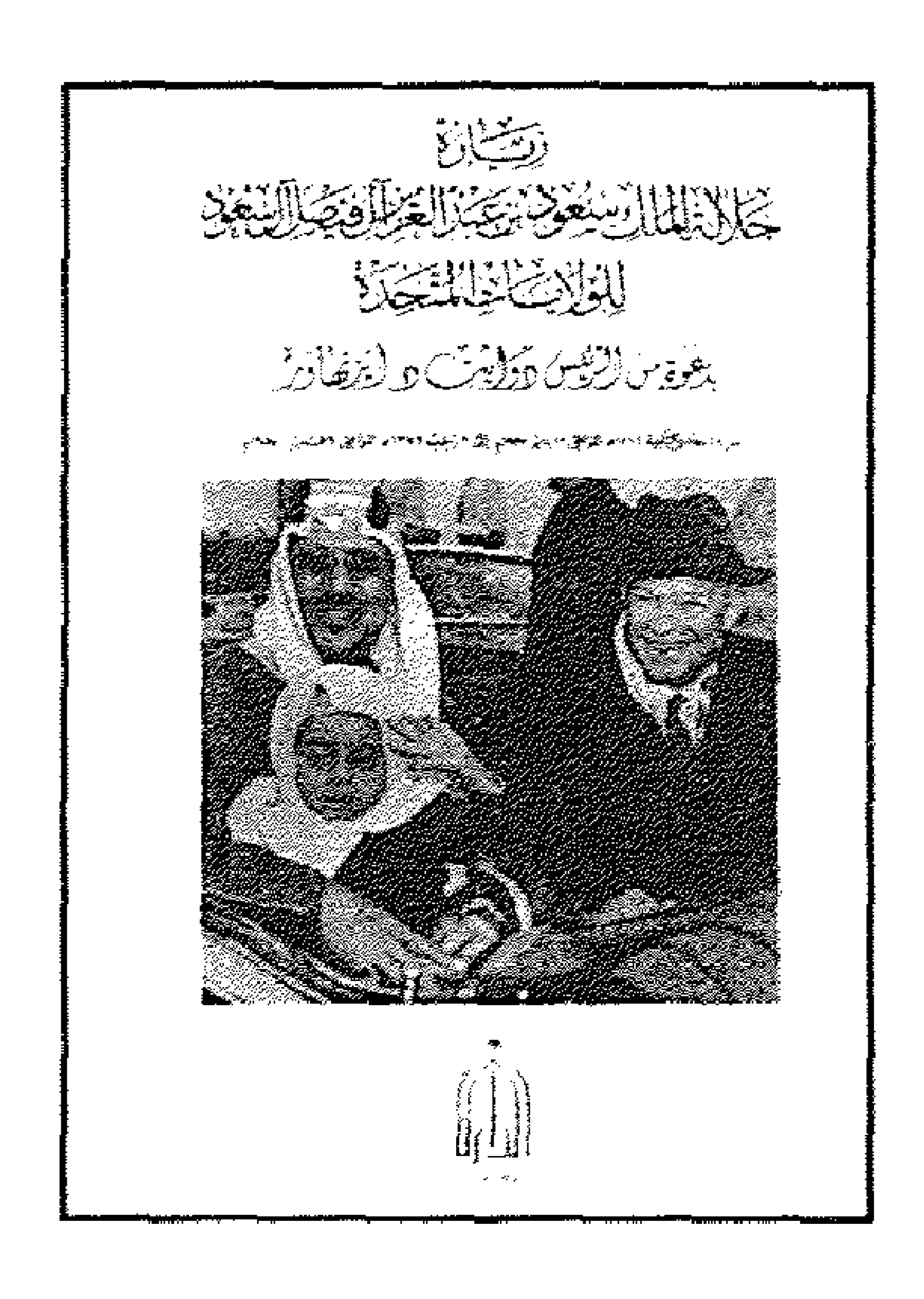
من ٢٨ جمادى الثانية ١٣٧٦هـ الموافق ٢٩ يناير ١٩٥٧م

إلى ٩ رجب ١٣٧٦هـ الموافق ٩ فبراير ١٩٥٧م

إعداد

دارة الملك عبدالعزيز

١٠٤ صفحات



يضم هذا الكتاب تسجيلاً مصورًا للزيارة الملكية الكريمة التي قام بها جلالة الملك سعود بن عبدالعزيز - رحمه الله - إلى الولايات المتحدة الأمريكية في العام ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م بدعوة من الرئيس الأمريكي - في ذلك الوقت - دوايت د. إيزنهاور. وقد ضم الكتاب تسجيلاً مصورًا لزيارته التي شملت البيت الأبيض المقر الرئاسي في واشنطن. وقد صوّر السجل أيضًا جلالته وهو يقوم بزيارة المركز الإسلامي في واشنطن، والزيارة التي قام بها - رحمه الله - إلى المعهد البحري الأمريكي في ولاية مريلاند. وختم السجل بتصوير لحظات المغادرة والوداع وما جرى فيها لجلالته من مراسم رئاسية أمريكية.

الحقبة الأرمنية في تاريخ الدولة العبيدية

د. حمود بن محمد النجيدي
قسم التاريخ والحضارة - كلية العلوم الاجتماعية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

عمرت الدولة العبيدية[1] حوالي مائتين وسبعين سنة (٢٩٧-٥٦٧هـ/ ٩٠٩-١١٧١م)، ومن وجهة نظر الدارسين فإن تاريخ هذه الدولة يمكن أن يقسم باعتبارات عدة، فإذا نظر الباحث إلى مركز الدولة فإن تاريخ العبيديين حينئذ يقسم إلى فترتين:

(١) لقد اختلف كثير من المؤرخين والباحثين في نسب مؤسس هذه الدولة. وكانت تسميتها بالعبيدية أحد مظاهر هذا الاختلاف الذي استمر حتى وقتنا الحاضر، والمنكرون للنسب الفاطمي استخدموا هذه التسمية تعبيراً عن هذا الإنكار، وهو النسبة إلى عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الذي ينسبونه إلى سلالة عبدالله بن ميمون بن ديصان القداح الثنوي المذهب الذي ينتسب إليه الثنوية القائلون بوجود إلهين (إله النور وإله الظلمة)، والذي تحول إلى التشيع، وأصبح أحد دعاة الإسماعيلية في مدينة سلَمية (من أعمال حماه في بلاد الشام)، والمتوفى بين سنتي (٢٧٠-٢٧٤هـ). أما القائلون بصحة النسب الفاطمي فعبيد الله المهدي عندهم هو سعيد بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع فضلاً انظر: ابن حماد: محمد بن علي (ت ٦٢٨هـ/١٢٣٠م): أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، نشر فاندر هايدن، مطبعة جول كربونل، الجزائر، ١٩٢٧م. ابن الأثير: علي بن أحمد بن عبدالكريم (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٨م): الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ، ج٨. ابن كثير: عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت٧٧٤هـ/١٣٧٣م): البداية والنهاية، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٩هـ، ج١٥، ص٨٣-٨٥. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ط الرابعة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨١م، ص٥٧-٧٩. عبدالحليم عويس: قضية نسب الفاطميين أمام منهج النقد التاريخي، دار الصحوة، القاهرة، ١٤٠٦هـ. محمد السعيد جمال الدين: دولة الإسماعيلية في إيران، مطابع محيي الدين، القاهرة، ١٩٧٥م.





الأولى هي الفترة الإفريقية، وقد عمرت هذه الفترة حوالي خمسة وستين عامًا[٢]، والثانية هي الفترة المصرية، وقد استمرت هذه الفترة دون انقطاع حوالي مائتين وخمسة أعوام[٣]، في الفترة الأولى كانت مدينة المهدية[٤] في إفريقية هي مركز الدولة، وفي

---

(٢) بدأت من رجب سنة ٢٩٦هـ/أبريل ٩٠٨م عندما دخل الداعي أبو عبيد الله الشيعي رقادة عاصمة الأغالبة، وأزال إمارتهم، وأبطل الخطبة للخليفة العباسي، وانتهت بخروج المعز من المنصورية - عاصمة العبيديين وقتها - يوم الاثنين ٢١ شوال سنة ٣٦١هـ/١ أغسطس ٩٧٢م. لمزيد من التفصيل عن هذه الفترة الإفريقية فضلاً انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٧، ج٨. المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م): اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج١، تحقيق جمال الدين الشيال، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٣٨٧هـ، ج٢، ج٣، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، ١٣٩٠هـ - ١٣٩٣هـ. حسن إبراهيم حسن، طه أحمد شرف: عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨م. عادلة علي الحمد، قيام الدولة الفاطمية في بلاد إفريقية والمغرب، دار ومطابع المستقبل، القاهرة، ١٩٨٠م.

O' Leary, De Lacy: A Short History of the Fatimid Khalifate. London, 1923.

(٣) بدأت الفترة باستيلاء القائد جوهر الصقلي على الفسطاط في السادس عشر من شعبان سنة ٣٥٨هـ/الأول من يوليو سنة ٩٦٩م، وانتهت في المحرم من سنة ٥٦٧هـ/ سبتمبر ١١٧١م. ولمزيد من التفصيلات عن ذلك فضلاً انظر: عمارة اليمني: أبو الحسن نجم الدين (ت ٥٦٩هـ/١١٧٤م): النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية، نشر ديرنبورج، باريس ١٨٩٧م. ابن المأمون، أبو علي جمال الدين موسى بن المأمون البطائحي (ت ٥٨٨هـ/١١٩٢م): أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٣م. عبدالمنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م. إبراهيم رزق الله أيوب، التاريخ الفاطمي السياسي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ١٩٩٦م.

(٤) إحدى مدن ولاية إفريقية (تونس الحالية) بناها عبيد الله المهدي في ذي القعدة سنة ٣٠٣هـ في منطقة حصينة يقال لها جَمّة على شاطئ البحر الذي يحيط بها من ثلاث جهات، أصبحت عاصمة للخلافة العبيدية حتى سنة ٣٤٤هـ، عندما استبدلها إسماعيل بن معد بمدينة صبرة، بينها وبين القيروان ستون ميلاً. الحموي، ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٣٧٦هـ، ج٥، ص٢٢٩: الحميري أبو عبدالله محمد بن عبدالمنعم (ت ٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط الثانية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م، ص٥٦١.

الفترة الثانية كانت عاصمة العبيديين مدينة القاهرة(٥).

وإذا نظر الباحث إلى هذه الدولة من زاوية القوة والضعف فإنها تتوزع بصفة عامة على مرحلتين: مرحلة القوة، وهي المرحلة الأولى من تاريخها، وتشمل الفترة الإفريقية وجزءًا من الفترة المصرية يصل حتى نهاية عهد الحاكم بأمر الله(٦) سنة إحدى عشرة وأربعمائة للهجرة (١٠٢٠م)، وقد تمثلت قوة الدولة إبان هذه المرحلة في توسعها الذي تم على حساب العديد من القوى السياسية التي كانت قائمة في الشمال الإفريقي(٧)، أما ذروة قوة الدولة في هذه المرحلة فقد برزت في عهد

---

(٥) القاهرة: بدأ بناؤها في الثامن عشر من شعبان ٣٥٨هـ/السادس من يوليو ٩٦٩م، بأمر من الخليفة العبيدي المعز لدين الله لقائده جوهر الصقلي بعد استيلائه على مصر، في موقع شمالي العسكر والقطائع يقال له (المناخ)، وبعد ثلاث سنوات اكتمل بناؤها. وفي العام الرابع دخلها المعز في رمضان سنة ٣٦١هـ/يونيو ٩٧٣م، وفي سبب تسميتها بالقاهرة ثلاث روايات، كانت مساحتها عند بنائها لا تتعدى ٤٠٠ فدان، وقد تم تخطيطها لتكون مسكنًا للخليفة وحاشيته وعسكره فقط دون اختلاطهم بسكان مصر أو بمن قدم إلى مصر من القبائل المغربية التي كانت جزءًا من جيش القائد جوهر عند استيلائه على مصر. لمزيد من المعلومات عن القاهرة وتاريخها فضلاً انظر: المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)، ج١، ج٢، دار صادر عن طبعة بولاق، القاهرة، ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م. أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٢.

Dachraoui, F: Le Califat Fatimide au Maghreb, 296-362 /909-973. Tunis, 1981.

(٦) الحاكم بأمر الله أبو علي منصور بن العزيز نزار بن المعز معد بن المنصور إسماعيل بن القائم محمد بن المهدي، ولد سنة خمس وسبعين وثلاثمائة للهجرة، تولى الخلافة وله إحدى عشرة سنة، اشتهر بغرابة تصرفاته وأحكامه، كانت له شخصية قوية، وكان كريمًا محبًا لسفك الدماء، تسببت أخته ست الملك بقتله في شوال سنة ٤١١هـ/١٠٢١م بمساعدة الأمير ابن دواس بعد أن اتهمها بالزنا، وأشاع عنها ذلك. ابن خلكان شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ، ج٥، ص٢٩٤؛ الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (٧٤٨هـ/١٣٧٤م): تهذيب سير أعلام النبلاء، ط الأولى، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢١هـ، ج٢، ص٧٤.

(٧) قامت الدولة العبيدية وتوسعت على أنقاض عدة قوى سيطرت على الشمال الإفريقي كان أهمها دولة الأغالبة (١٨٤-٢٩٦هـ) التي قامت في المغرب الأدنى أو ولاية أفريقية (تونس)، وكانت عاصمتها مدينة القيروان، والدولة الرستمية (١٤٤-٢٩٦هـ) التي قامت في المغرب الأوسط (الجزائر)، وكانت عاصمتها مدينة تاهرت، والدولة المدرارية أو دولة بني واسول (١٤٠-٣٤٩هـ) في المغرب الأقصى =



المعز لدين الله[٨] وابنه العزيز[٩]، وتمثلت في توسع النفوذ العبيدي بالإضافة إلى مصر ليشمل معظم بلاد الشام[١٠] وبلاد الحرمين

= (المغرب)، وعاصمتها مدينة سجلماسة، ودولة الأدارسة (١٧٢-٣٦٣هـ) في المغرب الأقصى كذلك، وعاصمتها مدينة فاس. لمزيد من التفصيلات عن هذه الدول (نشأتها وتاريخها) فضلاً انظر: ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي (كان موجوداً سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج١، ج٢، تحقيق ج. س. كولان، أ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٠م. ابن القطان، أبو الحسن علي الكتامي (ت ٦٢٨هـ/١٢٣٠م): نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق محمود مكي، الرباط، ١٩٦٤م. المراكشي، عبدالواحد (ت ٦٦٩هـ/١٢٧١م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق سعيد العريان، ومحمد العربي، القاهرة، ١٩٤٩م. الداعي عماد الدين إدريس (ت ٨٧٢هـ/١٤٨٨م): تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب (القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار)، تحقيق محمد العلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥م. أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص٢٢٦-٢٣٥.

(٨) المعز لدين الله أبو تميم معد بن المنصور إسماعيل بن القائم محمد بن المهدي عبيد الله، ولد في المهدية يوم الاثنين حادي عشر رمضان سنة ٣١٩هـ. وولي الخلافة يوم الأحد سابع ذي الحجة سنة ٣٤١هـ، وكانت وفاته يوم الجمعة الحادي عشر من ربيع الآخر سنة ٣٦٥هـ، كان عاقلاً حازماً كريماً، ذا علم وأدب، وفيه عدل وإنصاف. ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص٢٢٤: الذهبي، التهذيب، ج٢، ص٧٣.

(٩) أبو منصور نزار بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي، ولد في المهدية يوم الخميس رابع عشر المحرم سنة ٣٤٤هـ، ولي الخلافة يوم الجمعة حادي عشر ربيع الآخر سنة ٣٦٥هـ. وكانت وفاته مريضاً يوم الثلاثاء الثامن والعشرين رمضان سنة ٣٦٨هـ. كان كريماً شجاعاً رحيماً أديباً حسن الخلق لا يحب سفك الدماء. ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص٣٧١: الذهبي، التهذيب، ج٢، ص٧٤.

(١٠) في أواخر سنة ٣٥٩هـ/٩٧٠م وبعد أن انتشر النفوذ العبيدي في مصر أرسل القائد جوهر الصقلي جيشاً بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي لبسط النفوذ العبيدي على بلاد الشام تقويضاً للنفوذ العباسي فيها واستغلالاً لتطورات الصراع الدائر هناك بين الأخشيديين وابن رائق الخزري المدعوم من الخلافة العباسية، ثم بين الأخشيديين والحمدانيين، ثم دخول قرامطة البحرين في النزاع الدائر بين القوتين. لمزيد من المعلومات عن تطورات الأحداث في بلاد الشام والنفوذ العبيدي فيها فضلاً انظر: ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م): ذيل تاريخ دمشق، تحقيق آمدروز، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م. ابن ظافر الأزدي جمال الدين علي بن منصور (ت ٦١٣هـ/١٢١٦م): أخبار الدول المنقطعة، تحقيق عصام هزايمه وآخرون، دار الكندي للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٩م، ج١. محمد جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٧م. خاشع المعاضيدي: الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي، ط الأولى، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٥م.

الشريفين[١١]، أما مرحلة الضعف فإنها تمتد من عهد الظاهر لإعزاز دين الله[١٢] وحتى نهاية الدولة سنة سبع وستين وخمسمائة للهجرة (١١٧١م).

وإذا نظر الباحث إلى الدولة العبيدية من خلال مدى سيطرة الخليفة على مقاليد الأمور فيها فإنها تقسم إلى ثلاث مراحل: في المرحلة الأولى التي انتهت مع نهاية عهد العزيز، كان الخليفة هو صاحب الكلمة العليا في رسم سياساتها وتنفيذ مخططاتها، وفي المرحلة الثانية التي تشمل عهدي الحاكم والظاهر وحوالي ثلثي عهد المستنصر[١٣]، تضاءل نفوذ الخليفة وضعف في فترات، وبرزت سلطته وقوته في

---

(١١) قامت في مكة والمدينة إمارة محلية سنة ٣٣٨هـ تولاها جماعة من بني الحسن بن علي بن أبي طالب، ومن بني جعفر الطيار بن أبي طالب، وكثيرًا ما حدث تنازع بين الجماعتين حول شؤون الإمارة والإشراف على الحرمين، وقد استغل المعز العبيدي هذا النزاع للتدخل في شؤون الحجاز (مكة والمدينة)، فأخذ يتقرب إليهم، ويتوسط للصلح بينهم، ويرسل إليهم الأموال والهدايا، وبعد أن انتقل المعز إلى مصر سنة ٣٦٢هـ اعترف به أمراء الحجاز إمامًا وخطبوا له على المنابر، ثم أصبح هذا الاعتراف مذبذبًا بين العبيديين والعباسيين، إذ سار أمراء مكة من بني الحسن وبني جعفر ثم بني هاشم بعدهم على سياسة نفعية، وصاروا يخطبون لمن يدفع لهم أكثر، الأمر الذي أحدث اضطرابًا في أحوال الحجاز السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعدم استقرار الأوضاع فيها حتى نهاية العصر العبيدي. لمزيد من التفصيل عن ذلك فضلاً انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٧، ج٨. ابن خلدون، أبو زيد عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م): العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون) منشورات الأعظمي، بيروت، ١٩٧٩م، ج٤. محمد جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، ط الأولى، دار الفكر العربي، ١٣٦٩هـ.

(١٢) الظاهر لإعزاز دين الله: أبو الحسن علي بن الحاكم منصور بن العزيز نزار، ولد يوم الأربعاء العاشر من رمضان سنة ٣٩٥هـ، وبويع له بالخلافة يوم عيد الأضحى سنة ٤١١هـ، وتوفي ليلة الأحد النصف من شعبان سنة ٤٢٧هـ، كان حسن السيرة عادلاً، أهمل أمر دولته بملذاته وحبه للراحة والدعة. ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة، ج١، ص٢١٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٠-١١.

(١٣) المستنصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله علي بن الحاكم بأمر الله منصور، ولد في القاهرة في الثلاثاء الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٤٢٠هـ، وولي الخلافة يوم الأحد منتصف شعبان سنة ٤٢٧هـ، وكانت وفاته ليلة الخميس الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٤٨٧هـ، كان سيئ التدبير، مفرطًا في الفسق والمجون، جرى منه كثير من المظالم والشرور. ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة، ج١، ص٢١٦؛ ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص٢٢٩.

فترات أخرى، أما في المرحلة الثالثة والأخيرة التي بدأت من سنة ست وستين وأربعمائة للهجرة (١٠٧٣-١٠٧٤م)، وانتهت بسقوط الدولة، فإن نفوذ الخليفة قد تقلص بشكل كبير، بل إنه في بعض السنوات لم يكن له ولو قدر ضئيل من النفوذ على الإطلاق.

وأيضًا يمكن للباحث أن ينظر إلى الدولة العبيدية من زاوية سيطرة مراكز القوى فيها، بمعنى سيطرة طائفة معينة على الكثير من المواقع المؤثرة في الدولة، وبالتالي التغلغل بنفوذها إلى ما هو أبعد في حياة الدولة السياسية والاقتصادية.

ومن هذه الزاوية يوجد في تاريخ الدولة العبيدية فترات عدة، منها فترة الصقالبة، وفترة الكتاميين، وفترة السودان، وفترة الأتراك، وغير ذلك من الفترات التي برزت فيها طائفة من دون طائفة أخرى(١٤).

---

(١٤) لتكسب التنافس في خدمتها اعتمدت الخلافة العبيدية على عدة عناصر من أجناس مختلفة، واستمر الاعتماد والتعدد حتى سقوط الدولة العبيدية. فمنذ ظهورها في المغرب اعتمدت على العنصر البربري (المغاربة)، وعرف منهم طوائف عدة، أشهرها كتامة وزويلة والمصامدة والباطليين والبرقية، وبعد استقرارهم في مصر اعتمد المعز العبيدي على من عرفوا بـ (أولاد الناس)، وهم من المماليك الذين يؤتى بهم صغارًا ويتربون وينشأون في خدمة الدولة، ثم ظهر ميل العبيديين إلى استخدام عناصر مشرقية من الديلم والأتراك الذين عرفوا بالمشارقة، واستخدم العبيديون إلى جانب هؤلاء السودان الذين كثرت أعدادهم في مصر منذ العهد الطولوني، وأخذوا في الزيادة في العصر العبيدي حتى بلغت أعدادهم خمسين أو ستين ألفًا في عهد الحاكم، كذلك استخدم العبيديون عناصر من المرتزقة الروم والأرمن، وأيضًا استخدموا الكرد كما استخدموا القبائل العربية التي استوطنت مصر وخصوصًا قبائل قيس وهلال وطيئ وكلب.

وطبيعي أن يحدث بين هذه العناصر الكثير من التنافس والنزاعات بل والحروب الدامية بحثًا عن مصالحهم وحفاظًا على نفوذهم وسيطرتهم على مراكز القرار في الدولة. لمزيد من التفصيل عن هذه العناصر وأوضاعها ونزاعاتها في العصر العبيدي فضلاً انظر: المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ج٣. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١١٥، ١١٨. موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٩م. عبدالمنعم ماجد: الإمام المستنصر بالله الفاطمي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦١م، ص١٦٠، ١٦٩. إبراهيم أيوب: التاريخ الفاطمي الاجتماعي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ١٩٩٧م، ص١٥، ٦٣.

ومن أهم الفـتـرات التـي انعكست تأثيـراتهـا بشـدة على الـدولة العبـيدية، حـقبـة نفـوذ العناصـر الأرمنيـة[١٥]، وتبـدأ هذه الفـتـرة من منتـصف سنة ست وستين وأربعمـائة للهـجـرة (١٠٧٤م)، وهـو التـاريخ الذي أسندت فيه الوزارة العبيدية إلى بدر الجمالي الأرمني الأصل[١٦]، وتنتهي هذه الفتـرة في الأسبوع الثـاني من جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين وخـمسـمـائة للهـجـرة (١١٣٧م)، وهـو التـاريخ الذي أُرغم فـيـه

(١٥) ترجع أصـول الأرمن إلى القبـائل الآرية المعـروفـة بـ(الهندوأوربيـة)، قـدمـوا من أواسط آسيا، واستوطنوا المنطقة التي عرفت بأرمينية في (آسيا الصغرى)، وبهذا اتصلوا ببلاد الشام، وارتبطوا معها سياسيًا ودينيًا واجتماعيًا في فترات عدة، وزاد اتصالهم بها بعد اعتناقهم النصرانية أواخر القرن الثاني الميلادي على يد القديس جـريجـوريوس المنيـر الملقب بـرسـول أرمـينيـة. أصبـحت أرمـينيـة جـزءًا من الدولة الإسلامية منذ الفتوح الإسـلاميـة الأولى، وشهد القرن الخـامس الهجري /الحادي عشـر الميلادي تطورات سيـاسيـة صـاحبت توسع الأتراك السـلاجـقة في آسيـا الصغرى ومن ضمنها منطقة أرمينيـة، وقد أدت تلك التطورات إلى هجـرات بشرية نحو بلاد الشام، كان أهمهـا هجـرة الأرمن إلى الأجزاء الشمـالية من بلاد الشام نحـو قليـقـيـة والرهاوتـل باشـر وأنطاكـيـة وأرتاح وكـفـردبين، ثم في تاريخ لاحق انتـشـروا في المناطق الجنوبيـة من بلاد الشـام في بيت المقـدس والكرك والشـوبك وعمان، ومنها بدأ تسـربهم إلى مصـر حتى كانت هجـرتهم الكثيفة إليها مع الوزير بدر والسنوات التـاليـة في ظل بروز نفـوذ العناصـر الأرمنيـة في الديار المصـرية. لمزيد من التـفصيل عن الأرمن وتاريخهم فضـلاً انظر: مـروان المدور: الأرمن عبـر التـاريخ، دار مكتبـة الحيـاة، بيروت، ١٩٨٢م. عبـدالرحـمن محـمد العبـدالغني: أرمينية وعلاقاتها السياسية بكل من البيزنطيين والمسلمين، مؤسسة الكويت للتقدم العلمـي، الكويت، ١٩٨٩م. فـايز نجـيب إسكندر: أرمـينيـة بين البـيـزنطيين والأتراك السـلاجقة، في مصنف أريستـاكيس اللستيغرتي، المطبعة العصرية، الإسكندرية، ١٩٨٣م.

Hintlian, K: History of the Armenians in the Holy Land, London, 1976.

(١٦) سيـف الإسـلام أبو النجم المستنصري بدر بن عبدالله الجمالي، نسبة إلى جمال الدولة أبي الحسن علي بن عـمـار صـاحب طرابلس الشـام الذي اشـتـراه غـلامًـا، فتربى عنده، وتقدم في الخدمة حتى ولي دمشق للخليفة المستنصـر سنة ٤٥٥هـ، كان ذا سطوة وبطش وهمـة وهيبـة، مات في سنة ٤٨٨هـ بعد مـرض طال به. ابن الصيرفي أمين الدين علي بن منجب بن سليمان (ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م): الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤١٠هـ، ص٩٤؛ ابن خلكان، وفيـات الأعيـان، ج٢، ص٤٤٨، ٤٥٠؛ الذهبي، التـهـذيب، ج٢، ص٤٤٦.

الوزير بهرام الأرمني[١٧] على الخروج من القاهرة تحت ضغط القوات المعادية والمناوئة لتغلغل النفوذ الأرمني في الدولة العبيدية[١٨].

ويمكن للباحث أن يسمي هذه الفترة بحقبة النفوذ الأرمني لاعتبارين محددين:

الأول يتصل بقمة السلطة في الدولة العبيدية، حيث تخلى الخلفاء العبيديون عن مركز الصدارة في الدولة لصالح قادة الأرمن ابتداءً من بدر الجمالي، وانتهاء بالوزير بهرام الأرمني.

والاعتبار الثاني يتصل بالقوة العسكرية التي يناط بها عادة تنفيذ سياسات الدولة كما ترسمها قمة السلطة. والقوة العسكرية الرئيسة في هذه الفترة كانت أيضًا بيد عناصر أرمينية الأصل، فقد أحضر بدر الجمالي معه عددًا كبيرًا منهم ولحق بهم آخرون، وبهذه القوة الأرمنية تغلب بدر على القوى المناوئة وخاصة العناصر التركية التي سيطرت على مقاليد الأمور في الدولة حتى بدا وكأنها على وشك الإطاحة بالنظام من أساسه.

بعد ذلك بقيت العناصر الأرمنية هي القوة المؤثرة على الساحة السياسية ولمدة طويلة.

---

(١٧) تاج الدولة أبو المظفر بهرام بن أسد الأرمني، أقام في الوزارة سنة واحدة وعشرة أيام، ثم استعفى ولبس الصوف وترهب، وبنى له مكانًا في قصره يتعبد فيه حتى مات في شهر ربيع الآخر سنة ٥٣٥هـ، وفي رواية أنه مات مسمومًا بعد أن قبض عليه رضوان بن ولخشي في صعيد مصر في رمضان سنة ٥٣٢هـ، وأحضره إلى القاهرة. ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٥-٢٤٦؛ ابن ميسر: تاج الدين محمد بن علي (ت ٦٧٧هـ/١٢٧٨م): أخبار مصر (المنتقى)، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨١م، ص١٣٢-١٣٣؛ ابن أيبك الدواداري، أبو بكر عبدالله (ت ٧٣٦هـ/١٣٣٥م): كنز الدرر وجامع الغرر، ج٦ (الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية) تحقيق صلاح الدين المنجد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٨٠هـ، ص٥٠٧، ٥١٢، ٥١٤، ٥١٨.

(١٨) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٦٢؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٥٦.

حقبة نفوذ العناصر الأرمنية:

استغرقت هذه الفترة حوالي خمسة وستين عامًا مع سنوات انقطاع محدودة ومتناثرة، وفي هذه الفترة تعاقب على منصب الخلافة العبيدية أربعة خلفاء، كان أولهم المستنصر بالله، ثم من بعده ابنه أبو القاسم أحمد المستعلي بالله(١٩)، وتلاه ابنه أبو علي المنصور الآمر بأحكام الله(٢٠)، وأخيرًا الخليفة الحافظ لدين الله(٢١).

ونلتفت إلى منصب الوزارة في الفترة نفسها، فنجد أنه تعاقب عليه ستة من الوزراء، خمسة من الأرمن، أولهم بدر الجمالي الذي بدأت وزارته في جمادى الأولى سنة ست وستين وأربعمائة للهجرة (١٠٧٤م)، واستمر في منصبه حتى وفاته في ربيع الأول سنة سبع وثمانين وأربعمائة للهجرة (١٠٩٤م)، وثانيهم هو الأفضل بن بدر

---

(١٩) المستعلي بالله أحمد بن المستنصر بالله معد بن الظاهر علي بن الحاكم بن العزيز بن المعز، ولد في العشرين من المحرم سنة ٤٦٩هـ، وبويع بالخلافة في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٤٨٧هـ، وتوفي بمصر يوم الثلاثاء السابع عشر من صفر سنة ٤٩٥هـ، كان حسن السيرة ضعيف الشخصية. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٤١؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٢٩، ٢٣٤؛ ابن خلكان، وفيات، ج١، ص١٧٨، ١٨٠.

(٢٠) الآمر بأحكام الله أبو علي منصور بن المستعلي بالله أحمد، ولد يوم الثلاثاء الثالث عشر من المحرم سنة ٤٩٠هـ، وبويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه يوم الثلاثاء السابع عشر من صفر سنة ٤٩٥هـ، ومات مقتولاً على يد جماعة من النزارية (المؤيدين لخلافة عمه نزار بدلاً من أبيه) يوم الثلاثاء ثاني ذي القعدة سنة ٥٢٤هـ، كان سيئ السيرة ظالمًا للرعية سفاكًا للدماء، مظهرًا ولعه باللهو والمجون. ابن القلانسي، الذيل، ص٢٢٨؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٣٤، ٢٤٠؛ ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص٢٩٩، ٣٠٢.

(٢١) الحافظ لدين الله أبو ميمون عبدالمجيد بن أبي القاسم محمد بن المستنصر معد بن الظاهر علي، ولد في المحرم سنة ٤٦٧هـ، أصبح وليًا للعهد يوم مقتل الآمر بأحكام الله يوم الثلاثاء الثاني من ذي القعدة سنة ٥٢٤هـ، ثم بويع له بالخلافة يوم مقتل الوزير أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي في النصف من المحرم سنة ٥٢٦هـ، وكانت وفاته ليلة الأحد الخامس من جمادى الآخرة سنة ٥٤٤هـ، حجر عليه في بداية عهده، ثم نازعه ولده حسن على تدبير أمور الدولة، كان حازم الرأي، جامعًا للأموال بخيلاً. ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٠، ٢٤٩؛ ابن خلكان، وفيات، ج٣، ص٢٣٥، ٢٣٧.



الجمالي[٢٢]، الذي عمر طويلاً في منصب الوزارة، إذ إنه استمر فيه حتى اغتياله في رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة للهجرة (١١٢١م)، وهو الذي عمل مع ثلاثة من الخلفاء، هم المستنصر بالله لعدة شهور، والمستعلي بالله طوال مدة خلافته، والآمر بأحكام الله حوالي عشرين سنة من مدة حكمه. وثالثهم وإن لم يكن أرمني الأصل ولكن يمكن أن يوصف بأنه أرمني بالانتماء هو المأمون البطائحي[٢٣]، الذي وزر في شوال سنة خمس عشرة وخمسمائة للهجرة (١١٢٢م)، وحتى أوائل رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة للهجرة (١١٢٥م)، وكان قبل وزراته أحد أعوان بدر الجمالي ومن بعده ابنه الأفضل، وممن قدموا خدمات جليلة لهذه الأسرة.

عاشت الدولة العبيدية بعد ذلك حوالي خمسة أعوام ومنصب الوزارة شاغر[٢٤]، ثم ومع بداية عهد الحافظ لدين الله، عادت القوة إلى بيت بدر الجمالي من جديد، ففي اليوم السادس عشر من ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة

عاشت الدولة العبيدية حوالي خمسة أعوام ومنصب الوزارة شاغر

---

(٢٢) الأفضل أبو القاسم شاهنشاه بن بدر بن عبدالله الجمالي، ولد في عكا سنة ٤٥٨هـ، وتولى الوزارة في أثناء مرض أبيه في ربيع الأول سنة ٤٨٧هـ، وقتل بمؤامرة من الخليفة الآمر بأحكام الله يوم الأحد ثاني عيد الفطر سنة ٥١٥هـ، كان حسن الاعتقاد وحسن السيرة عادلاً صائب الرأي والتدبير عالي الهمة قوي الشخصية. ابن الصيرفي، الإشارة، ص١٠٠-١٠١؛ ابن القلانسي، الذيل، ص٢٠٣-٢٠٤؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٢٩، ٢٣٥.

(٢٣) أبو عبدالله محمد بن فاتك بن مختار بن حسن بن تمام المعروف بالأمير المأمون بن البطائحي (نسبة إلى البطائح موضع في العراق بين واسط والبصرة)، وعندما سلّم الخليفة أموال وأملاك ومقتنيات الوزير الأفضل بن بدر لقبه بالمأمون، ولي الوزارة بعد مقتل الأفضل بن بدر، حتى إذا ساءت سيرته وكثر ظلمه وتسلطه قبض عليه الخليفة الآمر ليلة السبت رابع رمضان سنة ٥١٩هـ، واعتقله ثلاث سنين، ثم قتله في رجب سنة ٥٢١هـ، وصلبه عدة سنين أخرى. ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٣٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣١٩؛ ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص٢٩٦.

(٢٤) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٢٩؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٠؛ ابن أيبك، الدرة المضيئة، ص٤٩٦، ٥٠٦.

للهجرة (١١٣٠م)، فُرِض أحمد[٢٥] حفيد بدر وزيرًا، فرض على الحافظ من قبل أتباعه أو المؤيدين لفكرة استمرار النفوذ الأرمني في الدولة العبيدية، وقد حمل الوزير الجديد لقب "الأكمل"، ولم يمكث في الوزارة طويلاً، حيث قتل في منتصف المحرم من السنة التالية سنة ست وعشرين وخمسمائة للهجرة (١١٣١م)[٢٦].

بعد مقتل الأكمل أسند منصب الوزارة إلى أرمني آخر ذلك هو الأمير يانس[٢٧]، وهو من أتباع الأفضل وممن خدموه مدة طويلة، ومن خلال هذه التبعية ترقَّى حتى وصل إلى منصب متولي الباب[٢٨]، وكان حظ يانس في الوزارة قليلاً، إذ إنه لم يعمر فيها سوى تسعة أشهر وأيام، وتخلص منه الحافظ عن طريق وضع السم له في ماء الوضوء[٢٩].

---

(٢٥) أبو علي الأكمل أحمد بن الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي المعروف بكتيفات، اعتقله الآمر عند مقتل أبيه الأفضل، وبعد مقتل الآمر ثاني ذي القعدة سنة ٥٢٤هـ أخرجه الجند من الاعتقال وبايعوه وزيرًا، كان ذا رأي وسياسة وتدبير، عادلاً جوادًا، قتل في النصف من المحرم سنة ٥٢٦هـ في البستان الكبير خارج القاهرة بتدبير من الخليفة الحافظ لدين الله. ابن القلانسي، الذيل، ص٢٢٩؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٠، ٢٤٢؛ ابن خلكان، وفيات، ج٣، ص٢٢٥-٢٣٦.

(٢٦) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٠، ٢٤٢؛ ابن أيبك، الدرة المضيئة، ص٥٠٦؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٤٦.

(٢٧) السعيد أبو الفتح يانس الحافظي الرومي، كان غلامًا للأفضل، ثم أصبح من مماليك المأمون البطائحي، وترقى في الخدمة عنده حتى ولي الوزارة بعد خروجه من الاعتقال يوم بويع الحافظ بالخلافة في المحرم من سنة ٥٢١هـ، ومات مسمومًا بتدبير من الخليفة الحافظ ثاني ذي القعدة، وقيل: في السادس والعشرين من ذي الحجة سنة ٥٢٦هـ، كان ذا هيبة بعيد الغور كثير الشر. ابن المأمون، أخبار مصر، ص٣٧؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٣٥.

(٢٨) وترد في بعض المصادر بلفظ متولي حجبة الباب وحجبية الباب، والمقصود منها هو حاجب باب الوزير، إذ إنها من الوظائف التابعة له. ابن المأمون، أخبار مصر، ص٣٦، ص٥٢، ٨٨، ٨٩.

(٢٩) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٣٥؛ ابن أيبك، الدرة المضيئة، ص٥٠٧؛ المقريزي، الخطط، ج٢، ص١٧.

وعقب التخلص من يانس تولى الحافظ الأمر بنفسه، واستعان في إدارة شؤون الدولة بأحد أولاده، تبع ذلك تفجر أزمة خطيرة داخل بيت الحافظ، لم تنته إلا بعد تخلص الخليفة - وعن طريق السم - من ابنه وولي عهده الحسن(٣٠)، بعد ذلك أسند الحافظ وزارته إلى بهرام الأرمني، وذلك في جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة للهجرة (١١٣٥م)، وقد استمر هذا الأرمني النصراني في الوزارة العبيدية حتى جمادى الأولى من سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة للهجرة (١١٣٧م)(٣١).

هؤلاء هم الرجال الستة الذين تعاقبوا على منصب الوزارة إبان حقبة نفوذ العناصر الأرمنية، ويعد الأفضل بن بدر الجمالي أهم هؤلاء على الإطلاق؛ وذلك لطول مدة توليه من ناحية، ولتأثيره الشديد على مجريات الأحداث من ناحية ثانية.

بداية النفوذ:

تعد سنة ست وستين وأربعمائة للهجرة (١٠٧٤م) سنة تحول أساسية في تاريخ الدولة العبيدية، وسنة فاصلة في مصير ومستقبل

---

(٣٠) بعد تولي الحافظ الخلافة جعل ابنه أبا تراب حيدرة وليًا للعهد، فلم يرض بذلك ولده أبو علي حسن، فجمع الأجناد وأراد القبض على أخيه الذي احتمى بأبيه، فحصرهما في القصر، وطالب والده بتسليمه، فأرضاه بتعيينه وليًا للعهد، ثم استبد بالأمر ولم يبق لأبيه غير الاسم، فحسده أخوه حيدرة الذي جمع العساكر لقتال أخيه، لكنه مني بهزيمة قتل فيها معظم المؤيدين له، وزاد هذا الانتصار من نفوذ أخيه وتسلطه في الدولة، فاعتقل والده الخليفة الحافظ في القصر ومنعه من الخروج أو التصرف بأمور الدولة، وعمل على التخلص من أمراء الدولة، فاجتمعوا وعزموا على خلع الحافظ وولده، فأقنعهم الحافظ بإمهاله بعض من الوقت للتخلص من ابنه، فراسله واحتال عليه في الحضور حتى إذا تمكن من ذلك قبض عليه واعتقله، فطالبوه بقتله وهددوه إن لم يفعل بقتل ابنه وخلعه من الخلافة، فاضطر إلى الرضوخ لمطالبهم فسمّه، وقيل: أمر بخنقه حتى مات.

لمزيد من التفصيل عن ذلك فضلاً انظر: ابن القلانسي، الذيل، ص٢٤٢. ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٢، ٢٤٤. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٤٦، ١٥٠.

(٣١) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٥٦؛ ابن أيبك، الدرة المضيئة، ص٥١٤-٥١٥.

هذه الدولة بين اتجاهين: اتجاه نحو السقوط، واتجاه نحو العودة إلى القوة من جديد، ونرجع إلى الوراء قليلاً فنجد أن التاريخ قد سجل وعلى مدى أكثر من عشر سنوات وقوع العديد من مظاهر التصدع والانهيار في بنيان الدولة العبيدية، إذ إنه ابتداءً من سنة أربع وخمسين وأربعمائة للهجرة (١٠٦٢م) وقعت مصر فريسة لحرب أهلية مدمرة استغرقت أكثر من عشر سنوات، وقد ظهر في أثناء هذه الحرب وبشكل واضح انقسام خطير في القوة العسكرية التي كانت تستند إليها الدولة، فالجنود الأتراك تحت قيادة الحسن بن الحسين بن حمدان(٣٢) كانوا يشكلون القوة المناوئة لنفوذ الخليفة العبيدي المستنصر بالله، وفي مجابهة هذه القوة كان يقف مع الخليفة وأتباعه العبيد أو السودان.

وفي هذه الحرب رجحت كفة العناصر التركية، وسيطروا تحت قيادة زعيمهم ابن حمدان على قسم كبير من الأرض المصرية، وفرضوا إرادتهم على الخليفة، وطبقوا معه سياسة الاستنزاف الاقتصادي، وقد نجحوا في هذه السياسة إلى أقصى درجات النجاح(٣٣).

وقد ارتبط بهذه الحرب الأهلية وترتب عليها وقوع مصر في أزمة اقتصادية طاحنة أطلق عليها المؤرخون لعنفها وقسوتها اصطلاح

---

(٣٢) الأمير المظفر ناصر الدولة أبو محمد الحسن بن أبي عبدالله الحسين بن ناصر الدولة أبو محمد الحسن بن عبدالله بن حمدان التغلبي، قدم إلى مصر بعد انقراض دولة الحمدانيين في الموصل على يد البويهيين، وجعله المستنصر من كبار قواده، وعينه في ولاية دمشق سنة ٤٣٣هـ ثم في ولايتها للمرة الثانية سنة ٤٥٠هـ، ثم واليًا على ريف مصر (شرقه وغربه)، زاد نفوذه بعد أن أصبح قائدًا للجنود الأتراك في مصر في مواجهة السودان، وخاض ضدهم معارك طاحنة، سعى للقضاء على الخلافة العبيدية وخلع المستنصر، ودخل في صراع مع الخلافة مما كان سببًا في قتله سنة ٤٦٥هـ، في داره على النيل المعروفة بمنازل العز على يد بلدكوز التركي مقدم الأتراك الذي تتبع إخوته وأفراد أسرته في جميع أنحاء مصر فقتلوا عن آخرهم. ابن القلانسي، الذيل، ص٨٣، ٨٦؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص١٠٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١١٥، ١١٨.

(٣٣) ابن الصيرفي، الإشارة، ص٩٥؛ ابن القلانسي، الذيل، ص٨٤، ٩٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١١٥، ١١٨؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٢٣٣، ٢٧٨.



"سنوات الشدة"[٣٤]، ويشبهون قسوتها وعدد سنواتها بالسنوات الصعبة التي واجهتها مصر في أيام نبي الله يوسف عليه السلام، وكانت مدتها سبع سنوات بداية من سنة سبع وخمسين وأربعمائة، وانتهاءً بسنة أربع وستين وأربعمائة للهجرة (١٠٦٥م-١٠٧٢م) .

وفوق هذا وذاك فإن الحرب الأهلية والأزمة الاقتصادية كان لهما تأثيرهما العنيف على الحياة السياسية، وهو التأثير الذي برز بصورة قوية في شكل أزمة وزارية حادة بلغت ذروتها في سنة سبع وخمسين وأربعمائة للهجرة (١٠٦٥م) والسنتين التاليتين لها، ويكفي لتوضيح حجم الأزمة الوزارية الإشارة إلى أنه في ذلك العام تتابع على منصب الوزارة تسعة رجال مكث فيها بعضهم مدة يوم واحد فقط[٣٥]، وأن الخليفة المستنصر قد اضطر إزاء هذه الأزمة أن يعلق منصب الوزارة لعدة شهور[٣٦].

هذه الأزمة الحادة بأبعادها الثلاثة لم تكن داخلية خالصة، بل اشتركت في تشكيلها مؤثرات خارجية، وها هو ذا مؤرخ مصر ابن ميسر يقول عن الزعيم ابن حمدان: "وأخذ في إقامة الدعوة

---

(٣٤) عن هذه الشدة أسبابها ومظاهرها ونتائجها فضلاً انظر: المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، القاهرة، ١٩٤٠م، ص٢١ وما بعدها. ابن تغري بردي: أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، عن طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٨٣هـ، ج٥، ص١٥ وما بعدها. راشد البراوي، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٦٨هـ، ص٨٨، ٩٩.

(٣٥) أصاب الاضطراب والتدهور معظم مرافق الدولة وإداراتها ومن ذلك الوزارة التي أصبحت هدفًا لكل طامح ذي مصالح شخصية، وأوضح مثال على هذا هو التغيّر السريع للوزراء، ومن ثم قصر مدة توليهم، فمنهم من أقام سبعة عشرة يومًا، ومنهم من أقام عشرة أيام، ومنهم من أقام أقل من ذلك، وذاك الذي أقام يومًا واحدًا هو أبو عبدالله محمد بن أبي حامد الذي كانت ألقابه أطول من مدة توليه الوزارة. ابن الصيرفي، الإشارة، ص٨٧، ٩١، ٩٢، ٩٣؛ ابن ميسر، المنتقى، ص٢٩-٣٠؛ ماجد، الإمام المستنصر، ص٢٣؛ محمد حمدي المناوي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠م، ص٣٠، ٣١٣.

(٣٦) ابن الصيرفي، الإشارة، ص٩٥؛ ابن أيبك، الدرة المضيئة، ص٣٨٦.

العباسية بمصر، وإزالة خلافة الفاطميين"[٣٧]، كما يذكر عنه كل من ابن العديم والمقريزي[٣٨] أنه بعث في سنة ثنتين وستين وأربعمائة للهجرة (١٠٦٩م) رسولاً إلى ألب أرسلان[٣٩] يستدعي عساكره ليسلم إليه ديار مصر ويغير الدعوة. أما ابن الأثير فإنه يقول عن تلك التطورات: "وقطع خطبة المستنصر بالإسكندرية ودمياط، وكانا معه، وكذلك جميع الريف، وأرسل إلى الخليفة ببغداد يطلب خلعًا ليخطب له بمصر"[٤٠].

إذا نظر الباحث إلى ظروف مصر، ومدى التردي الذي وصلت إليه أوضاعها في السنوات السابقة على سنة ست وستين وأربعمائة للهجرة (١٠٧٣م)، فإنه يكاد يجزم بأن هذه الدولة قد غدت بالفعل على حافة الانهيار النهائي؛ وذلك لأنها فقدت مقومات استمرارها، الاقتصادية منها وأيضًا السياسية والعسكرية، ولم يكن للدولة العبيدية أن تبتعد عن نهايتها المحتومة إلا بما يشبه المعجزة[٤١]، وقد سجل التاريخ أن مجيء بدر الجمالي إلى مصر كان بداية لتأثيرات غيرت مجرى الأحداث في الدولة العبيدية، وجنبتها إلى حين خطر الانهيار النهائي.

---

(٣٧) المنتقى، ص٣٨.

(٣٨) ابن العديم: كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م): زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٣٧٣هـ، ج٢، ص١٩؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٠٢.

(٣٩) عضد الدولة أبو شجاع محمد ألب أرسلان بن جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق، ولد سنة ٤٢٤هـ في خراسان، وتولى السلطنة عقب وفاة عمه طغرل بك في ذي الحجة سنة ٤٥٥هـ بعد نزاع مع أخيه سليمان، كان حسن السيرة دينًا عادلاً حازمًا كثير الغزو والجهاد، توفي يوم السبت آخر ربيع الأول سنة ٤٦٥هـ. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١١٢؛ ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص٦٩.

(٤٠) الكامل، ج٨، ص١١٧.

(٤١) يقول ابن الصيرفي (الإشارة ص٩٥) عن هذه الأوضاع: "وكانت الأحوال يومئذ بالحضرة قد فسدت، والأمور قد تغيرت، وطوائف العساكر قد تبعثرت وتحزبت، والفتن بينهم قد اتصلت وتأكدت، والوزراء يقنعون بالاسم دون الأمر والنهي، والرخاء قد أيس منه، والصلاح لا يطمع فيه، ولواته قد ملكت الريف، والصعيد بأيدي العبيد، والطرقات قد انقطعت برًا وبحرًا إلا بالخفارة الثقيلة والكلفة الكبيرة مع ركوب الغرر وشدة الخطر، والمارقون ينوي بعضهم لبعض الاحتيال والغدر، ويضمر كل منهم لصاحبه الاغتيال والبغي".

في شهر جمادى الأولى من ذلك العام وصل بدر الجمالي إلى مصر قادمًا من بلاد الشام، وقد ارتبط بمجيئه تغيُّر الصورة القاتمة التي كانت تعيشها مصر، ويبدو أن هذا الرجل الأرمني قد وجد في استدعاء المستنصر إياه لنجدته وإعانته فرصة لا تعوض يستطيع من خلالها أن يغير صورته السيئة التي ارتبطت بفشله أكثر من مرة في بلاد الشام، خاصة وأنه قد تقدم به العمر، ولم يعد هناك مجال لتجارب أخرى فاشلة(٤٢).

كان بدر الجمالي على ما يبدو يدرك جيدًا أن السر وراء أزمة الدولة العبيدية يكمن في الجنود الأتراك وعدم إخلاصهم وولائهم للدولة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الأتراك كانوا وراء الفشل الذي مُني به بدر في كل من دمشق وصور. وفي ضوء هاتين الحقيقتين اشترط بدر على المستنصر حين استدعاه لإنقاذ دولته - كما يقول ابن ميسر - "أن يستخدم معه عسكرًا، ولا يبقي على أحدٍ من عساكر مصر"(٤٣).

وافق المستنصر بالله على الشرط الذي اشترطه بدر، فما كان من الأخير إلا أن قدم ومعه جنوده - معظمهم من الأرمن - قدموا بحرًا في وقت لا يعد ركوب البحر فيه مأمونًا، وسجل التاريخ وصول بدر إلى عاصمة الدولة العبيدية لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ست وستين وأربعمائة للهجرة (١٠٧٤م)(٤٤).

توجهت همة بدر إلى سرعة التخلص من قادة الأتراك، وقد نجحت خطته في ذلك نجاحًا كبيرًا، وذلك بفضل جنوده من الأرمن،

---

(٤٢) فشل بدر في حكم دمشق التي أسند إليه حكمها مرتين، مرة سنة ٤٥٥هـ، وأخرى سنة ٤٥٨هـ، كما أنه لم يتمكن من الاستيلاء على صور مرتين: الأولى في سنة ٤٦٢هـ، والثانية في السنة التالية. فضلاً انظر: ابن الصيرفي، الإشارة، ص٩٤؛ ابن القلانسي، الذيل، ص٩١، ٩٣، ٩٨؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٢٤؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣١١.

(٤٣) المنتقى، ص٤٠.

(٤٤) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٢٤؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣١١.

ويتحدث المقريزي عن الأسلوب الذي تخلص به بدر من قادة الأتراك، فيقول: "وقد رتب أصحابه ليقتل كل واحد أميرًا، ويكون له جميع ما بيده، فلما سكروا وامتد عليهم رواق الليل صار يخرج كل واحد من باب، ويسلمه إلى غلام من غلمانه، ويمضي إلى داره، فيتسلمها بما فيها من الخدم والأموال، فلم يصبح الصباح إلا ورؤوس الجميع بين يديه، وقد أحاط كل رجل من أصحابه على دار أمير من الأمراء، وأحاط بجميع ما كان له"(٤٥).

وهكذا، وفي ليلة واحدة أو في ضربة واحدة، قضى بدر على قادة الأتراك الذين كانوا داء الدولة العبيدية وسبب أزمتها، والمرجح أنهم لو ظلوا على قيد الحياة لجعلوا مهمة بدر في مصر تمنى بالإخفاق.

وانطلاقًا من هذه البداية المشجعة واصل بدر جهوده في تخليص الدولة العبيدية من السلبيات العديدة التي تراكمت خلال السنوات السابقة، "فقويت شوكته، واشتدت وطأته، وعظم أمره، فحسر عن ساعد الجد، وشمر ساعد الاجتهاد، والتقط المفسدين، فلم يبق على أحد منهم، وتطلبهم في القاهرة ومصر حتى أتى على جميعهم القتل"(٤٦).

بعد القضاء على العناصر المناوئة للدولة في محيط العاصمة بقسميها القاهرة ومصر، وجه بدر نشاطه في السنة التالية سبع وستين وأربعمائة للهجرة (١٠٧٤-١٠٧٥م) إلى الوجه البحري، فأوقع بقبيلة لواته، وقتل مقدمهم سليمان اللواتي(٤٧) وابنه، واستصفى جميع ما كان له ولقومه، وأسرف في قتلهم حتى يقال: إنه قتل منهم

---

(٤٥) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣١٢؛ فضلاً انظر أيضًا الخطط، ج١، ص٣٨٢.

(٤٦) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣١٣.

(٤٧) زعيم قبيلة لواته البربرية أو مقدمهم، وكانت إحدى القبائل المغربية التي قدمت مع جوهر الصقلي عند استيلائه على مصر، سكنوا نواحي دمياط وتنيس، وقد قاوموا نزول بدر ومن معه من الجنود الأرمن عند وصوله، ولكنه أوقع بهم وقتل مقدمهم سليمان اللواتي، وقتل معه الكثير من اللواتيين، وصادر أموالهم، واستولى على أملاكهم. ابن الصيرفي، الإشارة، ص٩٦؛ ابن ميسر، المنتقى، ص٤١؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣١٤.

عشرين ألفًا[٤٨]، وما فعله بدر بلواته فعل نظيره بكل من المناوئين للدولة في دمياط، والقسم الغربي من الدلتا[٤٩].

وفي سنة تسع وستين وأربعمائة للهجرة (١٠٧٦-١٠٧٧م) وجه بدر الجمالي نشاطه إلى الصعيد، وقد نجح في تحطيم قوة التحالف المعادي للدولة والمكَّون من جهينة والثعالبة والجعافرة[٥٠]، كما أن

(٤٨) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٢٥؛ ابن ميسر، المنتقى، ص٤١؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣١٤؛ الخطط، ج١، ص٣٨٢.

(٤٩) إقليم الدلتا شمال مصر المعروف بالريف شرقًا وغربًا والمعروف أيضًا بأسفل الأرض (الوجه البحري حاليًا)، ومدينة دمياط من أهم مدنه، وهي ثغر من ثغور الإسلام، وقد سكنت الإقليم عدة قبائل عربية ومغربية، منها قبيلة لواته وقبائل طيئ وقيس وهلال، ومن فروعها بني قرّة وبني سنبس وغيرهم، وكانت هذه القبائل مصدر إزعاج دائم للدولة، وعنصر قوة للثائرين عليها في أحيان كثيرة. المقريزي: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق عبدالمجيد عابدين، القاهرة، ١٩٦١م، ص٧، ٩، ٢٥، ٤٩؛ عبدالمنعم ماجد، المستنصر، ص١٦٤-١٦٥؛ محمد حمدي المناوي، الوزارة والوزراء، ص١٧١، ١٨٤.

(٥٠) جهينة قبيلة عظيمة لها بطون كثيرة، ينتسبون إلى جهينة بن زيد بن ليث بن سعد بن أسلم بن عمر الحاف بن قضاعة بن مالك الحميري، هاجرت أعداد كثيرة منهم إلى مصر أيام الفتح، وانساقوا من مصر السفلى إلى مصر العليا (الصعيد)، وتركز وجودهم في مناطق الحدود مع بلاد النوبة، كان دورهم كبيرًا في نشر الإسلام في بلاد النوبة، وكانت مشاركتهم في الأحداث خلال العصر العبيدي مؤثرة. أما ثعلبة فهي بطن من طيئ القحطانية ينتسبون إلى ثعلبة بن سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيئ، قدموا إلى مصر في فترة مبكرة، ونزلوا إقليم الشرقية، ثم نزحوا في تاريخ لاحق إلى جنوب مصر، وشاركوا القبائل العربية الأخرى النفوذ والتأثير في الأوضاع التي عاشها صعيد مصر. أما الجعافرة فهم المنتسبون إلى جعفر بن أبي طالب وجعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، قدموا إلى مصر في القرن الثالث الهجري، ونزلوا المنطقة الواقعة بين منفلوط وسمالوط، ونزل بعضهم في أسيوط، وكانت لهم الزعامة على القبائل العربية التي استوطنت مصر حتى تاريخ متأخر. لمزيد من التفصيلات عن القبائل العربية في مصر فضلاً انظر: المقريزي: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب. القلقشندي: أبو العباس أحمد بن عبدالله بن محمد (ت ٨٢١هـ /١٤١٨م): نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، ١٩٥٩م. عبدالله خورشيد البري: القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م. أحمد لطفي السيد: قبائل العرب في مصر، ج١، العقيلات والجعافرة وقبائل أخرى، دار الكتب المصرية، ١٣٥هـ /١٩٣٥م. سنوسي يوسف إبراهيم، زناتة والخلافة الفاطمية، مكتبة سعيد رأفت، عين شمس، القاهرة، ١٩٨٦م.

التوفيق كان حليفه أيضًا في القضاء على كنز الدولة(٥١) الذي تمرد ضد السيادة العبيدية، متخذًا من مدينة أسوان(٥٢) مركزًا لتمرده(٥٣).

وآخر الانتصارات الكبيرة في سجل إنجازات بدر العسكرية حدث في أواخر رجب من سنة تسع وستين وأربعمائة للهجرة (١٠٧٧م) حينما انتصرت قواته انتصارًا ساحقًا على أتسز السلجوقي(٥٤) ومن انضم إليه من مناوئيه ومناوئي الدولة العبيدية(٥٥).

(٥١) من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، حدثت هجرتهم إلى مصر في سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م في خلافة المتوكل العباسي، وتفرقوا في جهات كثيرة، واتخذوا من أسوان مركزًا لهم، ثم انتشروا في مناطق مختلفة من شمال النوبة، وفي سنة ٤١٢هـ/١٠٢٠م ظفر شيخهم أبو المكارم هبة الله بن أبي يزيد بن إسحاق المعروف بالأهوج المطاع وبأبي ركوة الأموي، وهو من ولد هشام بن عبدالملك بن عبدالرحمن الداخل عدو الحاكم بأمر الله العبيدي الذي منحه لقب كنز الدولة، وأصبحت ربيعة بعد ذلك تسمى بني كنز، واستمر تأثيرهم ونفوذهم في صعيد مصر، وهو ما جعلهم في نزاع دائم مع الحكومة المركزية في القاهرة حتى نهاية دولتهم أو إمارتهم في سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م. لمزيد من التفاصيل فضلاً انظر: المقريزي، البيان والإعراب، ص٤٢، ٤٦. عطية القوصي: تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، ط الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م. محمود السيد، تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، مؤسسة شباب الجماعة، الإسكندرية، ١٩٩٨م، ص٤٥. أحمد لطفي السيد، قبائل العرب في مصر، ص٥٩، ٦١.

(٥٢) أكبر مدن الصعيد وأهمها، كانت مركزًا لتجمع عدد من القبائل العربية التي هاجرت إلى صعيد مصر، وكانت مركزًا تجاريًا مهمًا وملتقى لعدة طرق وسوقًا لعدة تجارات، كما أنها كانت ثغرًا مهمة على بلاد النوبة تتبع زمن الدراسة كورة القوصية. ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص١٩١؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص١٠٨، ١٢٧، ١٩٦؛ سعاد ماهر، محافظات الجمهورية العربية المتحدة في العصر الإسلامي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج٢١، ج١، مايو ١٩٥٩م، ص٨١، ٨٥.

(٥٣) ابن الصيرفي، الإشارة، ص٩٦؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٢٥؛ ابن ميسر، المنتقى، ص٤٣؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣١٦.

(٥٤) أتسز بن أوق الخوارزمي عرف بإقسيس، ولقب بالمعظم من أمراء التركمان وأحد قادة السلاجقة في بلاد الشام الذين قضوا على النفوذ العبيدي، كان حسن السيرة خيرًا دينًا، قتله تتش بن ألب أرسلان السلجوقي عند تملكه بلاد الشام في ربيع الأول سنة ٤١٧هـ. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١١٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٢٦.

(٥٥) قاد أتسز في السنة المذكورة حملة إلى مصر هدفها القضاء على الدولة العبيدية، أشرك فيها جموعًا من العرب والتركمان، بلغ عددهم ما يزيد على عشرين ألفًا، واختلفت المصادر في أسباب فشل الحملة، والمشهور أن بدرًا الجمالي =

تعد سنة تسع وستين وأربعمائة للهجرة (١٠٧٧م) سنة حاسمة في مصير الدولة العبيدية، فقد ترتب على تلك الانتصارات الكبيرة التي حققها بدر ورجاله ضد مناوئيه من جهة وأعداء الدولة من جهة أخرى، إعادة فرض السيطرة العبيدية على كل أنحاء الديار المصرية، وهي السيطرة التي تعرضت للانتقاص كثيرًا في السنوات السابقة، كما ترتب على تلك الانتصارات المحافظة على ما بقي من نفوذهم في بلاد الشام، إذ إن انتصار بدر ضد أتسز السلجوقي لا يقل شأنًا وقيمة عن انتصاراته الأخرى؛ وذلك لأنه بهذا الانتصار قد وضع حدًا لمحاولات السلاجقة التي كانت تستهدف انتزاع مصر من العبيديين، كما أسدل الستار على الآمال التي علَّقها مناوئو الدولة العبيدية على التحالف مع القوات السلجوقية والعمل معها، وهي الممثلة للخلافة العباسية.

على أي حال فإن تلك الإنجازات التي حققها بدر في الميادين العسكرية انعكست إيجابيًا وبشكل قوي على الحياة الاقتصادية، وأوضح الأدلة على ذلك ما أشارت إليه المصادر[٥٦] من إعفاء المزارعين من خراج ثلاث سنوات متتالية، وكانت النتيجة إصلاح أوضاع الفلاحين، الذين نشطوا للعمل والإنتاج حتى ترفهت أحوالهم، واستغنوا في أيامه. كما دبت الحياة من جديد في الحركة التجارية،

الإنجازات التي حققها بدر في الميادين العسكرية انعكست إيجابيا وبشكل قوي على الحياة الاقتصادية

= استطاع استمالة بعض العرب والتركمان، فغدروا بأتسز وتخلوا عنه، فاجتمع عليه جنود مصر وهزموه. لمزيد من التفصيلات عن ذلك فضلاً انظر: ابن القلانسي، الذيل، ص١٠٩، ١١٢. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٢٣-١٢٤. محمد سالم بن شديد العوفي: العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية، ط الثانية، بيروت، ١٤٠٣هـ، ص١٣٩ وما بعدها.

(٥٦) ابن ميسر، المنتقى، ص٥١-٥٢؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص٣٨٢؛ ماجد، الإمام المستنصر، ص١٨٥.

وأخذ التجار يستقرون في مصر أو يفدون إليها بتجاراتهم، وكانت النتيجة أن استعادت القاهرة مكانتها التجارية من جديد، وذلك بعد نزوح التجار عنها إبان سنوات الشدة(٥٧).

استمر بدر الجمالي في إصلاحاته؛ الأمر الذي أدى إلى إنقاذ الدولة العبيدية من انهيار كان متوقعًا، بل وأعاد إليها قدرًا كبيرًا من قوتها وهيبتها السابقة، أو كما عبَّر المقريزي: "عادت به أبهة الخلافة الفاطمية بعد تلاشي أمرها، وعُمِّرت الديار المصرية بعد خرابها واضمحلال أحوال أهلها"(٥٨).

وقد شملت الأعمال الإصلاحية لبدر جميع المقومات الأساسية للدولة، الاقتصادية والسياسية وأيضًا العسكرية، وللدلالة على النجاح الكبير الذي تحقق نتيجة الإصلاحات ما شهدته الأوضاع الاقتصادية من نشاط وازدهار أدى إلى ثراء الدولة وزيادة أرصدتها المالية، ويكفي أن نعرف أن بدرًا الجمالي قد خلف في بيت المال عند وفاته مبلغ ستة آلاف ألف دينار، وأربعمائة ألف درهم(٥٩).

إن هذا الدور يعد إنجازًا كبيرًا إذا تذكرنا الانهيار الاقتصادي الكامل الذي عانت منه الدولة ولعدة سنوات قبل مجيء بدر وسيطرته على مقاليد الأمور فيها.

قام بدر بجهوده هذه في خدمة الدولة العبيدية بصفته أرمني الأصل كرَّس إخلاصه وولاءه لهذه الدولة، وكان السند الأساسي لبدر في مهامه المتعددة والخطيرة جنوده الذين جاءوا معه من بلاد الشام، والذين يلتقي معظمهم معه في أصله الأرمني، كما يرجِّح أن كثيرًا من الأرمن جاءوا إلى مصر واستقروا بها وعملوا تحت قيادة زعيمهم،

(٥٧) ابن ميسر، المنتقى، ص٥٣؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٢٠؛ راشد البراوي، حالة مصر الاقتصادية، ص٩٦، ٩٩.

(٥٨) الخطط، ج١، ص٣٨٢.

(٥٩) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٣١.

وعلى أثر هذه التطورات شهدت مصر تغيرات جوهرية في عدد من المجالات ذات التأثير المباشر، فالجيش العبيدي اختفى منه أو على الأقل تضاءل إلى حد كبير وجود العنصر التركي، وفي المقابل احتل الجنود الأرمن مكان الصدارة، كما تغلغل كثيرون من الأرمن إلى المواضع الحساسة في قصر الخلافة وفي المناصب البارزة الأخرى في الدولة(٦٠).

وفي عبارة موجزة يمكن القول عن بدر الجمالي إنه أنقذ الدولة العبيدية من انهيار محقق، أما الثمن الذي حصل عليه بدر مقابل هذا الإنقاذ فإنه ثمن باهظ دفعه الخليفة العبيدي، فقد تخلى المستنصر بالله عن سلطاته كخليفة مكتفيًا بالجوانب الشكلية، أما القوى الحقيقية والفعاليات المؤثرة فقد انتقلت كلها إلى بدر الجمالي الذي يقول عنه ابن ميسر: "وكان يحكم مصر تحكم الملوك، ولم يبق للمستنصر معه أمر، وسلم إليه الأمور"(٦١)، ويقول عنه المقريزي: "فلما كاتبه المستنصر، ودخل إلى القاهرة تحكم في بلاد مصر تحكم الملوك، ولم يبق للمستنصر من أمر، وألقى إليه مقاليد مملكته، وسلم إليه أمور خلافته"(٦٢).

أما ابن تغري بردي فإنه يقول عن هذا الوزير: "وانفرد أمير الجيوش بدر الجمالي بالأمر إلى أن مات في خلافة المستنصر"(٦٣)، وفي مناسبة أخرى يقول عنه: "وصار الأمر كله له، وليس للخليفة المستنصر معه سوى الاسم لا غير"(٦٤).

---

(٦٠) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٦٠، ٦٢؛ ماجد، الإمام المستنصر، ص١٩٢؛ المناوي، الوزارة والوزراء، ص١٧٨.

(٦١) المنتقى، ص٥٢.

(٦٢) اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٢٩.

(٦٣) ابن تغري، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٣.

(٦٤) النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٤١.

ولقد أكدت السياسة الداخلية وإدارة شؤون الدولة التي سار عليهما الوزير الجمالي حدوث هذا التطور الرئيس، ويكفي أن ألقي الضوء على مجموعة أحداث مترابطة لها مغزاها البعيد في توضيح ذلك، وتحديد مركز القوة الحقيقي في الدولة العبيدية آنذاك، ففي سنة سبع وسبعين وأربعمائة للهجرة (١٠٨٤م) جعل بدر الجمالي ابنه الأفضل وليًا للعهد، ولقد استخدم المقريزي للدلالة على هذا التطور لفظًا له دلالته، وهو لفظ السلطنة؛ إذ يقول: "وجعله ولي عهده في السلطنة"(٦٥)، واستخدام المقريزي لهذا اللفظ تعبير دقيق عن السلطات الواسعة التي كان يمارسها بدر الجمالي، وهذه السلطات تجاوزت إلى حد بعيد سلطات الوزارة، وانتقلت إلى مستوى سلطات السلطنة، وهو ما يدل بوضوح على التغيير الكبير والخطير في إدارة شؤون الدولة من ناحية، وعلى مدى ما بلغه بدر الجمالي من نفوذ ومركز فيها من ناحية ثانية، الأمر الذي جعله وبكل ثقة يعين ابنه وليًا للعهد من بعده في تطبيق لمبدأ الوراثة، وهو تطور يحدث لأول مرة في الدولة.

والحدث الثاني وقع في سنة سبع وثمانين وأربعمائة للهجرة (١٠٩٤م) وعقب وفاة بدر الجمالي، فقد عيَّن الخليفة المستنصر في وزارته أميرًا اسمه لاون(٦٦)، وفعلاً خلعت عليه خلع الوزارة، ولكن أنصار بدر أكرهوا الخليفة على التراجع عن موقفه، وسحب هذا التعيين، كما فرضوا الأفضل وزيرًا(٦٧)، وبمعنى أدق تنفيذ ما سبق أن رسمه أبوه من جعله وليًا للعهد من بعده.

---

(٦٥) اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٢١.

(٦٦) ويسمى صافيًا، ويلقب بأمين الدولة، كان من أجلِّ غلمان بدر الجمالي وممن بلغ عنده درجة عالية من المكانة والثقة، قبض عليه الأفضل بن بدر ليأمن خيانته واستمر في معتقله إلى أن مات. ابن الصيرفي، الإشارة، ص٩٨، ص١٠٠؛ ابن ميسر، المنتقى، ص٥٤؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٣١-٣٣٢.

(٦٧) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٣١.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الثاني ربيع الآخر ١٤٢٨هـ، السنة الثالثة والثلاثون
الدارة

أما الحدث الثالث فقد وقع في السنة نفسها، وبعد شهور من الحدث السابق، حيث نجح الأفضل من إبعاد منصب الخلافة عن ولي العهد نزار بن المستنصر[٦٨]، وتعيين ابن آخر من أبناء المستنصر في ذلك المنصب هو أبو القاسم أحمد "المستعلي بالله"، والذي كانت تربطه بأسرة بدر الجمالي رابطة المصاهرة[٦٩].

وكما هو واضح من تلك الأحداث الثلاثة فإنه يتأكد لنا من خلالها أن مركز القوة الحقيقي في الدولة العبيدية قد انتقل إلى أسرة بدر الجمالي، وأنه لم يتبق للمستنصر ومن جاء بعده سوى الجوانب الشكلية.

وللحقيقة أقول: إن الثمن الذي دفعته الخلافة العبيدية لبدر الجمالي وأسرته لم تتضح كل أبعاده في عهد المستنصر وأيام بدر

---

(٦٨) هو الابن الأكبر للمستنصر، وكان مرشحًا للخلافة من بعده لكنها صرفت عنه إلى أخيه أبي القاسم أحمد، فلجأ إلى الإسكندرية يدعمه عدد من الأمراء في مقدمتهم نصر الدولة أفتكين وابن مصال اللكّي الذي كان نزار ينوي تعيينه وزيراً بدل الأفضل بن بدر، وتحصن في الإسكندرية، وتلقب بالمصطفى لدين الله، ولعن الأفضل على المنابر، فخرج الأفضل لقتاله، فحاصره في الإسكندرية مرتين في سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م، نجح في الثانية في القبض على نزار ومن معه من الأمراء، فكان آخر العهد بهم. وبعد خروج نزار ثم مقتله أول انقسام حقيقي في الدعوة العبيدية، وظهر ما يعرف بالإسماعيلية النزارية المؤيدين لخلافة نزار في مقابل الإسماعيلية المستعلية نسبة إلى الخليفة المعين المستعلي بالله، ولرفض النزارية للأوضاع التي فرضها الأفضل بعد اختفاء نزار ووفاته، خرجوا من مصر إلى بلاد الشام والعراق وبلاد فارس، وكان منهم إسماعيلية ألموت الذين عرفوا بطائفة الحشيشية أو الباطنية، وهناك غيرهم في جهات أخرى. لمزيد من التفصيل عن ذلك فضلاً انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ج٩. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ج٣. أيمن فؤاد سيد: تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٨م. عارف تامر، تاريخ الإسماعيلية (الدولة النزارية)، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٩١م. محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية، تاريخها، نظمها، عقائدها، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م.

(٦٩) الفارقي، أحمد بن يوسف بن علي (ت بعد سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م): تاريخ ميافارقين وآمد (تاريخ الفارقي)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٣٩٤هـ، ص٢٦٧؛ ابن ميسر، المنتقى، ص٧٠، ص٩٩؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٢١.

الجمالي، بل اتضحت في الفترة اللاحقة التي سيطر فيها الأفضل بن بدر سيطرة كاملة على الدولة؛ مما يحمل الباحث أن يقول عنها وبحق: إنها الفترة الذهبية إبان السيادة الأرمنية.

الفترة الذهبية:

يعد عهد الأفضل العهد الذهبي لنفوذ الأرمن في الدولة العبيدية، فمن ناحية أخذ يطبِّق مبدأ الوراثة في منصب الوزارة وإمرة الجيش، وهذه هي المرة الأولى في تاريخ الدولة العبيدية التي تصير فيها الوزارة وراثية، وهذا إنما هو دليل على أن بدر الجمالي لم يكن ينظر إلى منصب الوزارة في إطاره التقليدي المعروف، بل إنه جعل منه منصبًا يفوق مدلوله بكثير، إذ جعله منصبًا مساويًا لمنصب السلطان، وهذا ما يمكن استخلاصه من إيراد كلمة السلطنة في العبارة التي أوردها المقريزي، كما لا يغيب عنا الألقاب التي استخدمها في أثناء وزارته، وزادت عن ألقاب الخليفة في مؤشر يدل على أن الطموح الأرمني لم يكن محصورًا في الوزارة فقط.

ومن جانب آخر سجَّل التاريخ للجيوشية (أتباع أمير الجيوش بدر الجمالي) ومعظمهم من الأرمن، أنهم تحدوا الخليفة المستنصر بالله وفرضوا عليه إرادتهم، ويتضح هذا من الحوار الحاد الذي دار بين الجانبين، والذي بينه المقريزي بقوله: "وشرع الأمراء في مخاطبة المستنصر في إبطال وزارة لاون، وهو يأبى عليهم حتى طال الخطاب، فقال المستنصر: إذا أقمنا قصبة قبل أمرنا، فقال الأمراء: إذا أقمت هذه القصبة قطعناها بهذه السيوف، وجردوا سيوفهم"(٧٠).

ويبدو من هذا الحوار أن المستنصر كان يريد تحرير نفوذه من تسلط الأرمن، غير أن الجانب المناوئ لرغبة المستنصر بالله كان أقوى منه، وبتأثير هذه القوة أرغم الخليفة العبيدي على إبطال وزارة

(٧٠) اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٨.

لاون، وإسنادها إلى الأفضل، وبمعنى أدق: أرغم على إقرار ما أراده بدر الجمالي قبل ذلك بأكثر من عشر سنوات حينما جعل ابنه وليًا للعهد من بعده.

ويغلب على الظن أن الأمير لاون هذا كان أرمني الجنس؛ لأنه كان أحد غلمان بدر المقربين[٧١]، وفي ضوء هذا يستطيع الباحث أن يتبين بعض ملامح الخطة التي حاول المستنصر بالله أن يسلكها في محاربة تغلغل النفوذ الأرمني، وهذه الخطة كانت تقوم على تفريق وحدة الأرمن ببذر الشقاق بينهم واستعداء بعضهم على بعض، فتضعف قوتهم، ومن ثم يسترد الخليفة العبيدي نفوذه من جديد.

وإذا لم يكن باستطاعة المستنصر بالله تنفيذ خطته هذه في حياة بدر الجمالي، فإنه كان بمقدوره -حسب اعتقاده- تنفيذها بعد مماته؛ لذا استغل الظرف الذي أعقب وفاة أمير الجيوش فقام بمحاولته، غير أن أتباع بدر وابنه الأفضل نجحوا في إفشال ذلك.

ويبدو أن الأفضل كان يعمل لتحقيق خطة وضعها أبوه بدر، وهي خطة محكمة طويلة المدى لسيطرة أسرته على الدولة العبيدية، ومن الركائز الأساسية للوصول إلى هذه الغاية: المصاهرة التي تمت بين البيتين، فقد زوج بدر ابنته ست الملك أبا القاسم أحمد بن المستنصر[٧٢]، وليس واضحًا على وجه التحديد ما إذا كان المستنصر أو بدر الجمالي هو الذي اتخذ المبادرة لإقامة هذه المصاهرة، ولكن المؤكد أن فكرة المصاهرة إن لم تكن المبادرة فيها من قبل أمير الجيوش فإنها قد وجدت ترحيبًا كبيرًا منه؛ وذلك لأنها ليست

---

(٧١) ابن الصيرفي، الإشارة، ص٩٨، ص١٠٠.

(٧٢) أبو القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبو تميم معد بن علي، ولد في العشرين من المحرم سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٣م، وبويع له بعد وفاة أبيه في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، وبقي فيها سبع سنين وشهرين تقريبًا، مات يوم الثلاثاء ١٣ صفر سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م، وعمره سبع وعشرون سنة وشهران. ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٢٩، ٢٣٤؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص١٧٨.

مصاهرة عادية، بل إنها تعني من وجهة نظر الزعيم الأرمني إحكام سيطرة أسرته على الدولة العبيدية، فهي في هذا الإطار تعد مصاهرة سياسية، وفي ضوء هذا الفهم يمكن إدراك تبني الأفضل لخلافة المستعلي بالله، حتى ولو كان ذلك ضد رغبة وتعاليم ووصية المستنصر بالله، وفي ضوء هذا الفهم أيضًا يمكن تفسير التطورات التي تتابعت عقب وفاة بدر في سنة سبع وثمانين وأربعمائة للهجرة (١٠٩٤م) بأنها كانت في الحقيقة حلقة في سلسلة أعمال ترمي في النهاية إلى تحقيق الخطة التي رسمها بدر الجمالي[٧٣].

ويرجع بنا التاريخ إلى الوراء عدة سنوات، فنجد أن العلاقات كانت متوترة بين نزار بن المستنصر من ناحية والأفضل بن بدر من ناحية أخرى، وأن سبب هذا التوتر هو ما كان يعمد إليه الأفضل من إظهار التعالي والاحتقار للأسرة الحاكمة، كما هو الحال عند دخوله قصر الخلافة راكبًا، الأمر الذي حرك ثائرة الأمير نزار، فما كان منه إلا أن صاح قائلاً: "انزل يا أرمني يا نجس"[٧٤].

ويسجل التاريخ أيضًا أن الأفضل كان يعارض الأمير نزار في أموره، ويرد شفاعته، ويضع من قدره، ولا يرفع رأسًا لأحد من غلمانه وحاشيته، بل يحتقرهم ويقصدهم بالأذى والضرر[٧٥].

هذه الخلفية السيئة للعلاقات بين نزار والأفضل، إضافة إلى سياسة الأفضل من أجل السيطرة على الدولة، هما السبب في عدم استجابته لما أراده المستنصر في أثناء مرضه الأخير من تجديد البيعة لابنه نزار، بل إنه دافعه وأخذ يسوِّف ويماطل حتى توفي الخليفة[٧٦].

---

(٧٣) فضلاً انظر الحاشية رقم (٦٨).

(٧٤) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٧٣؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص٤٢٣.

(٧٥) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٤٢.

(٧٦) ابن ميسر، المنتقى، ص٦٠؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٣، ١٥.

إن نجاح الأفضل في عدم تمكين المستنصر بالله من تجديد البيعة لابنه نزار يعد خطوة إيجابية لصالحه في صراعه من أجل تحديد مستقبل الدولة العبيدية بما يتفق وأهدافه السياسية، أما الخطوة الإيجابية الثانية فكانت في نجاحه في تخويف قادة الجيوش من نزار لكبر سنه والتفاف الكثير من الأتباع حوله، أما أحمد "المستعلي بالله "الذي أشار به فإنه كان صغيرًا لا يخشى منه على مستقبل نفوذهم(٧٧).

والتطور الإيجابي الثالث الذي خطاه الأفضل هو نجاحه في إثارة الفرقة بين أبناء المستنصر بالله، ففي الوقت الذي اتخذ فيه الأمير نزار موقفًا عدائيًا صريحًا ضد الأفضل والمستعلي نجد أن الأميرين إسماعيل وعبدالله قد بايعا أخاهما الأصغر بالخلافة(٧٨)، ويعني هذا أنه في الوقت الذي استطاع فيه الأفضل أن يكوِّن مع الجيوشية جبهة قوية فإن أولاد المستنصر بالله كانوا متفرقين، وهذا ما ساعده في النهاية على تحقيق مخططه في السيطرة على الدولة العبيدية من خلال زوج أخته الخليفة الصغير والضعيف المستعلي بالله.

لقد أكدت المصادر التاريخية على أن فترة الأفضل بن بدر الجمالي هي الفترة الذهبية لسيطرة الأرمن على شؤون الدولة العبيدية وعلو شأنهم وقوة نفوذهم فيها، ونجد أن تلك المصادر تجمع على حقيقة واحدة، هي أن الكلمة الأخيرة والحاسمة في شؤون الدولة الفاطمية كانت للأفضل، وأن نصيب المستعلي بالله من الخلافة لم يكن يتعدى الاسم والمظاهر الشكلية.

يقول ابن القلانسي عن المستعلي أنه كان "لازمًا قصره كعادة أبيه المستنصر بالله منكفئًا بالأفضل"(٧٩)، ويقول ابن ميسر عنه: "ولم يكن

---

(٧٧) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٣١؛ ابن ميسر، المنتقى، ص٦٢-٦٣.

(٧٨) الفارقي، تاريخ الفارقي، ص٢٦٧-٢٦٨؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٣-١٤؛ ماجد، الإمام المستنصر، ص١٩٥-١٩٦.

(٧٩) ذيل تاريخ دمشق، ص١٤١.

له سيرة تذكر، فإن مدبِّر أموره الأفضل"(٨٠)، ويقول الذهبي: "وما كان للمستعلي مع أمير الجيوش حل ولا ربط"(٨١)، أما المقريزي فيقول: "ولم يكن للمستعلي سيرة تذكر، فإن الأفضل كان يدبر أمر الدولة تدبير سلطنة وملك لا تدبير وزارة"(٨٢)، ويقول أيضًا: "ولم يكن للمستعلي مع الأفضل أمر ولا نهي ولا نفوذ"(٨٣)، ويقول ابن تغري بردي عن الأفضل: "فلما ملك الأفضل سار على سيرة أبيه مع الخلفاء من الحجر والتدقيق عليهم"(٨٤)، ويقول عن الخليفة المستعلي: "وكان المتصرف في دولته وزيره الأفضل سيف الإسلام شاهنشاه بن أمير الجيوش"(٨٥).

من هذه النصوص يتبين لنا بوضوح أن الأفضل كان يتحكم في الدولة العبيدية تحكمًا مطلقًا، وأنه لم يكن مجرد وزير، وإنما كان بمثابة ملك أو سلطان، وأمر طبيعي بعد ذلك أن يكثر الأرمن في مصر على أيامه، وأن يحتل بعضهم مراكز مؤثرة وحساسة في إدارة الدولة، مساندةً للأفضل في تحكمه في مصائرها، وحتى أولئك الذين لم يكونوا أرمنًا في أصلهم الجنسي فإنهم قد تبنوا أفكار الأرمن ومخططاتهم التي ترمي في النهاية إلى السيطرة على مقدرات الدولة العبيدية.

وتمر الأعوام ويزداد نفوذ الأرمن في مصر حتى كانت سنة خمس وتسعين وأربعمائة للهجرة (١١٠١م) وفي شهر صفر منها، حيث تحققت في هذا التاريخ خطوة كبيرة أخرى على طريق سيطرة

---

(٨٠) المنتقى، ص٦٩.

(٨١) تهذيب سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٧٦.

(٨٢) اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٧.

(٨٣) الخطط، ج١، ص٣٥٧.

(٨٤) النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٢٢.

(٨٥) النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٥٣.

الأفضل بن بدر الجمالي على الدولة، فبعد وفاة الخليفة المستعلي بالله، خلفه ابنه الطفل أبو علي المنصور، وقد أقامه الفضل في منصب الخلافة تحت لقب "الآمر بأحكام الله"[٨٦].

ونستطيع أن نتبين مقدار نفوذ الأفضل في الدولة العبيدية وتحكمه في مقدراتها وشؤونها كافة إذا نظرنا إلى أمرين: الأول هو سن الخليفة الجديد، فقد كان عمر الآمر عندما ولي منصب الخلافة خمس سنوات، والأمر الثاني هو أن أم الآمر هي ست الملك ابنة بدر الجمالي وأخت الأفضل شاهنشاه، وهذا التطور عامل مؤثر في التحكم المطلق الذي لا تحده حدود، والذي صار يتمتع به الأفضل في أمور هذه الدولة.

نعم، فالأفضل صار منذ هزيمته للأمير نزار أقوى الشخصيات السياسية في مصر العبيدية، وقد أقام قوته على ثلاث قواعد: القاعدة الأولى ضعف شخصية المستعلي بالله، الذي اكتفى بالجوانب الشكلية لمنصب الخلافة، تاركًا للأفضل - أخو زوجته - جميع الصلاحيات الموجهة والمنفذة لسياسات الدولة على المستويين الداخلي والخارجي. وتتمثل القاعدة الثانية في آلاف العناصر الأرمنية الذين أصبحوا جزءًا من الحياة السياسية في الدولة العبيدية، وخاصة في الجيش والمناصب ذات العلاقة المباشرة بقصر الخلافة. أما القاعدة الثالثة فهي القوة الاقتصادية، التي استغلها الأفضل الذي أدار مصر وكأنها ملك خاص له، حتى كوَّن لنفسه ثروة طائلة، وكذلك كوَّن الكثير من الأرمن لأنفسهم ثروات مالية كبيرة.

واستنادًا إلى القواعد الثلاث السابقة، سارت أوضاع الدولة العبيدية لصالح الأفضل وتمكين سيطرته عليها.

---

(٨٦) ابن القلانسي، الذيل، ص١٤١؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٣٤-٢٣٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٠٥.

وضمن تطورات الأوضاع في الدولة وقع حادث جدير بالاهتمام أشارت إليه المصادر سريعًا دون نظر أو تناول، يتعلق بظروف موت المستعلي، فابن ميسر يشير إلى ذلك بقوله: "ويقال: إن المستعلي قُتل سرًا، وقيل بأنه سُم فمات"(٨٧)، ومثل هذا نجده عند الذهبي الذي يقول: "ويقال: إنه سُم وقُتل سرًا"(٨٨)، وكذلك لدى المقريزي الذي يقول: "وقيل: إن المستعلي مات مسمومًا، وقيل: بل قُتل سرًا"(٨٩).

مثل هذه الإشارات السريعة والعابرة لا يستطيع الباحث أن يمر عليها دون وقفة متأنية، فلماذا لا تكون هذه الإشارات معبرة عن الحقيقة، ويكون الباعث على التخلص من المستعلي هو ما بدا منه في ممارسة نفوذه وسلطانه، ولم يكن لهذه الرغبة أن تتحقق إلا على حساب الأفضل، أي أنه أصبح بين خيارين؛ إما أن يتخلى عن سلطانه للخليفة الشرعي، وفي هذه الحالة يكون قد هدم كل ما بناه أبوه من قبل، وما قام به هو من أعمال هدفها ترسيخ نفوذ البيت الجمالي في الدولة العبيدية، والخيار الثاني هو التخلص من المستعلي قبل أن يستفحل ضرره ويشتد خطره، وكانت كل الظروف مساعدة للأفضل في تبني الخيار الثاني وتنفيذه، فالكثير من أتباعه من الأرمن وغيرهم كانوا يعملون في مراكز حساسة متصلة بقصر الخلافة، كما أن أخته ست الملك، زوجة المستعلي، قد تسهل لأخيها الأفضل حتى دون أن تدري، مهمة التخلص من الخليفة، وهكذا أعلن في صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة للهجرة (١١٠١م) عن وفاة المستعلي بالله، لتبدأ عند ذلك صفحة جديدة في سيطرة الأفضل على شؤون الدولة العبيدية(٩٠).

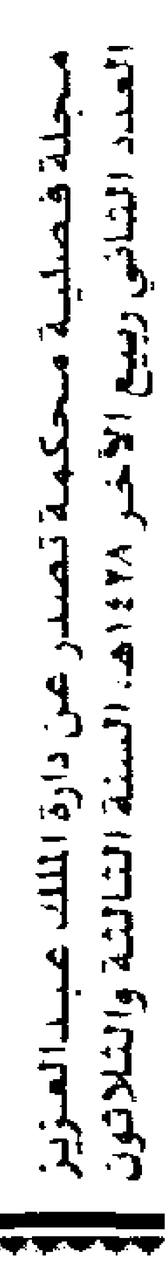
---

(٨٧) المنتقى، ص٧٠.

(٨٨) التهذيب، ج٢، ص٧٦.

(٨٩) اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٨.

(٩٠) ابن الصيرفي، الإشارة، ص١٠٠-١٠١؛ ابن القلانسي، الذيل، ص١٤٨؛ ابن ميسر، المنتقى، ص٧٤-٧٥.



إن ما أوردته المصادر التاريخية بشأن احتمال موت المستعلي عن طريق السم إنما تورده في إطار الشك وعدم اليقين، وإن الشك لا يمكن للباحث أن يقيم عليه استنتاجًا علميًا، ولكن الأمور التي يمكن فيها الوصول إلى اليقين أو إلى درجة معينة منه -وهذا ما لا يمكن توافره في حالة المستعلي، لأنه كان محصورًا في القصر ومعظم العاملين في القصر من رجال ونساء كانوا من أتباع الأفضل- فمن الممكن في هذه الحالة تنفيذ الجريمة في أضيق نطاق، وفي دائرة من السرية المحكمة بحيث لا يتسرب إلى الخارج أي خبر أو إشارة تدل عليها. وبناءً على ذلك فإن للباحث أن يربط بين الأحداث والتطورات، وأن يجعل من هذا الربط تعويضًا عن اليقين المفقود.

على أية حال، غاب المستعلي بالله عن مسرح الحياة السياسية، وحل محله طفل في الخامسة من العمر، هو الآمر بأحكام الله ابن أخت الأفضل، ومعنى هذا أن الباب قد فتح على مصراعيه أمام المزيد من تسلط الأرمن على مقدرات الدولة العبيدية، وهذا ما سجله التاريخ على مدى سنوات عديدة تالية، فالأفضل هو المتحكم الأول في السياسة الداخلية والخارجية، والأفضل هو صاحب الكلمة الحاسمة في شؤون الدولة الاقتصادية، بل إن استبداده وتحكمه تضاعف مع بداية حكم الآمر، وأخذ يوجه سياسة الدولة بما يخدم مصالحه ومخططاته، وإلى جانب الأفضل كان يوجد عدد من أولاده الذين شاركوه في الحكم وتدبير شؤون الدولة، فضلاً عن أعداد كبيرة من العناصر الأرمنية انبثوا في الكثير من المراكز الحساسة في الجيش وفي الإدارة وفي قصر الخلافة[٩١].

النكبة:

بقيت الأمور تسير على ذلك المنوال سنوات وسنوات، واعتقد الأفضل أن الأحداث كلها تسير في المسار الذي رسمه لها، بيد أن

(٩١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٦٠، ٦٢؛ ماجد، الإمام المستنصر، ص١٩٢.

تيارًا آخر أخذ يتشكل، تيار معاد للأفضل ولازدياد نفوذ الأرمن، كان مركز هذا التيار هو قصر الخلافة العبيدية، أما الموجه له فهو الآمر الذي شب عن الطوق وتجاوز العشرين من العمر، ويغلب على الظن أن الآمر قد عرف بطريقة ما أن أباه قد قُتل غيلة، وأنه كان للأفضل دور في التخلص منه، وأن مثل هذا المصير ينتظره هو إذا فكَّر في ممارسة سلطاته وصلاحياته كخليفة، وهنا كان من الضروري بالنسبة للآمر أن يتخلص من الأفضل قبل أن يلجأ الأخير إلى التخلص منه كما تخلص من أبيه من قبل.

شهد اليوم الأخير من رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة للهجرة (١١٢١م) نهاية الأفضل بن بدر الجمالي، وذلك على أيدي أربعة رجال انتهزوا الفرصة، وهاجموه بالسكاكين حتى قضى نحبه(٩٢).

تلقي بعض المصادر مسؤولية اغتيال الأفضل على بعض العناصر النزارية(٩٣)، وتتهم مصادر أخرى الآمر صراحة بالتآمر على قتل الأفضل(٩٤)، وأن تصرف الآمر كان رد فعل لما قام به الأفضل ضده من الحجر عليه، ومنعه من ممارسة شهواته والتمادي في ظلمه وطغيانه، وهذا التبرير ليس سوى انسياق مع الدعاية الأرمنية التي كانت تركز على إبراز الأعمال الطيبة التي تصدر عنهم التي تخدم مصالح المسلمين، وفي الوقت نفسه تحاول أن تضع من شأن الخلفاء العبيديين على أساس كراهيتهم للشعب والعمل ضد مصلحته، بل وضد القيم الإسلامية، وستتضح لنا أبعاد هذه السياسة في مناسبة لاحقة.

---

(٩٢) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٠٣-٢٠٤؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٣٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٠٣.

(٩٣) ابن ميسر، المنتقى، ص٨٠-٨١؛ ابن أيبك، الدرة المضيئة، ص٤٨٦؛ حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص١٧٣، ١٧٥.

(٩٤) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٠٢؛ ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٣٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٠٣.

ومهما يكن من أمر، فقد سجل التاريخ للآمر أنه بعد التخلص من الأفضل قد استعاد قدرًا كبيرًا من سلطاته كخليفة، وقد تمثل ذلك في إخماده وبسرعة للحركة التي كان أبناء الأفضل يهدفون من ورائها إلى أن يفرضوا أخاهم الأكبر وزيرًا، حيث اعتقلهم جميعًا(٩٥)، ثم أوعز بقتلهم، وكانوا نحو مائة من الذكور ما بين صغير وكبير(٩٦).

وأيضًا باشر الآمر أمور الدولة بنفسه سواء في الإشراف على نقل ممتلكات الأفضل إلى قصور الخلافة، أو في تشييع جنازته وتلقي العزاء فيه(٩٧)، وكانت هذه المباشرة استجابة من الآمر لما طلبه القائد المأمون البطائحي الذي بعث إلى الآمر رسالة عاجلة يقول فيها: "أدركني وتسلَّم ملكك؛ لئلا نغلب عليه أنا وأنت"(٩٨).

لقد تحدث كل من ابن ظافر(٩٩) وابن ميسر(١٠٠) وابن خلكان(١٠١) عن أموال الأفضل وتحفه وجواهره بشيء من الإسهاب، ومن مراجعة ما ذكر من أقوال نتبين أن القوة الاقتصادية للأفضل كانت تفوق بكثير قوة الدولة العبيدية، ومن جانب آخر تتضح لنا قيمة الإنجاز الكبير الذي حققه الآمر حينما تخلص من الأفضل وحينما استرد ممتلكاته وممتلكات أسرته.

يعد التخلص من الأفضل ومن عدد كبير من أبناء أسرة بدر الجمالي ضربة قوية وجهت بصفة خاصة إلى التحكم والسيطرة

---

(٩٥) ابن ميسر، المنتقى، ص٨٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٠٣؛ ابن أيبك، الدرة المضيئة، ص٤٨٧؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٦٢.

(٩٦) ابن ميسر، المنتقى، ص٨٠؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٦٢.

(٩٧) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٠٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٠٣؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٣٢.

(٩٨) النويري: شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م): نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٨، تحقيق محمد محمد أمين ومحمد حلمي محمد أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤١٣هـ، ص٢٩٧.

(٩٩) الدول المنقطعة، ج١، ص٢٣٩.

(١٠٠) المنتقى، ص٧٩-٨٠.

(١٠١) وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٥١.

اللذين مارستهما الأسرة في الدولة العبيدية، كما أن هذا التخلص كان ضربة قوية أيضًا تلقاه بصفة عامة النفوذ الأرمني الذي كان ملاحظًا في مختلف مظاهر الحياة السياسية والإدارية والاقتصادية للدولة.

وكان على الآمر، كي يدعم خطوته السابقة، أن يبتعد بمنصب الوزارة عن بيت الجمالي بصفة خاصة، وعن الأرمن بصفة عامة، وفي خطوة أولى تحقيقًا لهذا الهدف أسند الآمر وزارته إلى المأمون البطائحي الذي يقال: إنه كان مشاركًا للآمر في تدبير اغتيال الأفضل(١٠٢)، وهو وإن كان أرمينيًا بالانتماء فإنه لا يمت إلى الأصل الأرمني بأي صلة.

ولكن يبدو أن طول وزارة بدر الجمالي وابنه الأفضل، وما كانا يمارسانه من سلطات مطلقة قد رسخ في أذهان الجميع فكرة استبداد الوزراء بالحكم على حساب نفوذ الخلفاء، غير أن الوصول إلى هذه الغاية مع الخليفة الآمر كانت مهمة عسيرة، ومن ثم فكّر الوزير الجديد في التخلص من الآمر، والإتيان بخليفة مطواع أو سلبي، هو الأمير جعفر(١٠٣) بن المستعلي بالله، ومن حسن حظ الآمر أنه أحيط علمًا بتدبير الوزير في مرحلة مبكرة، فعاجل الوزير وقبض عليه وعلى إخوته الخمسة، وعلى البارزين من أهله وخواصه، وذلك في شهر رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة للهجرة (١١٢٥م)، ثم قتله وصلبه في سنة ثنتين وعشرين وخمسمائة للهجرة (١١٢٨م)(١٠٤).

إن تجربة الآمر مع وزيره المأمون البطائحي حملته على ألا يقيم أحدًا في منصب الوزارة، وفي هذا تحقيق لهدفه من إبعاد منصب

---

(١٠٢) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٠٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٠٣؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٣٢.

(١٠٣) لم أجد له ترجمة فيما رجعت إليه من مصادر.

(١٠٤) ابن القلانسي، الذيل، ص٢١٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣١٩؛ ابن ميسر، المنتقى، ص١١١.

الوزارة عن الأرمن نهائيًا، لذا أدار الدولة العبيدية وباشرها بنفسه حتى اغتياله في أوائل ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة للهجرة (١١٣٠م)(١٠٥).

وهكذا بدأ وكأن الآمر بالله قد حرر الدولة العبيدية بصفة نهائية وحاسمة من تسلط الأرمن ونفوذهم واستبدادهم.

ذروة التحدي:

شهد الشهر قبل الأخير من سنة أربع وعشرين وخمسمائة للهجرة (١١٣٠م) سلسلة من التطورات السريعة والمتلاحقة أسفرت عن وصول التحدي الأرمني للبيت العبيدي إلى الذروة، وتبدأ سلسلة الأحداث باغتيال الآمر في الثامن من ذي القعدة، وقد ترتب على ذلك حالة من الفوضى وعدم الوضوح بالنسبة لمنصب الإمامة، فمن القائل: إن الآمر أنجب قبل وفاته بثمانية شهور ابنًا أسماه أبا القاسم الطيب، وجعله ولي عهده(١٠٦)، وقائل بأنه لم ينجب، وانتقل الأمر بعده إلى ابن عمه الأمير عبدالمجيد الحافظ(١٠٧)، وإلى قائل: إنه لم ينجب، ولكن ترك إحدى نسائه حاملاً، وقد عمد القائلون بهذا الرأي الأخير إلى الأمير عبدالمجيد، وبايعوه كفيلاً أو نائبًا عن المولود المنتظر(١٠٨)، وقد عهد الكفيل بوزارته إلى هزار الملوك.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى شعر عدد من القادة وبالذات الأرمن منهم أن اتجاه الأحداث بهذا الشكل لن يكون في صالحهم، ومن ثم تحركوا ونادوا بأبي علي أحمد بن الأفضل وزيرًا، وقالوا: هو

---

(١٠٥) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣١٩؛ ابن ميسر، المنتقى، ص١١١؛ ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص٢٩٩.

(١٠٦) ابن ميسر، المنتقى، ص١٠٩؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٢٨.

(١٠٧) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٢٨-٢٢٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٣٢؛ ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص٣٠٢.

(١٠٨) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٠؛ ابن أيبك، الدرة المضيئة، ص٥٠٥؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٣٧.

الوزير بن الوزير، واشتد الضغط من قبل هذا الفريق، وحوصر قصر الخلافة، فما كان من الحافظ إلا أن رضخ لمطالبهم، ونزعت خلع الوزارة عن هزار الملوك الذي لم تدم وزارته سوى نصف يوم، ولم تهدأ ثائرتهم إلا بعد أن ألقيت إليهم رأس الوزير المغلوب على أمره(١٠٩).

إن فرض الجند الثائرين لأبي علي بن الأفضل في منصب الوزارة شبيه بما حدث عقب وفاة بدر الجمالي، عندما عيّن المستنصر في منصب الوزارة أميرًا اسمه لاون، ولكن أتباع بدر ثاروا، وأرغموا الخليفة على تعيين الأفضل في المنصب الذي كان يشغله أبوه، وقد مارس الأفضل طوال وزارته التي استغرقت حوالي ثمانية وعشرين عامًا استبدادًا وتحكمًا مطلقًا في الدولة العبيدية، غير أن ما قام به ابنه بعد ذلك على مدى وزارته لا يمكن أن يوصف إلا بأنه ذروة التحدي للأسرة العبيدية.

وتتمثل هذه الذروة في عدة أعمال منها: أنه أحاط بالحافظ وسجنه مقيدًا في قصره، ومنها أنه نقل جميع ما كان في قصور العبيديين من الأموال والذخائر إلى دار الوزارة، وبلغ التحدي ذروته حينما ألغى الكثير من شعائر الخلافة العبيدية(١١٠)، وأخذ يدعو للقائم المنتظر، وضرب الدراهم باسمه، ونقش عليها عبارة "الله الصمد الإمام أحمد"(١١١).

ومعنى هذا أن الأكمل قد أقدم على ما لم يفعله أبوه الأفضل أو جده بدر، إنه أقدم على إسقاط النظام العبيدي، فها هو الحافظ

(١٠٩) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٣٧، ١٣٩.

(١١٠) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤١؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٣٢؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٤٣.

(١١١) ابن ميسر، المنتقى، ص١١٦؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٨، ص٢٩٧؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٤٣-١٤٤.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الثاني ربيع الآخر ١٤٢٨هـ، السنة الثالثة والثلاثون
الدارة

سجين لا حول له ولا طول، وها هي ذي شعائر الدولة أخذت تختفي وتحل محلها شعائر أخرى، وها هي ذي العملة لم تعد تحمل اسم الخليفة العبيدي، كما أن القضاء قد توزع بين أربعة قضاة كل يحكم ويورِّث بمذهبه(١١٢).

وهذا التصرف إنما هو دليل على أن الأكمل قد أكمل ما كان يخطط له أبوه وجده من قبل، كما يدل أيضًا على أن الأكمل، بوصفه أرمني الأصل، قد صار صاحب الدولة العبيدية، وليس لهذا من دلالة سوى أن التحدي الأرمني للعبيديين قد بلغ ذروته ومداه.

عُمِّر هذا التحدي سنة وشهرين وحوالي ثلاثة عشر يومًا، من بداية وزارة الأكمل في السادس من ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة للهجرة (أكتوبر ١١٣٠م)، إلى مقتله يوم السادس عشر من المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة للهجرة (ديسمبر ١١٣١م)، وقد قُتل بأيدي جماعة من أنصار الاتجاه المؤيد للحافظ(١١٣)، ومن ثم أُخرج الأخير من معتقله، وجددت له البيعة من جديد، ولكن في هذه المرة على أنه الخليفة(١١٤).

عيَّن الحافظ في الوزارة السعيد أبا الفتح يانس الأرمني الذي كان الرأس المدبر وراء التخلص من الأكمل بن الأفضل، ولكن لم يكد يمضي وقت طويل حتى تأزمت العلاقة بين الحافظ من ناحية والوزير يانس الأرمني من ناحية ثانية، وأخذ كل منهما يدبر ضد

---

(١١٢) وهذا مما غيَّره الأكمل من الشعائر الدينية والإدارية للدولة العبيدية، وبموجبه أصبح في مصر قاضيان سنيان: أحدهما شافعي، والآخر مالكي، وقاضيان شيعيان: أحدهما إسماعيلي، والآخر إمامي. ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٧-٢٤٨؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٤٥، ١٤٧.

(١١٣) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٣٥؛ ابن ميسر، المنتقى، ص١١٧.

(١١٤) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٢؛ ابن ميسر، المنتقى، ص١١٧؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٨، ص٢٩٨.

الآخر، وكان الخليفة أسبق في تدبيره، وعن طريق السم الذي دس له مع ماء الوضوء تم التخلص من الوزير يانس الأرمني(١١٥).

يورد المقريزي إشارة سريعة يستطيع الباحث أن يستخلص منها السبب الأول في تأزم العلاقات بين الخليفة والوزير، هذه الإشارة هي قوله: "واشتد بأس يانس وعظم شأنه"(١١٦)، وهذا يعني أن الوزير حاول أن يستبد بالأمور دون الخليفة، ويسجل التاريخ على يانس عدة تصرفات تؤكد ميله إلى الاستبداد ومعارضة الخليفة، ومن هذه التصرفات قتله عددًا من رجالات الدولة الخاصين عند الخليفة دون استشارته في شيء من هذا(١١٧).

ظهر هذا من يانس خلال وزارته القصيرة التي عمرت ما يزيد قليلاً على تسعة أشهر، ومعنى هذا أنه لو أُتيحت ليانس فرصة زمنية كتلك التي أُتيحت للأفضل أو حتى نصفها لأعاد سيرة الأفضل في الاستبداد بالدولة، وتسييرها بما يخدم أهدافه وأهداف بني جلدته من الأرمن المستوطنين في الديار المصرية.

على أي حال، فإنه بعد التخلص من يانس الأرمني تحررت الدولة العبيدية، ولعدة سنوات من تسلط الأرمن، ولكنها وقعت ضحية لهذا التسلط من جديد ابتداءً من شهر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة للهجرة (١١٣٥م) حينما أُسندت الوزارة العبيدية إلى بهرام الأرمني(١١٨).

(١١٥) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٣٥؛ ابن أيبك، الدرة المضيئة، ص٥٠٦؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٤٩.

(١١٦) الخطط، ج٢، ص٢٧.

(١١٧) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٣٥؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٤٥.

(١١٨) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٤٧، ص٣٥٦.

الحلقة الأخيرة:

يعد إسناد الوزارة العبيدية إلى بهرام الأرمني الحلقة الأخيرة في سلسلة نفوذ أو تسلط الأرمن على الدولة، كما يعد في الوقت نفسه من أخطر هذه الحلقات وبالذات على النواحي الدينية والاجتماعية والإدارية فيها، ذلك أن من تولوا الوزارة من الأرمن السابقين كانوا مسلمين، حتى وإن اتهم بعضهم بمخالفة العبيديين في المذهب، أما بهرام فقد اجتمع إلى أصله الأرمني ديانته النصرانية[١١٩]، ومن ثم فإن إسناد الوزارة إليه لم يكن يحمل سلبية واحدة بل سلبيتين، والسلبية الدينية أخطر بكثير من سلبية الانتماء إلى الأصل الأرمني.

يعد إسناد الوزارة العبيدية إلى بهرام الأرمني الحلقة الأخيرة في سلسلة نفوذ أو تسلط الأرمن على الدولة

ونرجع إلى التاريخ فنجد أن الدولة العبيدية قد تعرضت لأزمة خطيرة في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة للهجرة (١١٣٣-١١٣٤م)، والسنة التالية نتيجة للانقسام الذي حدث بين الخليفة الحافظ من ناحية وابنه حسن من ناحية ثانية وما ترتب عليه من تأجج نيران الحرب الأهلية[١٢٠]، وفي خضم هذه الحرب لجأ الخليفة إلى الاستعانة بوالي الغربية[١٢١] بهرام الأرمني الذي وجد في هذه الاستعانة فرصته السياسية الكبرى، فقاد أتباعه من العربان[١٢٢] والأرمن، وزحف بهم على القاهرة، وبعد حصار قصير دخل العاصمة المصرية[١٢٣].

---

(١١٩) ابن ميسر، المنتقى، ص١٣١، ١٣٣؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٨، ص٣٠٥-٣٠٦؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٥٦.

(١٢٠) فضلاً انظر الحاشية رقم (٣٠).

(١٢١) ولاية الغربية: تكونت في العصر العبيدي باسم كورة الغربية، وأطلق عليها ذلك لوقوعها غربي النيل، واسعة الأرجاء كثيرة النواحي، كانت قاعدتها المحلة الكبرى، ثم أصبحت طنطا في وقت متأخر، ومن مدنها كفر الزيات (جريسان)، والنحارية (التحريرية). ياقوت، المعجم، ج٤، ص٤٣؛ سعاد ماهر، محافظات الجمهورية العربية المتحدة في العصر الإسلامي، ص١١٤، ١١٧.

(١٢٢) فضلاً انظر الحاشية رقم (٥٠).

(١٢٣) ابن ميسر، المنتقى، ص١٢١، ١٢٣؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٥٥-١٥٦.

في اليوم الرابع من دخوله القاهرة، وهو اليوم الرابع عشرة من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة للهجرة (١١٣٥م) خلع الخليفة الحافظ على بهرام خلع الوزارة ونعت برغم كونه نصرانيًا "بسيف الإسلام تاج الملوك" أو تاج الخلافة(١٢٤)، وقد أسند الحافظ وزارته إلى بهرام الأرمني النصراني على الرغم من النصائح أو التحذيرات التي استهدفت صرف الخليفة عن التمسك بهذا الأرمني النصراني وزيرًا(١٢٥).

وعلى مدى الفترة التي تولى فيها بهرام الوزارة العبيدية فتحت أبواب مصر على مصراعيها للأرمن الوافدين من كل مكان، "وأقبل الأرمن يردون إلى القاهرة ومصر من كل جهة حتى صار منهم عالم عظيم"(١٢٦)، وتتابع وصول الأرمن إلى مصر من بلاد الشام ومن بلاد الأرمن وغيرها خلال سنة ثلاثين وخمسمائة للهجرة (١١٣٥-١١٣٦م)، والسنة التالية، وكان من بين القادمين إخوة بهرام وأقاربه، وقد وضع بهرام أقاربه وأتباعه في المناصب المهمة، وها هو ذا الباساك، أخو بهرام، قد أُسندت إليه ولاية قوص(١٢٧)، التي كانت تعني زمن العبيدين حكم جميع بلاد الصعيد(١٢٨)، ومعنى هذا أن

---

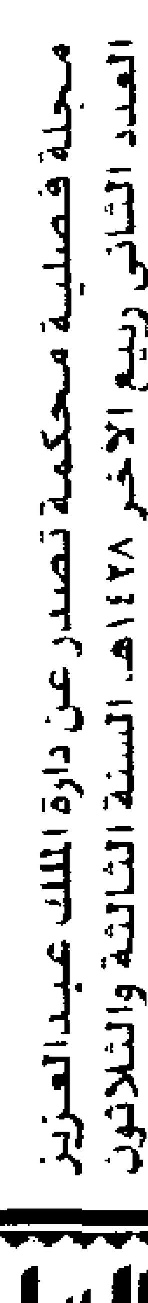
(١٢٤) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٤٦-٣٤٧؛ ابن ميسر، المنتقى، ص١٢٢؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٥٦.

(١٢٥) ابن ميسر، المنتقى، ص١٢٣.

(١٢٦) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٥٦.

(١٢٧) شمال أسوان على الشاطئ الشرقي لنهر النيل، تبعد عن القاهرة جنوبًا بنحو (٣٥٠) ميلاً، من أهم مدن صعيد مصر وأكبرها ومن أهم مراكز التجارة الداخلية في مصر، مدينة واسعة الأرجاء ذات أسواق وزراعات وافرة، كانت زمن العبيديين كورة يتبعها كثير من المدن والنواحي. ياقوت، المعجم، ج٤، ص٤١٣؛ محمد عبده الحجاجي، قوص في التاريخ الإسلامي، القاهرة، ١٩٨٣م، ص١٣٦، ١٣٨؛ سعاد ماهر، محافظات الجمهورية، ص٨٦-٨٧.

(١٢٨) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٦٢؛ ابن ميسر، المنتقى، ص١٢٤؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٥٦، ١٥٨.



القسم الأكبر من الديار المصرية ممثلاً في العاصمة وفي الصعيد، قد صار تحت الحكم المباشر للأرمن النصارى، ويذكر عن هؤلاء الأرمن أنهم أساءوا معاملة المسلمين، كما أنهم أكثروا من بناء الكنائس(١٢٩)، وكانوا سبباً في قيام حرب على أرض مصر بينهم وبين المسلمين.

أثارت تصرفات بهرام وأخيه الباساك والأرمن بصوره عامة ثائرة المسلمين، فبعثوا إلى رضوان بن ولخشي(١٣٠) والي الغربية، يحثونه على سرعة المجيء إلى العاصمة العبيدية وإنقاذهم من تعسف واستبداد الأرمن، وعلى رأسهم الوزير بهرام(١٣١).

حشد رضوان رجاله وزحف بهم على القاهرة، حيث تصدى له بهرام، ولكن الهزيمة سرعان ما لحقت بالأخير، وذلك في الحادي عشر من جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة للهجرة (١١٣٧م)، وكان العامل الحاسم في هذه النتيجة السريعة انحياز من كان في جند بهرام من المسلمين إلى جانب إخوانهم في الدين الذين يعملون تحت قيادة رضوان(١٣٢).

وصل خبر هزيمة بهرام إلى قوص، فتشجع المسلمون بها وهاجموا الباساك، أخا بهرام وقتلوه، وبعد يومين من مقتل الباساك قدم بهرام

(١٢٩) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٤٦-٣٤٧؛ ابن ميسر، المنتقى، ص١٢٤.

(١٣٠) الملك الأفضل رضوان بن ولخشي أول من تلقب من الوزراء بلقب الملك، استوزره الحافظ يوم الأربعاء الحادي عشر من جمادي الأولى سنة ٥٣١هـ، فأقام مدة سنتين وأشهر، فعمل الحافظ على قتله، وبعد جولات من النزاع أمنّه الحافظ، ثم عهد إلى جمع من السودان بالهجوم عليه وقتله، وتم لهم ذلك أواخر ذي القعدة سنة ٥٤٢هـ. كان سنيًا حسن الاعتقاد شجاعًا شديد البأس رابط الجأش. ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٥٦-٣٥٧؛ ابن ميسر، المنتقى، ص١٣١، ١٣٧.

(١٣١) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ص٢٤٥-٢٤٦؛ ابن ميسر، المنتقى، ص١٢٤؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٨، ص٣٠٤.

(١٣٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٦٠.

في نحو ألفين من الأرمن، فقتل جماعة من قوص ونهبها انتقامًا لمقتل أخيه، وفرَّ هاربًا منها إلى أسوان، حيث قبض عليه بعد أيام، وأُحضر إلى القاهرة بين يدي الخليفة الفاطمي[١٣٣].

وهكذا سقطت وزارة بهرام بعد سنة واحدة وعشرة أيام، وصل في أثنائها تحكم الأرمن النصارى وقهرهم للمسلمين إلى مستوى لم يسبق أن عاشوه منذ الفتح الإسلامي لمصر.

سقط بهرام الأرمني كوزير ولكن الخليفة الحافظ احتفظ به مستشارًا خاصًا له، وأفرد له مكانًا بالقصر، وكان الحافظ يشاوره في أموره، وبقي بهرام على وضعه هذا منذ أحضر من أسوان إلى القاهرة في رمضان سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة للهجرة (أبريل ١١٣٩م) وحتى وفاته في ربيع الآخر سنة خمس وثلاثين وخمسمائة للهجرة (ديسمبر ١١٤٠م)، وقد سجل التاريخ للخليفة الحافظ أنه حزن على بهرام حزنًا شديدًا، وأمر بغلق الدواوين، وأن لا تفتح ثلاثة أيام، وتصور المصادر التاريخية تشييع جنازة بهرام في حشد هائل من المشيعين يتقدمهم الخليفة الحافظ الذي خرج راكبًا بغلته خلف التابوت، "والأقساء (القساوسة) يعلنون بقراءة الإنجيل، والحافظ على حالته إلى دير الخندق بظاهر القاهرة، فنزل الحافظ عن بغلته، وجلس على شفير القبر، وبكى بكاءً شديدًا"[١٣٤].

وحتى مع هذا التكريم الذي حظي به بهرام في تشييع جنازته، فإن موته كان الصفحة الأخيرة في الفترة الأرمنية، وهي الفترة التي بدأت مع بداية بدر الجمالي في منتصف سنة ست وستين وأربعمائة للهجرة (فبراير ١٠٧٤م).

(١٣٣) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٥؛ ابن أيبك، الدرة المضيئة، ص٥١٨.

(١٣٤) ابن ميسر، المنتقى، ص١٢٣؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٧٥.

خصائص وسمات:

وأخيرًا يمكن للباحث أن يستخلص السمات التالية كملامح خاصة بحقبة نفوذ العناصر الأرمنية في تاريخ الدولة العبيدية.

أولى هذه السمات هي: أن كل الوزراء الأرمن سواء كانوا أرمنًا بالجنس أم أرمنًا بالولاء، كل هؤلاء الوزراء قد ساروا في علاقاتهم مع الخلفاء العبيديين على أساس سلب السلطة منهم، والتحكم في دولتهم إلى أبعد حدود التحكم، حتى وإن بدت الأساليب والوسائل متباينة في بعض الأحيان، وقد تمثلت ذروة هذه السمة في السياسة التي حكمت علاقات كل من الأفضل بن بدر الجمالي وابنه الأكمل بالخلفاء العبيديين.

ثانية هذه السمات هي: إثارة الفرقة والصراع بين أبناء الأسرة العبيدية، ومثل هذه السياسة تساعد الوزراء الأرمن على تحقيق أهدافهم التي تتلخص في السيطرة على مقاليد الأمور في الدولة، ويكفي أن نعرف أن معظم الانقسامات وأخطرها عاشتها الأسرة العبيدية والدعوة الإسماعيلية في عهود الوزراء الأرمن.

أما ثالثة هذه السمات فهي: محاولة التقرب إلى العامة؛ وذلك كي يجدوا منهم عونًا في المواقف التي تحتاج إلى عونهم ومؤازرتهم، وها هو ذا بدر الجمالي يعفي المزارعين من دفع الخراج مدة ثلاثة أعوام، وكانت النتيجة أن تحسنت أحوال الفلاحين، وصلحت معايش الناس، وكثرت النعم في أيديهم، ونشطت التجارة، وزاد تردد التجار على مصر وأسواقها، ويصف المقريزي ذلك بقوله: "أطلق الخراج للمزارعين، ولم يأخذ منهم شيئًا ثلاث سنين، حتى صلحت أحوال الفلاحين، واستغنى أهل مصر في أيامه، ودرَّت عليهم أخلاف النعم بعد توالي الشدائد الكبيرة، ومقاساة الألم، وكثر ترداد التجار في أيامه إلى مصر بعد نزوحهم عنها"(١٣٥).

---

(١٣٥) اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٣٠.

ويقول ابن ميسر عن الأفضل وسياسته في هذا الشأن: "وكان من العدل وحسن السيرة في الرعية والتجار على صفة جميلة، تجاوز ما سمع به قديمًا وشوهد أخيرًا، ولم يعرف أحد صودر في زمانه ولا قسط عليه"(١٣٦).

هذا ما نجده في المصادر التاريخية عن بدر الجمالي وابنه الأفضل، وجلي أنها تميل إلى إطراء جهود الرجلين لما قدماه للمصريين، ولما جرى على أيديهما من خير عميم، وواضح أيضًا أن هذه المصادر تريد أن تقول، أو أنها قالت صراحة: إن هذه السياسة تجاه العامة لم تتوافر لدى الخلفاء العبيديين، ولم تنل منهم الاهتمام والحرص على مصالح العامة.

وكما أثنت المصادر على بدر وابنه الأفضل، فإنها أثنت أيضًا على الحفيد أبي علي الأكمل على الرغم من أن الفترة التي أمضاها في وزارته كانت قصيرة، لكنها كانت متخمة بالصراع بينه وبين الحافظ، فعنه يقول ابن ميسر: "ولما ولي جرى على منهاج أبيه في حب العدل، وأعاد على الناس ما أخذ من أموالهم وأملاكهم"(١٣٧) وما أشار إليه ابن ميسر نجد له نظيرًا لدى ابن ظافر(١٣٨) والمقريزي(١٣٩).

رابعة هذه السمات هي: العمل على تنمية الموارد المالية للدولة العبيدية، وقد نجح بدر في ذلك، كما نجح ابنه الأفضل أيضًا، بل يمكن أن يقال عنه: إنه فاق أباه في هذه الناحية.

ويتفرع عن هذه السمة سمة أخرى هي: أن قيام الوزراء الأرمن بتنمية موارد الدولة لم يكن عملاً خالصًا من أجل الدولة، بل من المرجح أنهم استهدفوا من وراء ذلك تحقيق مصالحهم الشخصية في

---

(١٣٦) المنتقى، ص٨٣.

(١٣٧) المنتقى، ص١١٧.

(١٣٨) الدول المنقطعة، ج١، ص٢٤٠-٢٤١.

(١٣٩) اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٤٠.

الإثراء وتكوين الثروات الطائلة، ونظرة سريعة على الأنواع والأرقام التي تمت مصادرتها عقب اغتيال الأفضل تؤكد لنا هذا الترجيح(١٤٠).

سادسة هذه السمات هي: أن سياسة التحكم والتسلط التي مارسها الوزراء الأرمن قد أحدثت ردود فعل لدى الخلفاء العبيديين، والتي تمثلت في ضربات وجهوها ضد الوزراء الأرمن، وكانت تلك الضربات الجانب المنظور لمؤامرات مدروسة بإحكام هدفها التخلص من هذا الوزير أو ذاك.

السمة السابعة هي: ما ترتب على إدراك الخلفاء للخطر الكبير الذي كان يمثله الوزراء الأرمن على كيان الدولة العبيدية، فقد ترتب على هذا الإدراك إلغاء منصب الوزارة أكثر من مرة، حدث هذا عقب التخلص من الأفضل بن بدر الجمالي، كما حدث أيضًا إبان خلافة الحافظ لدين الله.

السمة الثامنة هي: أن الأوضاع الداخلية للدولة شغلتها كلية عن اهتماماتها الخارجية خصوصًا في المحافظة على مصالحها ومناطق نفوذها في أقاليم مختلفة في بلاد المغرب وبلاد الشام والحجاز واليمن، وما يقال عن تحالفات أو اتفاقيات عقدها الوزراء الأرمن مع طلائع القوى الصليبية الغازية لبلاد الشام كانت: نتيجتها اقتطاع مناطق إسلامية مهمة، وأشدها حساسية وأهمية تلك التي تقع ضمن مناطق نفوذ الدولة العبيدية.

السمة التاسعة والأخيرة: تمثلت في حقيقة أن سياسة التحكم التي مارسها الوزراء الأرمن كانت من القوة بحيث لم تتحرر منها الدولة العبيدية حتى بعد التخلص من الأرمن، وقد استمرت هذه

---

(١٤٠) ابن ظافر، الدول المنقطعة، ج١، ص٢٣٩؛ ابن ميسر، المنتقى، ص٧٩-٨٠؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٥١.

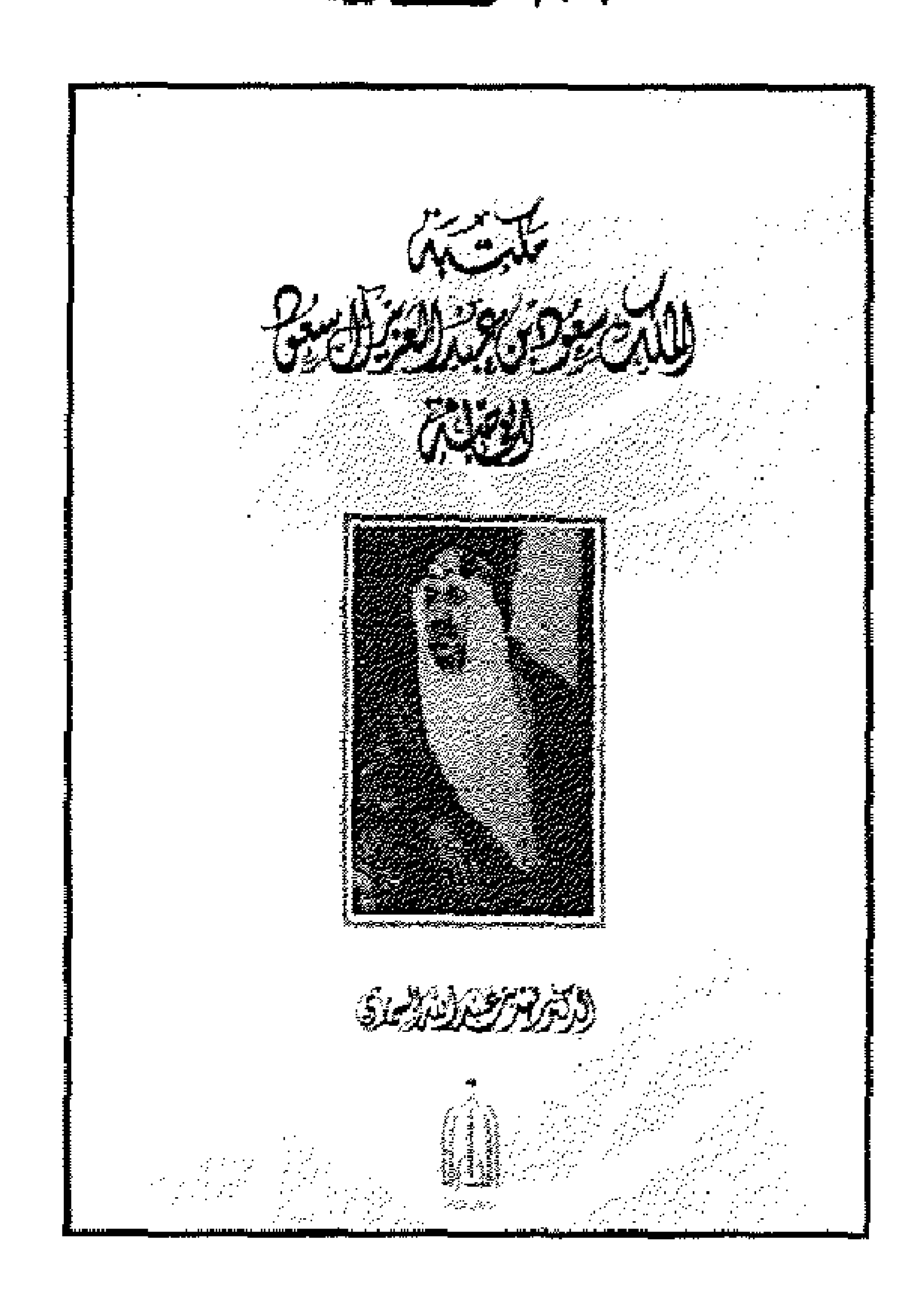
السياسة ملازمة للدولة حتى أيامها الأخيرة، بل إنها كانت أحد العوامل الأساسية التي أدت إلى سقوطها في أوائل سنة سبع وستين وخمسمائة للهجرة (١١٧١م).

هذه هي الأبعاد الأساسية لتاريخ الدولة العبيدية خلال حقبة النفوذ الأرمني، وهي فترة ليست بالقصيرة، إنها تقترب من خمسة وستين عامًا، أي حوالي ربع عمر الدولة العبيدية، ولا تقف أهمية الفترة الأرمنية عند عمرها الزمني بل إنها تتجاوز ذلك إلى طبيعة وأهمية الكثير من الأحداث والتطورات التي وقعت فيها.

مكتبة
الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود
الخاصة

إعداد
د. فهد بن عبدالله السماري

١٧٦ صفحة



يعرض هذا الكتاب عناية الملك سعود بن عبدالعزيز - رحمه الله - بالكتاب واهتمامه به من خلال العناية بطباعته ودعم النشر العلمي والثقافي في عهده وطباعة بعض الكتب على نفقته الخاصة، ورعاية العلماء والأدباء والمثقفين، وانعكاسًا لذلك الاهتمام حظي الملك سعود باهتمام العلماء والمثقفين الذين حرصوا على إهدائه العديد من مؤلفاتهم التي تنوعت في اختصاصاتها واتجاهاتها التي وجدت مكانها في مكتبته الخاصة رحمه الله.

ويهدف هذا الإصدار إلى توثيق نماذج من جهود الملك سعود في مجالات العلم والثقافة والنشر تزامنًا مع عقد الدارة للندوة العلمية الخاصة بتاريخ الملك سعود بن عبدالعزيز، ولعل القارئ والباحث يجدان فيه ما يرشدهما إلى مزيد من الدراسة عن تاريخه - رحمه الله - الذي يحتاج فعلاً إلى جهود كبيرة لسبر غوره، ورصد جوانبه المتنوعة.

إصدارات دارة الملك عبدالعزيز

الدارة

ص.ب ٢٩٤٥ - الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩/٤٠١٢١٦٤ - فاكس ٤٠١٣٥٩٧
بريد الكتروني info@darah.org.sa

رسالة من سلطان المغرب إسماعيل بن الشريف بن علي الحسني إلى الشريف سعد بن زيد سلطان الحرمين الشريفين (١١٠٥هـ/١٦٩٣م)[١]

أ. د. محمد أمين
كلية الآداب - قسم التاريخ - جامعة الملك سعود

تعد العلاقات بين المغرب الأقصى والحجاز من الأمور الثابتة والمتميزة بمتانتها واستمراريتها، منذ أن أشرق نور الإسلام وانتشر ظله في بلاد المغرب. ولا أدل على تلك المتانة والاستمرارية في العلاقات من التواصل ومتابعة أخبار ما كان يجري ويستجد من أحداث عبر الحجاج، إما مشافهة أو كتابة، كما تدل على ذلك كتب رحلات الحج التي تعد بحق سجلا للكشف عن جوانب من تاريخ الحجاز وبخاصة الحرمان الشريفان. وقد كان موسم أداء شعيرة الحج إلى جانب ذلك مناسبة لتبادل بعض الرسائل والهدايا بين حكام المغرب الأقصى وحكام الحرمين. وتعد تلك المراسلات إلى جانب كتب الرحلات مصادر مكملة، بل وأساسية، لا يمكن الاستغناء عنها لمن يرغب في كتابة صفحات من تاريخ العلاقات المغربية الحجازية. فإلى

(١) قدم هذا البحث ضمن فعاليات اللقاء العلمي الثامن للجمعية التاريخية السعودية بمكة المكرمة بمناسبة اختيارها عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ١٤٢٦هـ، وذلك في الفترة ما بين ٩-١١ ربيع الثاني ١٤٢٦هـ/١٧-١٩ مايو ٢٠٠٥م.

أي حد تعكس رسالة سلطان المغرب - وهي في ثلاث عشرة صفحة من الحجم المتوسط - متانة تلك الروابط؟ ثم ما عساها تكشف من أحداث عرفتها بلاد الحرمين الشريفين وبلغ صداها إلى بلاد المغرب الأقصى؟ وهل تقتصر أهميتها فقط في إثبات ما كان يجري من أحداث، بصفتها مصدرًا مستقلاً، أم تتجاوز ذلك إلى إبراز مدى التفاعل والاهتمام بما كان يجري؟

للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها والكشف عن خبايا هذه الوثيقة المهمة سنتبع الخطوات الآتية:

١ - تعريف بالرسالة وبصاحبها.

٢ - الظرفية التاريخية المحيطة بكتابة الرسالة.

٣ - مضمون الرسالة.

٤ - التعليق والاستنتاجات.

١ - التعريف بالرسالة وبصاحبها:

تتكون هذه الرسالة - وهي مخطوطة لم تسبق دراستها أو نشرها - من سبع ورقات في كل ورقة صفحتان من الحجم المتوسط، وقد بعث بها سلطان المغرب إسماعيل بن الشريف بن علي الحسني إلى الشريف سعد بن زيد أمير الحرمين الشريفين: مكة المكرمة والمدينة المنورة. وبالرسالة بتر شمل كلا من الصفحة الثانية والصفحة الأخيرة، وهي محفوظة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم د ١١٣٩، ومكتوبة بخط مغربي واضح وأنيق، في حين ليست بها أية إشارة إلى تاريخ كتابتها. وقد أشار مؤرخ الدولة العلوية مولاي عبدالرحمن بن زيدان في مؤلفه "المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف" إلى وقوفه على كتاب من هذا السلطان لأمير مكة الشريف سعد بن زيد بن محسن الذي تولى الإمارة بعد أبيه

سنة ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦م[٢]، غير أنه لم يورد نص الرسالة ولا أشار إلى تاريخ كتابتها. لكن المقارنة بين مضمون الرسالة والتطورات التي مرت بها بلاد الحرمين يجعلنا نعتقد بأنها كتبت وأرسلت بعد وصول الخبر بتولي الشريف سعد بن زيد للمرة الثانية الحكم بمكة سنة ١١٠٥هـ/١٦٩٣م، وذلك بعد غياب بإسطنبول دام ٢١ سنة. والسؤال الملح هو: ما سبب هذه الغيبة الطويلة ؟ وما السر في كتابة سلطان المغرب إليه بهذه المناسبة ؟ لكن قبل الجواب الذي سنعرضه حين تناولنا في النقطة الموالية للظرفية التاريخية المحيطة بكتابة هذه الوثيقة وكشف القضايا المطروقة فيها لابد من التعريف بصاحبها، فمن هو السلطان إسماعيل بن الشريف بن علي الحسني؟

صاحب هذه الرسالة هو ثالث سلاطين الدولة العلوية إسماعيل بن الشريف بن علي، وقد اقتصر في ديباجة الرسالة على ذكر نسبته إلى الأجداد للتذكير بالنسب الشريف الذي يتصل بالحسن بن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - فقال: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد. من عبدالله المتوكل على الله الغني به عمن سواه المفوض جميع أموره إليه المعتمد في ساير أحواله عليه إسماعيل بن علي بن الشريف الحسني"[٣]، وقد تولى حكم المغرب في

---

(٢) عبدالرحمن بن زيدان، المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف، تقديم وتحقيق عبدالهادي التازي، مطبعة إديال، الدار البيضاء، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣، ص ٢٠٨.

(٣) المخطوطة، ص ١. وقد أورد عبدالرحمن بن زيدان مؤرخ الدولة العلوية (المنزع اللطيف... مصدر سابق، ص ٣٠-٣١) شجرة النسب الشريف للسلطان إسماعيل فقال: "فوالده سيدنا الشريف بن سيدنا علي بن محمد بن علي بن يوسف بن علي الشريف بن الحسن بن محمد بن حسن بن قاسم بن محمد بن الحسن بن عبدالله بن أبي محمد بن عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن حسن بن أحمد بن إسماعيل بن قاسم بن محمد الإمام المهدي ذي النفس الزكية بن عبدالله الكامل بن حسن بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب ومولاتنا فاطمة الزهراء البتول بنت مولانا رسول الله ﷺ". وإذا كان هذا هو النسب الصحيح للسلطان إسماعيل، فإن ما ورد في نص الوثيقة أي ذكر: "إسماعيل بن علي بن الشريف" إن لم يكن خلطا أو خطأ من الناسخ، فهو إشارة إلى جد أعلى للأشراف العلويين بالمغرب كما هو واضح في شجرة النسب.

الفترة الممتدة بين سنتي ١٠٨٢هـ/١٦٧٢م-١١٣٩هـ/١٧٢٧م. وإليه يعود الفضل في تثبيت ركائز الدولة العلوية إذ أتم توحيد البلاد، وتنظيم الدولة، ونشر الأمن، كما ربطته ببعض البلاد المسيحية والإسلامية علائق دبلوماسية عكستها مراسلاته المتبادلة بينه وبينها. وقد استقطبت الدولة العثمانية والبلاد التابعة لها في المغرب والمشرق جانبا من اهتماماته، فتميزت علاقاته بالباب العالي بالاحترام والثقة المتبادلة، في حين غلب عليها الحذر فيما يخص ولاية الجزائر التي كانت تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي عن العثمانيين مع استمرار ولائها لهم، كما ربطته صلات مودة مع ولاة تونس من الأسرة الحسينية التي كانت تتمتع بالوضع نفسه، وأيضا مع أشراف الحجاز الذين ظلوا يحكمون بلاد الحرمين نيابة عن السلطان العثماني. وبالجملة فإن السلطان إسماعيل ظل طوال مدة حكمه الطويلة منفتحا على العالم الخارجي ومطلعا على ما كان يجري فيه، وهو ما عكسته رسالته الحالية الموجهة إلى الشريف سعد بن زيد أمير الحجاز باسم العثمانيين.

٢ - الظرفية التاريخية المحيطة بكتابة الرسالة:

لا يمكن إدراك مضمون هذه الرسالة وأبعادها والخروج باستنتاجات منها دون محاولة التعرف على الظروف التي جاءت في سياقها، وهي في اعتقادنا تنقسم إلى ظروف عامة وأخرى خاصة، ولعل هذا ما يدعو لطرح السؤالين الآتيين: كيف كانت أوضاع الحجاز قبيل كتابة هذه الرسالة وبعدها؟ وما موقع الشريف سعد بن زيد مما عرفته بلاد الحرمين من أحداث خلال هذه المدة؟

للإجابة عن هذين السؤالين لابد من إشارات تتعلق أولا بوضع بلاد الحجاز كولاية من ولايات الدولة العثمانية بحيث نقف عند طبيعة علاقتها بمركز الدولة وطبيعة إدارتها وانعكاسات ذلك على أوضاعها؛ وثانيا بالأدوار التي اضطلع بها الأشراف في تلك البلاد

بين ولائهم للعثمانيين وطموحات بعضهم في الاستقلال، ثم موقع ذوي زيد من ذلك.

- **أولا: الظروف العامة.** المتعارف عليه هو أن الدولة العثمانية بعد مدها لنفوذها إلى بلاد الشام ومصر بالقوة ونجاحها في طي صفحة المماليك الشراكسة سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، كانت الطريق مفتوحة أمامها لتسيير جيشها إلى بلاد الحرمين، وبسط نفوذها بالقوة لولا مسارعة الشريف بركات إلى إعلان الولاء ومبايعة السلطان العثماني سليم الأول (٩١٨-٩٢٧هـ/ ١٥١٢-١٥٢٠م)؛ ليضمن بذلك استمرار بقاء الأشراف على رأس الإدارة بالحجاز. ويذهب المستشرق الهولندي سنوك هورخرونيه إلى أن الأوضاع بالحجاز عرفت هدوءا غير مسبوق نتج عن تراجع حدة المنازعات بين الأشراف أنفسهم. وعزا هذا الاستقرار إلى الهيبة التي ارتبطت بصدى نجاحات الجيش العثماني في كل الجبهات، أكثر مما ارتبط حسب رأيه بأي أمر آخر. وقد استمر الوضع على هذا الحال لما يزيد على قرن من الزمان نجح خلاله أبناء الشريف في إبعاد أية سيطرة عسكرية عثمانية عن مكة، معقل حكمهم، كل ذلك في ظل توافق بين الطرفين، إذ "سمح العثمانيون لأبي نمي (ابن الشريف بركات وخليفته ابتداء من سنة ٩٣١هـ/ ١٥٢٥م)، ومن بعده ابنه حسن أن يكونا واليين تابعين للسلطان، ضمن الحدود المرسومة، وعليهما أن يثبتا جدارتهما في السيادة والسلطة"[٤].

لكن هذه الحالة من الهدوء والاستقرار ببلاد الحرمين وكذا في العلاقات بين الأشراف والعثمانيين أو لنقل بينهم وبين باشا الأتراك بجدة لم تدم طويلا، فسرعان ما دخلت في التأثير عليها عوامل أحالتها إلى اضطراب وتقلبات شبه دائمة. وقد كان للطموحات

(٤) سنوك هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، نقله إلى العربية علي عودة الشيوخ، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، الجزء الأول، ص ٢٠٧-٢٠٨.

الشخصية في السلطة بين عائلات الأشراف الكبرى وللعوامل المادية دورها في التأثير السلبي على الأوضاع بمكة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، وهو ما بلغ صداه الآفاق بفضل حجاج البيت الحرام الذين عايشوا كثيرا من تلك الأحداث، وأصابهم من أذاها الشيء الكثير. ولنا أن نتصور كيف أن اضطراب الأوضاع بسبب ذلك، أدى كثيرًا إلى انعدام الأمن داخل مكة وفي المشاعر الأخرى وفي الطرق من بلاد الحرمين الشريفين وإليها، وهي أمور تواترت الأخبار بذكرها والتشنيع بها وجاء صداها واضحا كذلك في رسالة سلطان المغرب.

- **ثانيا: الظروف الخاصة.** وهي مجمل التطورات التي عرفها الحجاز بعد وفاة الشريف زيد الذي استمر في إمارته خمسا وثلاثين سنة وشهرا وبضعة أيام بدون انقطاع تقريبا (١٠٤٠-١٠٧٧هـ/ ١٦٣١-١٦٦٦م)، تجاوز خلالها بحنكته كل ألوان المناورة والدس سواء من العثمانيين أو من بني عمومته من الأشراف للمساس بسلطته. ومما يؤثر في مرحلة ولايته دعم موارده المالية حين استطاع إقناع العثمانيين بحقوق الإمارة في مكة في واردات جدة الجمركية التي كانت قد ألحقت بالخزانة العثمانية، وأيضا تحببه إلى رعيته بتقريب العلماء ومجالستهم ونشر العدل. لكن هذه الحالة من الاستقرار سرعان ما انقلبت بعد وفاته إلى وضع مضطرب تضافرت في تشكيله عوامل من خارج الحجاز وأخرى من داخله. فالشريف زيد عرف عنه - خلال فترة إمارته الطويلة - كرهه للأتراك، وعدم رضاه بالخضوع لحاكم جدة، فوجد العثمانيون فرصة غيابه مناسبة سانحة للتدخل بشكل أقوى في شؤون الحرمين، كما أن الأشراف المنافسين لذوي زيد - وهم أبناء عمومتهم من العبادلة وآل بركات - كانوا من جانبهم لا ينظرون بعين الرضا لاستئثار أبناء عمومتهم بالولاية لفترة طويلة وتوارثها فيما بينهم، فكانت فرصة غياب الشريف زيد مناسبة للمطالبة بحقهم في تولي الإمارة، وأنها ليست حكرا على ذوي زيد.

ولعل الظروف العسيرة التي ارتقى الشريف سعد فيها كرسي الإمارة بمكة، والتقلبات التي شهدتها فترة حكمه، التي غلب عليها عدم الاستقرار، دليل على حدة تلك المنافسة بين الأشراف من جهة وبينهم وبين والي العثمانيين على جدة من جهة ثانية. وكان ذلك الوالي هو عين الباب العالي ويده الأقرب الذي له دوره في التأثير على مجريات الأحداث ومراقبتها. فالشريف سعد - وعلى عكس ولاية أبيه الطويلة - عرفت فترة ولايته تحديات كان لها بالغ الأثر فيما تميزت به من اضطراب، حيث اعتلى كرسي الإمارة لأربع فترات متقطعة هي كالآتي:

- **الولاية الأولى للشريف سعد بن زيد:** امتدت من سنة ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦م إلى سنة ١٠٨٣هـ/ ١٦٧٢م، وخلالها لم ينعم بالراحة، حيث واجهته صعوبات تمثلت في خروج أحد أبناء عمومته وهو الشريف حمود بن عبدالله عن طاعته، وانضمام أخيه الشريف محمد بن زيد إلى صفوفه بينبع، كما دخل في خصومة مع والي جدة من قبل العثمانيين لعدم توصله بحصته من الرسوم الجمركية المترتبة على البضائع المستوردة. لكنه نجح في تجاوز هذه المصاعب حين تمكن من استدراج المعارضين له من الأشراف بعد أن استجاب لمطالبهم المادية وضمهم إلى صفوفه لمواجهة والي جدة الذي مني بهزيمة أمامهم، وانتهى الأمر بإقالته. ويبدو أن الشريف سعد أدرك بعد هذه الحادثة خطورة الوضع، خاصة بعد أن أرسل الباب العالي قوة عسكرية بهدف القبض عليه، وهو ما جعله يغادر مكة مع أخيه الشريف أحمد، وبذلك طويت فترة ولاية آل زيد؛ ليحل محلهم الأشراف من آل بركات. وقد عانت مكة وسكانها خلال تلك المرحلة المضطربة من حكم الشريف سعد أشد المعاناة نتيجة انعدام الاستقرار وانعكاس ذلك على أمن الطرق وتحرك القوافل، وهو ما حصل معه غلاء في المعيشة. فيذكر السنجاري، وهو ممن عاصر هذه المرحلة، غلاء الحاجيات بمكة سنة ١٠٧٨هـ، حيث "وصل إردب الحب إلى نحو

خمسين دينارا، بل لم يوجد، حتى أكل الفقراء الرمم، والموتى، والدم"[٥]، وقد أدى أحد كبار المشايخ وهو العلامة محمد بن سليمان المغربي - وكان قد جاور بمكة لفترة ثم انتقل إلى إستانبول - دور مبعوث الباب العالي أو كما سماه سنوك هورخرونيه "المندوب السامي غير العادي"[٦]، بدعم من الصدر الأعظم أحمد باشا فاضل كوبريلي زاده، من أجل إعادة الأمور إلى نصابها بعد مغادرة ذوي زيد. واستمر تأثيره لمدة ثلاث سنوات من ١٠٨٣هـ/١٦٧٢ إلى ١٠٨٦هـ/١٦٧٥م قام خلالها بإصلاحات دينية ومادية، فقد حارب بعض البدع من قبيل الاحتفال بالمولد النبوي، وتعظيم الأولياء وغيرها من العادات السيئة بمكة، ونظم الأوقاف وألغى الضرائب والرسوم غير الشرعية، فعاد ذلك بالنفع على السكان الفقراء والمجاورين أكثر منه على الأغنياء والأشراف. غير أن تأثير هذا الأخير بمكة سرعان ما تقلص بعد وفاة الصدر الأعظم؛ ليظهر الأشراف من ذوي بركات في الواجهة[٧].

حاول ذوو زيد فترة هيمنة الشيخ المغربي، زعزعة حكم الشريف بركات وإثارة القبائل

لقد حاول ذوو زيد خلال فترة هيمنة الشيخ المغربي، وتحت مظلته ذوو بركات، زعزعة حكم الشريف بركات وإثارة القبائل ضده، لكن ذلك لم يثمر، الأمر الذي دعا كلا من الشريف سعد وأخيه الشريف أحمد إلى الالتحاق بأسطنبول. وقد امتدت إقامة الشريف سعد بها، حسب أغلب الكتابات، لإحدى وعشرين سنة يقال: إنه حف خلالها بالتعظيم والإجلال، وتولى أثناء ذلك بعض المهام الإدارية[٨]. لكن رغم أهمية الروايات التي تحدثت

---

(٥) علي بن تاج الدين بن تقي الدين السنجاري، منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، دراسة وتحقيق ماجدة فيصل زكريا، منشورات جامعة أم القرى، ط ١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨، ج ٤، ص ٢٧٥-٢٧٦.

(٦) سنوك، المرجع نفسه، ص ٢٣٦.

(٧) نفسه، ص ٢٣٧.

(٨) نفسه، ص ٢٣٨.

عن وجوده المريح بأسطنبول، وبأنه ظل يصل أقرباءه بإرسال الأموال والهدايا، وبأن وجوده بها لم يكن سوى نفيا اختياريا، فإن ما سيأتي من أخبار عن فترة ولايته الثانية تكاد تجعلنا نشكك فيما سبق ذكره، إذ لا يعقل أن يحاط بكل تلك الحفاوة والتقدير، ثم بعد عودته - وبمباركة من الباب العالي - ينقلب على ذوي نعمته. وفي اعتقادنا إن لم يكن نفيه إليها قد تم بالقوة، فمن المحتمل جدا أن يكون قد استدرج إلى مركز الدولة بالتي هي أحسن من أجل إبعاده عن موطنه، وذلك لما كان يمثله من تهديد بصفته قوة متمردة ضد هيمنة الأتراك وتدخلهم المباشر في شؤون الحجاز. ولتحقيق هدف الإبعاد، وخوفا من أية ردود فعل مناوئة للأتراك من جانب الأشراف من ذوي زيد، نال ما ناله من إعزاز فضلا عن دمجه في سلك الوظيفة. فقد عين السلطان محمد الرابع (١٠٥٨-١٠٩٩هـ/ ١٦٤٨-١٦٨٧م) ، في شهر ربيع الثاني من سنة ١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦م، الشريف سعد باشا على مدينة المعرة الواقعة بين حلب وحماة، في حين أعطي أخوه الشريف أحمد سنة ١٠٩٣هـ/ ١٦٨٢م حكم قصبة تسمى قرق كليسة أو كرك كنيسة، وهي بلدة تقع في الجانب الأوربي قريبا من أدرنة، ثم عين الشريف سعد بعد ذلك في بلدة قريبة من قرق كليسة استمر بها إلى سنة ١٠٩٤هـ/ ١٦٨٢م[٩]. وقد حدد عبدالملك العصامي المكي اسم هذه البلدة بأنها "ويزة بكسر الواو، وتخفيف الزاي، وهي قرية أيضا من كرك كنيسة بينها وبينها ثمان ساعات"[١٠]. وأقام الشريفان في الموقعين المذكورين إلى أن جاءهم الأمر السلطاني الذي "فسح لهم بالتوجه إلى حيث شاءوا من الديار الرومية، فتوجه مولانا الشريف سعد إلى إسلام بول، واستمر الشريف أحمد في بلده المذكورة، وطابت له وتأنس بها"[١١]. ويبدو أن

(٩) السنجاري، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٦٨-٣٦٩.

(١٠) عبدالملك بن حسين بن عبدالملك العصامي المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية، ج ٤، ص ٥٥٣.

(١١) العصامي المكي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٥٥٣.

الشريفين قد قضيا أيضا فترة في أسطنبول نفسها، ظلا خلالها تحت رقابة الإدارة العثمانية. ولا يستبعد أن الشريف سعدا وأخاه كانا مدركين لذلك، ومن ثم سعيا خلال تلك المدة لاكتساب ثقة الباب العالي ورضاه، ويبدو أنهما نجحا في ذلك، وهو ما يفسر بعودة سعد إلى موطنه ومعه مرسوم تعيينه واليا على الحجاز. وحسب محمد المالكي المكي كانت عودة "الشريف سعد من الروم[١٢] سنة ألف ومائة وثلاث، وبقي إلى سنة خمس ومائة وألف، ثم عزل وتولى الشريف عبدالله بن هاشم"[١٣]. والسؤال الذي يفرض نفسه بإلحاح بعد هذه الرواية هو: هل كان ولاؤه للعثمانيين صادقا أم مجرد خدعة سرعان ما انكشفت؛ ليفسح المجال لتولي غيره مكانه، بعد أن تبين استحكام عدائه القديم لهم؟

- **الولاية الثانية للشريف سعد بن زيد:** وامتدت من سنة ١١٠٤هـ/١٦٩٢م إلى سنة ١١٠٥هـ/ ١٦٩٣م، وبالرغم من التأثيرات التركية الظاهرة عليه بعد عودته من أسطنبول سواء في الملبس أو اللهجة، إلا أن ما ميز إمارته الثانية هو عدم مهادنته للمنافسين من أقربائه ورفضه الخضوع والتسليم التام للأتراك. فما إن استقر بمكة حتى جاءه خبر خروج أحد أبناء عمومته الشريف أحمد بن غالب (من ذوي بركات) عن الطاعة، ومهاجمته للقنفذة واحتلالها، ثم اتجه إلى الليث وبعدها صوب مكة يبغي بسط هيمنته عليها. ثم ما لبث الشريف أحمد بن غالب أن كتب إلى الشريف سعد يستأذنه بدخول مكة دون قتال والعيش بها. وما إن خمدت نار هذه الفتنة حتى أطلت فتن أخرى تزعمها بعض الأشراف من ذوي عبدالله وبعض عشائر

---

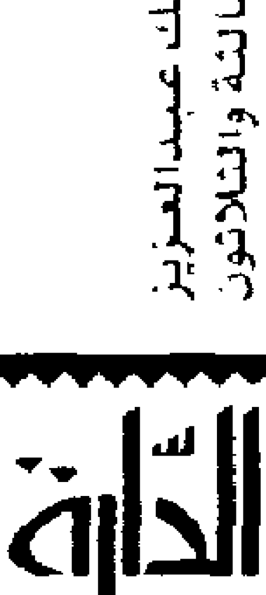
(١٢) يقصد بعودة الشريف سعد من الروم؛ أي من القسم الأوربي من الدولة العثمانية المعروف بروم إيلي أو روميليا.

(١٣) الشيخ محمد بن أحمد بن سالم بن محمد المالكي المكي، المعروف بالصباغ (١٢٤٣-١٣٢١)، تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام ومكة والحرم وولاتها الفخام، دراسة وتحقيق عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ج ٢، ص ٧٩٤.

قبيلة حرب، فتأثر سير القوافل، واضطرب الأمن بمكة، وكثرت اعتداءات اللصوص بها. وفي هذه الأثناء نجح سنجق جدة في استصدار أمر من الباب العالي بعزل الشريف سعد وتولية الشريف عبدالله من ذوي بركات، وهو ما رفضه سعد الذي دخل في مواجهة العسكر العثماني داخل مكة وحواليها، ثم ما لبث أن اضطر لمغادرتها إلى الحسينية جنوب مكة، حيث ظل يتحين الفرصة لاسترداد إمارته التي تولاها من بعده الشريف عبدالله بن هاشم. وقد أدى ذلك الاقتتال إلى سقوط عدد كبير من الضحايا من الجانبين (قيل: حوالي مئة شخص) هذا غير من قتل من الحجاج في مكة، وقد بلغ من آثار هذه الفتنة أن تحينت بعض القبائل الفرصة لنهب الحجاج في طريق عرفة، كما تعثرت حركة القوافل بين مكة وجدة لدرجة أنها لم تكن تجرؤ على الحركة بدون مصاحبة العسكر لها(١٤). وفي اعتقادنا أن رسالة سلطان المغرب كتبت عقب موسم الحج من هذه السنة ١١٠٥هـ/١٦٩٣م؛ لأنها تشير إلى بلوغ الخبر عن عودة الشريف سعد من منفاه ودعوته لتحمل المسؤولية بحزم والتزام العدل والرأفة بالرعية وبضيوف الرحمن، وكأنها أنذرته بمغبة ما قد يحل به فيما لو لم يلتزم بتلك النصائح أو لم يعمل بمقتضاها، وهو ما حصل له بالفعل وأثبتته الوقائع التاريخية.

- **الولاية الثالثة للشريف سعد بن زيد:** وامتدت بين سنتي ١١٠٦هـ/١٦٩٤م و١١١٣هـ/١٧٠١م، لم يستسلم خلالها الشريف سعد لما حصل من تآمر الأتراك في شخص سنجق جدة على إمارته، فما هي إلا بضعة شهور حتى أعد العدة لمواجهة الحليفين. وقد نجح في دحر قواتهم على مشارف مكة، حيث غادر الشريف عبدالله بن هاشم مكة إلى جدة ومنها إلى أسطنبول التي توفي بها في سنة ١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م.

(١٤) أحمد السباعي، تأريخ مكة: دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، ج ٢، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص ٤٥٢-٤٥٤.



وبهذا الانتصار وبغياب هذا الأخير دشن الشريف سعد بن زيد عودته إلى الواجهة في مكة للمرة الثالثة، ثم ما لبث أن توصل بمرسوم التأييد من السلطان العثماني مصطفى الثاني (١١٠٧-١١١٥هـ/ ١٦٩٥-١٧٠٣م) في أواخر رمضان من هذه السنة نفسها. وغلب على هذه المرحلة من إمارته استقرار الأوضاع بمكة، وتفاديه لمضايقات بعض الأشراف من بني عمومته كذوي بركات وذوي عبدالله، وذلك بالترغيب والحسنى تارة، وبالترهيب واستعمال القوة تارة أخرى. واستمر على هذه الحال إلى أن رأى التنازل عن الإمارة لابنه الشريف سعيد، وجاء التأييد لذلك وبطلب منه من الباب العالي سنة ١١١٣هـ/ ١٧٠١م. غير أن إمارة هذا الأخير لم تدم إلا قرابة الثلاث سنوات انقلب بعدها ضده بنو عمومته من الأشراف بعد تلكئه في دفع ما كانوا يعدونه حقا من موارد الإمارة من صدقات وغيرها فثاروا عليه، واضطر لترك الإمارة ومغادرة مكة في ٢١ ربيع الأول ١١١٦هـ/ ١٧٠٤م. ثم دخل الأشراف مرحلة من الصراع الدامي فيما بينهم تأثر لهوله أمن الطرق خارج مكة وداخلها(١٥). وخلال الستة شهور التي أعقبت خروج الشريف سعيد بن سعد بن زيد من مكة تعاقب على إمارة مكة المكرمة كل من الشريف عبدالمحسن بن أحمد الزيدي الذي اختاره سنجق جدة سليمان باشا بعد أن قرأ مرسوما سلطانيا فوضه ذلك الحق، ثم ما لبث بعد تسعة أيام أن تنازل عن الإمارة للشريف عبدالكريم بن محمد بن يعلى من ذوي بركات، لتخرج بذلك الإمارة من ذوي زيد. وخلال هذه المدة استطاع الشريف سعيد بن سعد بن زيد استمالة بعض قبائل جهينة، ونجح في احتلال ينبع والاستيلاء على غلال الصدقة الخاصة بمكة التي وزعها على أنصاره، ثم ما لبث أن انتصر على الجيش الذي وجهه الشريف عبدالكريم إليه في واقعة وصفت بالشديدة في ١٤ جمادى الأولى ١١١٦هـ/ ١٧٠٤م(١٦).

---

(١٥) أحمد السباعي، المرجع نفسه، ج ٢، ص ٤٥٦-٤٦١.

(١٦) نفسه، ص ٤٦١.

- **الولاية الرابعة للشريف سعد بن زيد:** ظل الشريف سعد بن زيد إلى حدود الواقعة المذكورة سلفًا مقيما بمكة، ويبدو أنه غضب بعد أن أوقف الشريف عبدالكريم ما كان مخصصا له من نفقة، كما يجوز أن يكون انتصار ابنه في ينبع قد حفزه للدخول في مواجهة مباشرة مع خصم ابنه، فدخل بذلك في مواجهة مباشرة مع قوة الشريف بعد أن ساندته بعض القبائل المجاورة لمكة، في حين ساندت قوة من الأتراك والمغاربة من عسكر باشا جدة الشريف عبدالكريم. وقد قتل في هذه المواجهات خلق كثير، ثم احتل الطائف في ٢٦ رمضان ١١١٦هـ/ ١٧٠٤م، وانتقل بعد ذلك إلى مكة التي دخلها منتصرا على خصومه في ٢٩ رمضان من السنة نفسها، ثم نودي بإمارة الشريف سعد للمرة الرابعة. وفي غمرة انتصاره أمعن مناصروه في إلحاق ألوان الأذى بأهل مكة، "فنهبوا كثيرا من بيوتها حتى كانوا ينزعون الثياب من أجساد أصحابها، وهاجموا كثيرا من البيوت، وساموا الناس أنواعا من الذل والإهانة، فاشتد الذعر بالناس، وأسقطت بعض الحوامل من هول ما يجري"[١٧]. وقد علق أحمد السباعي على ما جرى بقوله: "وبذلك كتب الشريف سعد في تاريخه الطويل صفحة من أحلك الصفحات سوادا في تاريخ مكة"[١٨]. ثم ما لبث الشريف عبدالكريم الذي غادر مكة منكسرا أن جمع بني عمومته وأنصاره من قبيلة عتيبة وحرب، فهاجم مكة، واحتلها في ١٧ شوال ١١١٦هـ/ ١٧٠٤م بعد أن أجلى الشريف سعدا عنها إلى العابدية غربي عرفات، حيث توفي بعد ذلك بأيام، لتنتهي ولايته الرابعة التي لم تدم إلا ١٨ يوما[١٩].

بعد غياب الشريف سعد دخلت مكة مرحلة من الفوضى العارمة امتدت لما يزيد على خمسة أشهر، حيث اشتدت المنافسة والتقاتل بين

(١٧) نفسه، ص ٤٦٣.

(١٨) نفسهما.

(١٩) نفسه، ص ٤٦٤.

الشريفين سعيد بن سعد بن زيد وعبدالكريم بن محمد بن يعلى، وتأذى لذلك أهل مكة، وقتل من جراء ذلك خلق كثير. وقد ساعد على تدهور الأوضاع السياسية والأمنية بالحجاز عدم قدرة الباب العالي على ضبط الأمور نتيجة التقلبات المتسارعة وتضارب المعلومات الواردة بشأنها من كل من والي مصر وسنجق جدة المتنافسين. فقد عاد الشريف سعيد للإمارة للمرة الرابعة بدعم من والي مصر الذي كان على خلاف مع سنجق جدة الموالي بدوره للشريف عبدالكريم، وتوصل الشريف سعيد بمرسوم تعيينه في ٦ ذي الحجة عام ١١١٦هـ/ ١٧٠٤م، وما هي إلا بضعة شهور حتى تلقى الشريف عبدالكريم بدوره من سنجق جدة مرسوما بولايته في ١٨ رجب ١١١٧هـ/ ١٧٠٥م، وبين تعيين الأول والثاني اقتتال بين الطرفين وخسائر حلت بمكة وأهلها على كل المستويات(٢٠).

لقد جاءت رسالة سلطان المغرب المولى إسماعيل ضمن إطار هذه الظرفية العامة في مكة والحجاز بشكل عام، حيث تميزت إدارة الأشراف لهذه البلاد تحت مظلة العثمانيين بصفتها إحدى أهم ولاياتهم المترامية في ذلك الحين: أوربا الشرقية (إقليم الروميللي) وآسيا الصغرى أو هضبة الأناضول والشرق العربي بما في ذلك العراق وبلاد الشام ومصر والحجاز ثم بلاد المغرب بما فيها طرابلس الغرب وتونس والجزائر) بنوع من التخبط الناجم أصلا عن طبيعة إدارة العثمانيين لجميع الأقاليم التابعة لهم. فقد اكتفى العثمانيون بعد فتوحهم لجهات كثيرة من بلاد الشام وفي الحجاز بولاء بعض الزعامات لهم، كما هو شأن الأشراف، وقبولها العيش ضمن السيادة العثمانية مع ما يفرض ذلك من واجبات وحقوق متبادلة، دون إدخال تغيير جذري يمس مصالح هذه الفئات. هذه السياسة العامة للدولة تجاه إدارة العديد من الولايات التابعة لها كانت في البداية تحت

(٢٠) نفسه، ص ٤٦٧-٤٦٨.

السيطرة نتيجة هيبة الدولة، إبان مرحلة الإنجازات العسكرية المدوية وخلال حكم السلاطين العظام المؤثرين من آل عثمان (سليم الأول وسليمان القانوني)، لكن هذا الوضع عرف تغيرا كبيرا خلال القرن السابع عشر الميلادي نتيجة الخلخلة التي باتت تعرفها الدولة في كثير من المجالات (على المستويات العسكرية والأوضاع الداخلية)، وهو ما شجع العديد من إدارات الولايات، خاصة البعيدة عن مركز الدولة، على المناورة من أجل إثبات الذات أو الحصول على شكل من أشكال الاستقلال. ولعل ما تميزت به الأوضاع ببلاد الحرمين من اضطراب شبه دائم نتيجة تنافس عائلات الأشراف وتقاتلها فيما بينها من أجل إثبات الأحقية في الإمارة، ومحاولة بعضهم رفض تدخل والي جدة من قبل الباب العالي في شؤون البلد الحرام والثورة عليه وقتاله في بعض الأحيان دليل على عجز الدولة العثمانية، كما تجلى ذلك بعد عودة الشريف سعد بن زيد من أسطنبول التي أمضى فيها إحدى وعشرين سنة، اطلع خلالها على مجريات أمور الدولة عن قرب، خاصة في مرحلة تميزت بتدخل كبير للصدور العظام من آل كوبرولو في تسيير دفة الحكم بدعم من أمهات السلاطين، وضعف بعض هؤلاء في الإمساك بزمام الأمور. وقد كان للوضع الإداري المضطرب من قبل الأشراف نتيجة لما سبق ذكره آثاره المباشرة على الأوضاع الدينية والاجتماعية (حتى السلوكية منها) والاقتصادية في البلد الحرام وتداعياته على السكان وضيوف الرحمن. ورسالة سلطان المغرب وهو الشريف الذي تربطه بأشراف الحجاز أواصر القربى والانتماء (ينبع النخل) تناولت في بعدها العام هذه الأوضاع داعية إلى إصلاح الخلل بما يسمح باستقرار الأوضاع والتمكين.

٣ - مضمون الرسالة:

قبل تناول مضمون هذه الرسالة لابد من الإشارة إلى ملحوظتين:

- أن الرسالة رغم حجمها الصغير نسبيا وبتر الصفحتين الثانية والأخيرة منها، حملت معلومات غزيرة تم عرضها بطريقة منطقية وأسلوب سلس، تجعل قارئها يقبل عليها بلهفة للتعرف على الغاية منها.
- أنها جاءت حية نابضة بما تضمنته من شواهد من القرآن الكريم والأحاديث النبوية والتاريخ في أسلوب وعظي يتراوح بين الترغيب والترهيب.

أما مضمون هذه الرسالة فيتلخص في فكرة عامة جامعة هي نصيحة سلطان المغرب المولى إسماعيل بن الشريف بن علي الحسني للشريف سعد بن زيد سلطان الحرمين في أمور تتعلق بحكمه للبلد الحرام. وهي في جوهرها تتناول: ما يحسن الاهتمام به وطلبه، وما ينبغي الانتباه منه وتجنبه. وتم التمهيد لكل ذلك بذكر فضل الحرمين وأجر وثواب من ولاه الله أمرهما، فكان مستقيما وأدى الأمانة، دون إغفال الإشارة في ثنايا الرسالة إلى ظروف كتابتها، والداعي إلى ذلك، وكذا التعريف بالشخص الذي كلف بإبلاغها إلى الشريف سعد. ويلحظ القارئ للرسالة مدى اطلاع السلطان المغربي على أحوال الحرمين في ظل حكم الأشراف على المستويات السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية. وفي ما يأتي أهم الأفكار الجزئية كما هي واردة في الوثيقة:

- التذكير بأهمية وفضل النصيحة خاصة لمن ولاه الله تعالى أمر الحرمين الشريفين.
- ذكر فضائل الحرم المكي: فيه بيت الله ومقام إبراهيم عليه السلام وفي أرضه ولد الرسول ﷺ وفيه ظهرت نبوته وما اتصل بها من معجزات، وبعثته، وابتداء الوحي وإسراؤه.

- ذكر فضائل طيبة ومكانتها في الإسلام: فهي دار الهجرة وبها منازل الوحي، وفيها أكمل الدين، ومنها أرسلت البعوث والسرايا، وفيها أعز الإسلام، وفيها قبض الرسول ﷺ، واستقامت الخلافة، ووقعت الفتوحات في المشرق والمغرب، ومنها اجتثت قواعد الدول الكبرى "الفارسية الكسروية والرومية القيصرية والتركية الخاقانية والديلمية والحبشية والبربرية"(٢١).
- تهنئة الشريف سعد بولايته الحرمين ونصحه بشكر النعمة والتزام العدل، "ومن أنعم الله عليه بولاية الحرمين الشريفين فهو الذي يجب على من يحبه أن يهنئه بما أنعم الله عليه، فهنيئا هنيئا لك بما خولك الله وأولاك، والواجب عليك أن تتعرف فضل الله ونعمه وتشكر كرمه، قال تعالى: و﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقد قال رسول الله ﷺ: [قيدوا النعم بالشكر]"(٢٢)، وفي هذا إشارة ضمنية إلى عودته بعد غيابه الطويل في إسطنبول إلى كرسي الإمارة بمكة، وتذكيره بما يستقيم به حكمه ويستمر، إذ شكر النعم مدعاة للزيادة والاستمرار.
- السلطان يذكر الشريف سعدا بالقرابة التي بينهما، وأنها سر النصح الصادق المؤثر بقوله: "وإذا صدرت التذكرة، ووقعت الموعظة والتبصرة من أهل بيت واحد كانت أوقع في النفوس"(٢٣)، فيلحظ في ذلك أنه يعتمد أسلوبي اللين وتطييب النفس في النصيحة، وهما من الآداب المطلوبة والمساعدة على نجاح مهمة الناصح.
- السلطان يبرر سبب إسدائه النصيحة، فيذكر من ذلك مكانة الحرمين الشريفين في نفسه وشعوره القوي بالصدق والإخلاص في أداء النصح، "فالرجل لا تتوق نفسه إلى مسألة يخاطب بها ولا

(٢١) المخطوطة، ص ٤.

(٢٢) نفسها، ص ٦-٧.

(٢٣) نفسها، ص ٧.

إلى نصيحة يؤديها إلا إذا عرف من نفسه أنها خالصة لوجه الله الكريم، وعرف ممن يخاطبه بها أنه يقبلها، فإن النصيحة كالحكمة التي قال فيها رسول الله ﷺ: [لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم]، وأي فائدة وحكمة تكون أو تطلب ككلمة ينفع الله بها جمعا من المسلمين"[٢٤]. وفي ذكر السلطان لهذه الأسباب إشارة إلى شرطين ضروريين للنصيحة ذات الفائدة، وهما: الإخلاص لله في أدائها، والمعرفة بإمكان قبولها من طرف المخاطب بها.

- السلطان ينتقل في نصيحته للشريف سعد بن زيد من الإشارات الضمنية السابقة لما حل به من نكبة النفي إلى إفصاح وإشارات صريحة وواضحة في قوله: "... وقد كنت قبل هذا في ولاية تلك الأماكن الشريفة، وسعدت بك وبأبيك من قبلك تلكم الأقطار كلها، إذ داركم دار الإمارة والمملكة والبركة يعرفها الناس قرباء أو بعداء بأسرهم، ويفدونها بأموالهم وأنفسهم، ثم كان من قدر الله ما كان فأقمت سنين عديدة في غير أرضك ووطنك، وأصبحت مفارقا لأهلك وأولادك وسكنك، فليعتبر ابن عمنا بما فات عليه وليتذكر، قال الله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]"[٢٥].

- السلطان يرفع من قدر الشريف سعد وكونه خصه بكتابة هذه الرسالة وشرفه بها دون غيره، حيث لم يحظ بهذا الاهتمام الشريف أحمد بن غالب، وهو أيضا من قرابة السلطان، ويتساوى مع الشريف سعد في النسب الشريف، وبالرغم مما أثر عنه من إكرام لبني عمومة السلطان حين قدومهم للحج. ومما قاله السلطان في حق هذا الأخير: "... فلم تسكن له أنفسنا ولا طابت بولايته خواطرنا وإن كان هو يعرف حقنا ولا يجهل قدرنا، ودائما

(٢٤) نفسها، ص ٧-٨.

(٢٥) نفسها، ص ٨.

كان يكاتبنا ويواصلنا ويعمل الخير مع أبناء عمنا، ولقد كان ابن عمنا مولاي عمر بن هاشم - رحمه الله - أيام قدومه للحجاز تعارف معه واصطحبا وعمل معه خيرا كثيرا، ولما جاء من هنالك أعاد علينا جميع ما عمله معه من الخير، ومع ذلك فلم نجبه عن كتبه إلا بمجرد السلام والمواصلة، وقط ما خاطبناه بنصيحة ولا أدرنا معه كلاما بما هو زائد على السلام الواجب رده بين الأنام، وأما أنت والله كانت نفوسنا تميل إليك وتأنس بك"(٢٦).

- السلطان يتحدث بما يفيد أنه متتبع للمستجدات ببلاد الحرمين، واستبشاره بعودة سعد إلى كرسي الإمارة: "وعندما بلغ وفد الحجاج أول ما سألنا شيخ الركب الشيخ الحسني عنك؛ فبشرنا برجوعك لبلدك ووطنك وأخبرنا بعودتك لذلك الحرم الشريف بولاية عملك، ففرحنا بذلك فرحا كبيرا، وسررنا والله سرورا كثيرا، وحمدنا الله لكم وشكرناه، وأثنينا عليه بما هو أهله، وطابت نفوسنا بولايتك، وسكنت خواطرنا من جهتك، واستشرفت قلوبنا إلى تهنئتك"(٢٧).
- السلطان يذكر ظروف كتابة الرسالة وإسراعه في إرسالها بقوله: "ففكرنا في قدوم الحاج لتلكم البلاد، فرأيناه يبطؤ علينا، وألقى الله في خلدنا هذا الكلام وكتبنا به إليك. والله ثم والله ما شرعنا في كتبه لك إلا في اليوم الثالث من قدوم الحاج"(٢٨).
- السلطان يعرف بالشخص الذي كلف بالسفارة إلى سعد لأجل إبلاغه الرسالة وبسبب اختياره دون غيره، فهو "الحاج أحمد لما عهدناه فيه من الفائدة والنجدة والصبر، وقد كان قبل هذا بالبلاد المشرقية، وجال في تلكم الأقطار، وتردد ما بين حواضرها وبواديها

(٢٦) نفسها، ص ٩.

(٢٧) نفسها، ص ٩-١٠.

(٢٨) نفسها، ص ١٠.

سفيرا وساعيا بين تجارها وأعيانها نحوا من ثمانية عشر سنة [هكذا: ثماني عشرة]، فهو يعرف تلكم النواحي كلها، ويصبر للطريق برا وبحرا، إلى ما يضاف إلى ذلك من مداخلته معنا وملازمته في غالب الأوقات لنا، فمن لدن رجع من المشرق وهو متصل الخدمة بنا عارف بما لم يعرفه غيره من سيرنا، وهو واحد من الملازمين لأعتاب دارنا العلية بالله، فاخترناه لهذه المسألة من هذه الحيثية"(٢٩).

- بعد الإشارات الضمنية ثم الصريحة لما حل بالشريف سعد من نفي، بعد ولايته الأولى، وحتى لا يفهم أن الغاية من كتابة هذه الرسالة هو التقريع والفضيحة للمنصوح، وهو ما قد ينتج عنه النفور والعداوة للناصح، وبعد الإشادة بصلات القربى الموجبة لنصيحة القريب طلبا لما فيه الخير له وتخصيصه دون غيره من الأقارب الذين ارتقوا الولاية نفسها بمكة المكرمة بشرف الكتابة له، بعد كل ذلك حاول السلطان إجمال ما سبق ذكره بالإشارة إلى أن الكتابة للشريف سعد وتأدية النصيحة له هي دليل عناية خاصة به يقصد من ورائها الحصول على الثواب والنفع للمنصوح، وهو ما عبر عنه بأسلوب يهيئ النفس لتقبل ما بعده من نصيحة، إذ قال: "وبادرنا لك بهذا الكتاب معه [أي مع مبعوث السلطان] اعتناء بك وتأدية لنصحك، وأرجو الله تعالى أن يقع منك موقعا ننتفع نحن بثواب أداء النصيحة وتجار [هكذا: تؤجر] إن شاء الله عليها، وتنتفع أنت بقبول ذلك وبالعمل به، ويكون بحول الله وقوته سلما وسببا بيننا إلى مواصلة كبيرة واستدامة مودات كثيرة، ونجد معا بركة لذلك الحرم الشريف في أنفسنا وذريتنا"(٣٠).

- بعد هذه المقدمات العامة والخاصة التي استغرقت عشر صفحات (من الحجم الصغير) ونصف الصفحة الحادية عشرة من الرسالة،

---

(٢٩) نفسها، ص ١٠-١١.

(٣٠) نفسها، ص ١١.

يدخل السلطان في جوهر النصيحة وإلى غاية الصفحة الرابعة عشرة، وأهم ما ورد فيها ما يأتي:

١ - دعوة الشريف سعد إلى الحزم في أمور ولايته: لين في غير ضعف، وذلك من خلال التزام الحق، والضرب على أيدي أهل الباطل ورحمة المستضعفين والمساكين، ومراعاة الله في حرمه وحرم رسوله ﷺ، "وأي حرمة كحرمة أمته وأهل شريعته وملته"(٣١).

٢ - دعوته للاهتمام بالحجاج والمعتمرين وبطيبة نفس في قوله: "وأن تحب الضعفاء والمساكين الواردين على تلكم المعالم والمشاهد بقلب شائق وحب صادق"(٣٢).

٣ - تنصيب من يوصل حاجات الناس إليه.

٤ - نصرة الحق.

٥ - استشعار المسؤولية الملقاة على عاتقه.

٦ - المحافظة على ما به يكون التمكين: من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٧ - الخوف واتقاء دعوة المظلوم.

٨ - التفكر فيما جاء من حكم في وصية لقمان لابنه: من إقامة الصلاة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر والصبر على المصيبة وتجنب الكبر والخيلاء.

٩ - صلة الرحم.

١٠ - التفكر فيما كان عليه السلف الصالح من صفات إبان حكمهم لبلاد الحرمين، "فاستقامت لهم الدنيا والدين وصلحت بصلاح أحوالهم جميع أمور المسلمين"(٣٣).

---

(٣١) نفسهما.

(٣٢) نفسها، ص ١٢.

(٣٣) نفسها، ص ١٣.

١١ - العدل مطلوب ومستحسن في كل بقاع الأرض وفي بلاد الحرمين الشريفين أشد استحسانا وطلبا، "فولاية نحو يوم وليلة في ذلك الحرم يعدل الإنسان فيهما أحب إلى من نور الله بصيرته من كلما [هكذا: كل ما] يهواه ويتمناه"(٣٤).

١٢ - التركيز على فكرة العدل سابقة الذكر وربطها بفكرة الحزم التي جاءت في أول النصيحة والتفصيل فيهما، "فنحب منك أن تأخذ بطريق العدل والحزم وحسن التدبير في جميع أحوالك وتكون ضابطا محتزما [هكذ] في كلما [هكذا: كل ما] هنالك"(٣٥).

١٣ - التذكير مرة أخرى بأسباب الكتابة إلى الشريف سعد ونصحه، "فما كتبناه لك إلا ثقة بأخوتك وحمية على مروءتك وصحبة فيك واعتبارا بما فات عليك، والكيس من الناس من دان نفسه، وقدم أمور دينه على أمور دنياه، وزهد فيما عند الناس رغبة فيما عند الله، والعاقل من نظر في العواقب فتدبرها، ونظر لما فات عليه من الأمور وتذكرها، ففي كلام الحكمة: تعاقب الأحفاد بما فعلته الأجداد، فلينظر أخونا وابن عمنا لنفسه وولده، ويعمل بما يرضي ربه في بلده، فقد حملتنا محبة ذلك الحرم الشريف وإيثار ذلك الجناب الطاهر المنيف على تذكرتك ونصيحتك، وقد عودنا الله سبحانه التذكرة والنصيحة لجميع من عرفناه من المسلمين ووجدنا... "(٣٦).

٤ - التعليق والاستنتاجات:

هذه بعض من الملاحظات التي خلصنا إليها بعد عرضنا للخطوات السابقة التي عكست مدى أهمية هذا النوع من المراسلات في

---

(٣٤) نفسها، ص ١٤.

(٣٥) نفسهما.

(٣٦) نفسهما.

الكشف عن جوانب من التاريخ المشترك والروابط المتينة بين المغرب الأقصى وبلاد الحرمين الشريفين.

أولا - التعليــق:

سنتناول في تعليقنا عن هذه الوثيقة المهمة النقاط الآتية:

أ - نقد الرسالة لنفي أو إثبات صحة وجودها أصلا وكذا صحة نسبتها إلى سلطان المغرب: وفي هذا الصدد لابد من التسليم بصعوبة الحصول على نسخة منها لدى الطرف المرسلة إليه، إذ للظروف المضطربة وغير المستقرة التي مر بها حكم آل زيد لبلاد الحرمين - خاصة في عهد الشريف سعد - أثرها السلبي في ذلك. إلا أننا لا نستبعد أن يظهر في أرشيف العائلات الشريفة من آل زيد في يوم من الأيام ما يثبت وصول رسالة سلطان المغرب إلى الشريف سعد بن زيد وجوابه عنها. لكن في مقابل ذلك كل الدلائل تؤكد صحةَ وجودها ونسبتها إلى سلطان المغرب، فيلحظ اتفاق الدليل من صميم الرسالة، حيث الإشارة إلى مرسلها السلطان إسماعيل بن الشريف بن علي الحسني، مع ورود الإشارات الدالة على ثبوت كتابتها في مصادر مغربية وذكر اسم ونسب من وجهت إليه كما هي الحال في كتاب "المنزع اللطيف" المذكور سابقًا، وهذا في اعتقادنا كاف للدلالة على صحة الوجود والنسبة، هذا فضلا عن حفظ نسخة من هذه الرسالة في الأرشيف المغربي. لكن يبقى السؤال الآتي مطروحا: هل أجاب الشريف سعد بن زيد سلطان المغرب عن هذه الرسالة أو لم يجب؟ هذا إن كان توصل بها بالفعل، وذلك على غرار ما تحدث عنه السلطان نفسه من تبادل رسائل في السابق مع أشراف آخرين. أما إن لم يكن قد توصل بها أو توصل بها وأجاب وليس لنا من جانبه ما يثبت ذلك، فعزاؤنا هو أن نعثر في الأرشيف المغربي عما يؤكد جوابه عنها.



ب - نقد مضمون الرسالة لإبراز الأخطاء المعلوماتية أو التاريخية في نصها، ومدى مطابقة الوصف الوارد ضمنها مع الظرفية التاريخية التي مرت بها بلاد الحرمين الشريفين في ولاية الشريف سعد بن زيد، وأيضا مقارنة ذلك مع المعلومات الواردة في مصادر أخرى. وهنا يلحظ، اعتمادا على كل ما سبق عرضه، أنه سواء بالنسبة للجانب الوعظي أو العملي التوجيهي من مضمون هذه الوثيقة النصيحة أن كل الأدلة تثبت صحة المعلومات الواردة فيها وتطابقها مع المنقول والأحداث التاريخية. بالنسبة للشق الأول من مضمون الوثيقة، خاصة طبيعتها كنصيحة، فإن كل ما جاء فيها كان مدعما بالشواهد من القرآن الكريم والأحايث النبوية الشريفة وسيرة الصحابة الثابتة وتاريخ الرجال والدول المؤكد في المصادر التاريخية. لكن هناك ملحوظة واحدة بالنسبة لهذا الشق من الرسالة، وهي الإشارة إلى تدخل خالد بن الوليد في المناظرة التي جمعت المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة، وهو ما لم يتأكد في المصادر المعتبرة كتاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري، والبداية والنهاية لابن كثير، وتاريخ الخلفاء للسيوطي وغيرها. أما بالنسبة للشق الثاني المتعلق بتطابق الصورة التي تعكسها الرسالة مع الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في بلاد الحرمين الشريفين في ظل حكم الأشراف خلال العهد العثماني، فيلحظ تطابق الغاية من كتابة الرسالة ومضمونها مع واقع الحال في عهد ولاية الشريف سعد بن زيد.

كل الأدلة تثبت صحة المعلومات الواردة فيها وتطابقها مع المنقول والأحداث التاريخية

ج - أهمية هذه الرسالة ومدى إسهامها في الكشف عن غامض أو إضافة جديد أو إثبات واقع، ويلحظ أن هذه الوثيقة أسهمت بحق في تصحيح ما كان شائعا من أن سعدا إنما عاش في

أسطنبول إحدى وعشرين سنة برغبة منه ودون إكراه. والواقع كما تؤكده المصادر والمراجع في شأن طبيعة علاقته بالأتراك قبل إقامته في العاصمة العثمانية وبعدها، والتي تميزت بالاضطراب، وكما تبينه الوثيقة من خلال الإشارة مرارا إلى التهنئة بالعودة للأهل والوطن وتنبيهه بتفادي ما من شأنه أن يعرضه للمصير نفسه من ضياع شرف حكم بلاد الحرمين والإبعاد عنها، كل ذلك يعكس أهمية هذه الرسالة، وإسهامها في تصحيح مثل هذه الأخطاء.

ثانيا - الاستنتاجات:

يستنتج من مضمون هذه الرسالة المخطوطة ما يأتي:

أ - أنها تدخل ضمن أدبيات ما عرف بالسياسة الشرعية الواجب على الحاكم التزامها في حكمه لبلده ورعيته.

ب - أنها تؤكد الصورة الدرامية للوضع ببلاد الحرمين في ظل حكم الأشراف وتعكس جوانب منه.

ج - أنها تصحح خطأ، شاع تداوله في الكثير من المصادر والمراجع عن مرحلة ولاية الشريف سعد بن زيد لبلاد الحرمين، وخاصة ما تعلق منها بالفترة الطويلة التي قضاها في منفاه بأسطنبول وغيرها من المدن. فتهنئة السلطان للشريف سعد على عودته لأهله ووطنه ودعوته لأخذ العبرة بما مر عليه أثناء غيبته، وحفزه على التزام العدل والحزم في أموره، كلها أمور تدل على أن إقامته في مدينة المعرة وقرية ويزة ثم بالعاصمة العثمانية لم تكن نزهة بل نفيا قهريا. ويؤكد العصامي المكي ما توحي به رسالة السلطان إسماعيل عند حديثه عن حلول السلطان العثماني أحمد الثاني بأدرنة، وكان ذلك بعد توليه السلطة سنة ١١٠٣هـ/ ١٦٩١م، وكونه "فسح لهم (إشارة للشريفين أحمد وسعد) بالتوجه



إلى حيث شاؤوا من الديار الرومية"[٣٧]. فيفهم من ذلك أن تعيينهما في كرك كنيسة بالنسبة للشريف أحمد وفي ويزة بالنسبة للشريف سعد، وقبل ذلك في المعرة بالنسبة لهذا الأخير، كل ذلك كان إمعانا في شغلهما عما كان يدور ببلاد الحرمين ووضعهما تحت الرقابة المباشرة للإدارة العثمانية. ويبدو أن إفساح المجال لهما بالتنقل الحر بعد ذلك دليل على وثوق السلطان العثماني بصدق ولائهما.

د - أنها تثبت أهمية هذا النوع من الوثائق التاريخية، وتحفز على المضي في جمعها سواء في الأرشيف المغربي، وقد وقفت على ما يثبت ذلك في الأرشيف الحسني (الملكي سابقا) وبالخزانة الوطنية أو الخزانة العامة التي استخرجت منها هذه الرسالة.

هـ - أن هذه الرسالة من سلطان المغرب تثير أكثر من سؤال بالنسبة للمهتم بتحليل الخطاب وخلفياته. فالقارئ للرسالة يلحظ أنها بمثابة ناقوس إنذار لمن وجهت إليه، فهي رغم عبارات المودة والمجاملة تضمنت مقاطع قوية تهدف لما هو أبعد. فهي تضع الشريف سعدا أمام مسؤوليات جسيمة تتراوح بين ما هو عام وما هو خاص:

- فبالنسبة لما هو عام، يلحظ أن التركيز في الرسالة جاء منذ البداية منصبا على تأكيد أواصر القربى والمكانة السياسية من خلال استعمال لقب سلطان، فقد خاطب السلطان إسماعيل سعدا بقوله: "إلى... أخينا وابن عمنا الشريف المحترم السلطان سعد بن المقدس المرحوم بكرم الله السلطان زيد"[٣٨]، ثم جاءت الصفحات التي أعقبت ذلك لتدعم بالمنقول مشروعية ولاية الشريف سعد على بلاد الحرمين الشريفين.

---

(٣٧) العصامي المكي، مصدر سابق، ج ٤، ص ٥٥٣.

(٣٨) المخطوطة، ص ١.

- أما بالنسبة لما هو خاص، فقد جاء مجملا في نصائح من شأنها أن تدعم سلطة الشريف سعد في مقابل أية هزات سواء كانت محلية من بني عمومته أو من جهة الإدارة العثمانية، فقد جاءت التوجيهات في الرسالة تدعو الشريف سعدا إلى أن يتعامل مع القضايا المتعلقة بحكمه لبلاد الحرمين الشريفين بحزم مع تجاوز كل السلبيات التي كانت سببا فيما حل به في السابق. فقد جاء في نص الرسالة: "فنحب منك أن تأخذ بطريق العدل والحزم وحسن التدبير في جميع أحوالك وتكون ضابطا محتزما (حازما)"(٣٩)، فيلحظ تكرار توجيه النصح له بالحزم تجنبا لما حل به وتذكيره بسوء العاقبة إن لم ينتبه لذلك؛ إذ "العاقل من نظر في العواقب فتدبرها، ونظر لما فات عليه من الأمور وتذكرها"(٤٠). فهل استفاد الشريف سعد من هذه النصائح وتدبرها أو لم يستفد؟ الواقع أن تاريخ ولايات الشريف سعد الأربع - كما سبق رصدها - يشهد بأن الرجل لم يصحح سيرته وسياسته، الأمر الذي جعل التقييم العام لفترات حكمه المتقطعة لبلاد الحرمين الشريفين كان بشكل عام سلبيا للغاية عكس مرحلة حكم والده زيد الذي استمر لخمس وثلاثين سنة، والذي استطاع بحنكته ومرونته تجاوز أغلب العوائق والدسائس سواء من بني عمومته من الأشراف أو من الأتراك العثمانيين.

---

(٣٩) نفسها، ص ١٤.

(٤٠) نفسها.

ملحق

نص رسالة سلطان المغرب إسماعيل بن الشريف بن علي الحسني إلى سلطان الحرمين الشريفين سعد بن زيد(٤١)

"بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد، من عبدالله المتوكل على الله الغني به عمن سواه المفوض جميع أموره إليه المعتمد في ساير أحواله عليه إسماعيل بن علي بن الشريف الحسني.

إلى من تحلت الأيام بمحاسن شيمه، وأحجمت الأقلام دون مراقي همه، الأرقى الأنقى الأزكى أخينا وابن عمنا الشريف المحترم السلطان سعد بن المقدس المرحوم بكرم الله السلطان زيد أسعدنا الله وإياكم باتباع مناهج رشاده، ووفقنا وإياكم لمصالح بلاده وعباده، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ورضوانه الأعم وتحياته أما بعد، فقد كتبناه لسيادتكم وأنهيناه لمجادتكم عن ود ثابت الأساس، وعهد جار في طريق المحبة على [١] (الصفحة الثانية مبتورة [٢]) وأربابها وموضعها، والنصيحة عامة الوجوب محمودة المطلوب، سيما لأهل ذلك الحرم الشريف والجناب المعظم المنيف الذي هو حرم الله وحرم رسوله ﷺ. وقد عظمه الله تعالى، وورد فيه من الآي القرآنية والأحاديث النبوية ما فيه كفاية لقلب كل من يؤمن بالله ورسوله، فإنه بيت الله ومقام سيدنا إبراهيم عليه السلام وحج المسلمين، ومنه أول أرض مست نسمة رسول الله ﷺ، ومنه ظهرت أعلام النبوءة، واتصلت المعجزات، ومنه كانت البعثة الشريفة، وفيه كان ابتداء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ومنه أسري به عليه الصلاة والسلام، وكم وكم (هكذا في النص) له من الفضائل التي لا يتناولها الحد ولا يأتي عليها الإحصاء والعد. وكذلك طيبة المطهرة، فهي دار الهجرة وبها منازل الوحي، وفيها أكمل الله الدين، ومنها كانت البعوث والسرايا

---

(٤١) تسهيلا لقراء النص فضلنا إضافة العلامات من قبيل النقط والفواصل وغيرها التي لا وجود لها في الوثيقة.

والغزوات، وفيها أظهر الله الدين وأعز الإسلام والمسلمين، وفيها قبض روح رسول الله ﷺ [٣]، وفيها روضته بها جمع القرآن، ومنها استقامت الخلافة ووقعت الفتوحات في المشارق والمغارب، ومنها اجتثت قواعد أصول الدول الكبيرة الفارسية الكسروية والرومية القيصرية والتركية الخاقانية والديلمية والحبشية والبربرية، وكم لها من الكمالات التي لا تتناهى، والمحاسن التي لا تضاهى، ففضائل الحرمين الشريفين الله أعلم بها منا، والخلافة قدرها عند الله عظيم وثوابها عند الله جسيم وهي وراثة النبوءة، وقال ﷺ: "السلطان ظل الله في أرضه"(٤٢)، و"إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن"(٤٣)، فطوبى لمن طوقه الله بطوقها وعرف مقدار حقها، وقام فيما أقامه فيه سيده على قدم اعتنائه، وأدى شكر سابغ نعمه تعالى وآلائه، ونظر لأمة سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ بما ينظر به لرأسه ونفسه، وعمل ليومه، واعتبر بما جرى عليه في أمسه، ولاسيما إذا كانت الخلافة في بيتها من قريش. قال عليه الصلاة والسلام: "الخلافة في قريش [٤] وغيرهم متغلب"، و"قدِّموا قريشا ولا تقدموها"، و"الأمراء من قريش"(٤٤). ولما أن جرى بين المهاجرين والأنصار، رضوان الله على جميعهم، من الاجتهاد والكلام ما جرا يوم سقيفة بني ساعدة، وقال بعض الأنصار ممن لم يكن، والله أعلم، سمع هذه الأحاديث الشريفة وهو يخاطب المهاجرين: "منا أمير، ومنكم أمير"، فقال له سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "منا الأمراء،

(٤٢) لم أقف له على أصل، ويعتقد أنه من الآثار. لكن هناك حديث نصه: "لا تسبوا السلطان فإنه ظل الله في أرضه"، رواه الديلمي عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه.

(٤٣) ذكر ابن تيمية وابن كثير أنه من كلام عثمان رضي الله عنه.

(٤٤) لم أقف على صيغة هذه الأحاديث، لكن هناك ما يؤكد مضمونها بصيغ أخرى كما في صحيح مسلم "كتاب الإمارة" قوله ﷺ: "الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم لمسلمهم وكافرهم لكافرهم"، وقوله أيضا: "الناس تبع لقريش في الخير والشر"، وقوله أيضا: "لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي في الناس اثنان".

ومنكم الوزراء"، وقام خالد بن الوليد رضي الله عنه خطيبا وأجاد، أبدأ وأعاد، وقال في آخر كلامه: "والله يا معشر الأنصار لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "الخلافة في قريش"(٤٥) ما أبعدتها منكم، ولكنكم كذا ولكنكم كذا يتمنى عليهم". ولكن ذاك كلام حق، ولو بقي رجل واحد من قريش ما طمع فيها غيره، وأنت والحمد لله من علياء قريش نسبا وحسبا، فاحمد الله على تلك النعمة التي ألبسك جلبابها وفتح عليك بابها، ولاحظ ما في الخلافة من الخيرات العميمة والأيادي الجسيمة [٥]، إذ بها تقام الحدود الشرعية وعليها تبنى الأحكام الدينية، وبها تصان أموال التجار وترغم أنوف الماردين من الفجار، وبها يستقيم الحج والجهاد، وبها ينتصف المظلوم من الظالم في سائر البلاد، وبها تأمن الرفاق في جميع الآفاق، ولله در القائل:

لولا الخلافة لم تأمن لنا سبل وكان أضعفنا نهبا لأقوانا

فمناصب الخلافة شريفة، ودرجاتها عند الله منيفة، ويكفيك من هذا ما وقع ليزيد مع أبيه معاوية رضي الله عنه، فقد جاءه ذات يوم في وقت لم يكن يأتيه فيه وهو يبكي، فقال له: يا أبت، أعتق رقبتي من النار، فقال له: وبم يا يزيد؟ قال له: بلغني عن رسول الله ﷺ حديث وهو قوله: "من ولي من أمر هذه الأمة شيئا ثلاثة أيام فعدل فيها حرم الله جسده عن النار"، فازداد به أبوه غبطة، ووعده بمطلبه. ومن أنعم الله عليه بولاية الحرمين الشريفين فهو الذي يجب على من يحبه أن يهنئه بما أنعم الله عليه، فهنيئا هنيئا لك بما خولك الله وأولاك[٦]، والواجب عليك أن تتعرف فضل الله ونعمه وتشكر كرمه، قال تعالى: و﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقد قال رسول الله ﷺ: "قيدوا النعم بالشكر"، وأنت وإن كنت والحمد لله من بيت

(٤٥) ورد في مسند أحمد: حديث بن عبدالسلمى أبي الوليد رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: "الخلافة في قريش، والحكم في الأنصار، والدعوة في الحبشة، والهجرة في المسلمين والمهاجرين بعد".

العدل فقد ندب الله تعالى إلى التذكرة قال جل من قائل: "﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الذاريات: ٥٥]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩]، وإذا صدرت التذكرة ووقعت الموعظة والتبصرة من أهل بيت واحد كانت أوقع في النفوس. وقد أودع الله سبحانه قلوبنا من المحبة لدينك الحرمين الشريفين، والحمد لله ما لا يكيف (هكذا)، وجبلنا على الرحمة والشفقة على سكانهما بما لا يوصف، نرجو من الله أن نفوز بذلك يوم القيامة، ومع هذا فالرجل لا تتوق نفسه إلى مسألة يخاطب بها ولا إلى نصيحة يؤديها إلا إذا عرف من نفسه أنها خالصة لوجه الله الكريم، وعرف ممن يخاطبه بها أنه يقبلها. فإن النصيحة كالحكمة التي قال فيها رسول الله ﷺ: "لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها [٧]، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم"، وأي فائدة وحكمة تكون أو تطلب ككلمة ينفع الله بها جمعا من المسلمين، وقد كنت قبل هذا في ولاية تلك الأماكن الشريفة، وسعدت بك وبأبيك من قبلك تلكم الأقطار كلها، إذ داركم دار الإمارة والمملكة والبركة يعرفها الناس قرباء أو بعداء بأسرهم، ويفدونها بأموالهم وأنفسهم، ثم كان من قدر الله ما كان، فأقمت سنين عديدة في غير أرضك ووطنك، وأصبحت مفارقا لأهلك وأولادك وسكنك، فليعتبر ابن عمنا بما فات عليه وليتذكر، قال الله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، ووالله ما أنجزنا إليك هذه الرسالة إلا حيث علمنا وتحققنا أنها تنفعك، وتقع منك إن شاء الله كل موقع، ويحصل لنا الأجر والثواب من أجلها، ولو كان غيرك ما كانت تطيب أنفسنا مخاطبته بمثل هذا الخطاب، ووالله إلا كان ذلك الرجل ابن عمنا أحمد بن غالب هنالك وإن كنتما [٨] متساويين في النسبة الشريفة، فلم تسكن له أنفسنا، ولا طابت بولايته خواطرنا، وإن كان هو يعرف حقنا، ولا يجهل قدرنا، ودائما كان يكاتبنا ويواصلنا، ويعمل الخير مع أبناء عمنا، ولقد كان ابن عمنا مولاي

عمر بن هاشم رحمه الله أيام قدومه للحجاز تعارف معه، واصطحبا، وعمل معه خيرا كثيرا، ولما جاء من هنالك أعاد علينا جميع ما عمله معه من الخير، ومع ذلك فلم نجبه عن كتبه إلا بمجرد السلام والمواصلة، وقط ما خاطبناه بنصيحة ولا أدرنا معه كلاما بما هو زائد على السلام الواجب رده بين الأنام، وأما أنت والله كانت نفوسنا تميل إليك وتأنس بك. وعندما بلغ وفد الحجاج أول ما سألنا شيخ الركب الشيخ الحسيني عنك، فبشرنا برجوعك لبلدك ووطنك، وأخبرنا بعودتك لذلك الحرم الشريف بولاية عملك، ففرحنا بذلك فرحا كبيرا، وسررنا والله سرورا كثيرا، وحمدنا الله لكم وشكرناه وأثنينا عليه [٩] بما هو أهله، وطابت نفوسنا بولايتك وسكنت خواطرنا من جهتك، واستشرفت قلوبنا إلى تهنئتك، ففكرنا في قدوم الحاج لتلكم البلاد، فرأيناه يبطؤ علينا، وألقى الله في خلدنا هذا الكلام، وكتبنا به إليك. والله ثم والله ما شرعنا في كتبه لك إلا في اليوم الثالث من قدوم الحاج، واخترنا للسفارة هذا الرجل الذي يرد عليك به إن شاء الله، وهو ربي (هكذا) نعمنا وصيفنا الحاج أحمد لما عهدناه فيه من الفائدة والنجدة والصبر، وقد كان قبل هذا بالبلاد المشرقية وجال في تلكم الأقطار، وتردد ما بين حواضرها وبواديها سفيرا وساعيا بين تجارها وأعيانها نحوا من ثمانية عشر سنة، فهو يعرف تلكم النواحي كلها، ويصبر للطريق برا وبحرا، إلى ما يضاف إلى ذلك من مداخلته معنا وملازمته في غالب الأوقات لنا، فمن لدن رجع من المشرق وهو متصل الخدمة بنا عارف بما لم يعرفه غيره من سيرنا، وهو واحد من الملازمين لأعتاب [١٠] دارنا العلية بالله، فاخترناه لهذه المسألة من هذه الحيثية، وبادرنا لك بهذا الكتاب معه اعتناء بك وتأدية لنصحك، وأرجو الله تعالى أن يقع منك موقعا ننتفع نحن بثواب أداء النصيحة وتجار (هكذا) إن شاء الله عليها، وتنتفع أنت بقبول ذلك وبالعمل به، ويكون بحول الله وقوته سلما وسببا بيننا إلى

مواصلة كبيرة واستدامة مودات كثيرة، ونجد معا بركة لذلك الحرم الشريف في أنفسنا وذريتنا. وقد أحببنا من الله ومنك يا ولد عمنا أن تحتزم (هكذا) لهذا الأمر، ولا تأخذك في الحق لومة لائم، وتكون على أهل الباطل فظا غليظا، وعلى المستضعفين والمساكين وأهل الخير شفيقا رفيقا، وتراعي الله عز وجل وحرمه ورسول الله ﷺ في حرمه، وأي حرمة كحرمة أمته وأهل شريعته وملته، ولا تدع فيه بوجه من الوجوه ملحدا ناظرا لقوله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وقال رسول الله ﷺ [١١]: "أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومتطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه"(٤٦)، وأن تحب الضعفاء والمساكين الواردين على تلكم المعالم والمشاهد بقلب شائق وحب صادق لقوله عليه الصلاة والسلام: "ابغوني (في) الضعفاء والمساكين؛ فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم"(٤٧)، وأن تنصب من يوصل إليك حاجة الناس لقوله عليه الصلاة والسلام: "أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغ حاجته، فمن أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه على الصراط يوم القيامة"، وانصر الله ينصرك، قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وتعرف أنك مسؤول عن رعيتك قال عليه السلام: "كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته"(٤٨)، وتحافظ على مصدوق (هكذا) قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ [١٢] عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، واخش واتق دعوة المظلوم؛ ففي الحديث الشريف: "اتقوا

(٤٦) أخرجه البخاري.

(٤٧) حديث صحيح، ورد في صحيح الترغيب والترهيب، ح ٣٠٢٦؛ ورواه أبوداود في "مشكاة المصابيح"، ح ٥٢٤٦؛ وفي صحيح الترمذي، ح ١٧٠٢. "جامع الأحاديث والآثار التي خرجها وحكم عليها فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني"، إعداد أحمد آل عبداللطيف، المكتبة الإسلامية عمان ط١، ١٤٢٢هـ.

(٤٨) حديث صحيح، رواه البخاري.

دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب"(٤٩)، وانظر لما أوصى به لقمان الحكيم ابنه حسبما أخبر الله تعالى عن حكايته، قال عز وجل: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٧ - ١٨]، وصل رحمك فقد قال ﷺ: "صلة الرحم تزيد في العمر"، ولا يخفى على سيادتك ما كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم في تلك الأماكن الشريفة، فاستقامت لهم الدنيا والدين، وصلحت بصلاح أحوالهم جميع أمور المسلمين، فالعدل حسن من جميع من ولاه الله من أمور أمة رسول الله ﷺ شيئا، وإذا كان من بيت النبوءة وجاء من بيت الطهارة كان أحسن، والعدل مطلوب ومستحسن في جميع الأقاليم وبقاع الأرض كلها، وإذا كان في [١٣] الحرمين الشريفين كان أشد استحسانا وأكثر غبطة. فولاية نحو يوم وليلة في ذلك الحرم يعدل الإنسان فيهما أحب إلى من نوَّر الله بصيرته من كلما (هكذا) يهواه ويتمناه، فنحب منك أن تأخذ بطريق العدل والحزم وحسن التدبير في جميع أحوالك وتكون ضابطا محتزما (هكذا) في كلما (هكذا) هنالك، فما كتبناه لك إلا ثقة بأخوتك وحمية على مروءتك وصحبة فيك واعتبارا بما فات عليك، والكيس من الناس من دان نفسه وقدم أمور دينه على أمور دنياه، وزهد فيما عند الناس رغبة فيما عند الله، والعاقل من نظر في العواقب فتدبرها، ونظر لما فات عليه من الأمور وتذكرها، ففي كلام الحكمة: تعاقب الأحفاد بما فعلته الأجداد، فلينظر أخونا وابن عمنا لنفسه وولده ويعمل بما يرضي ربه في بلده، فقد حملتنا محبة ذلك الحرم الشريف وإيثار ذلك الجناب الطاهر المنيف على تذكرتك ونصيحتك، وقد عودنا الله سبحانه التذكرة والنصيحة لجميع من عرفناه من المسلمين ووجدنا [١٤] (الصفحة الأخيرة مبتورة [١٥])".

---

(٤٩) في رواية أخرى: "اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب" متفق عليه.

الملاحق

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على [illegible]
من عبد الله المتوكل على الله الغني به عمن سواه [illegible]
أموره إليه المعتمد في سائر أحواله عليه إسماعيل بن [illegible]

إلى من تحلت الأيام بمحاسن شيمه وأجمعت الأقلام
دون مراقي همته الأرقى الأنقى الأزكى
أخينا وابن عمنا الشريف المحترم السلطان سعد
بن المقدس المرحوم بكرم الله السلطان زيد أسعدنا
الله وإياكم باتباع مناهج رشاده ووفقنا وإياكم
لمصالح بلاده وعباده سلام عليكم ورحمة
الله وبركاته ورضوانه الأعم وتحياته أما بعد
فقد كتبناه لسيادتكم وأنهيناه لمجادتكم [illegible]
ثابت الأساس وعهد جار في حب والمحبة على

الصفحة الأولى من الرسالة

الحرم الشريف كان يتبين استحسانا واكثر غبطة
فو كلاية ... يوم وليلة في ... لها الحرم يتعين الاحسان
فيهما أحب الى من نور الله بصيرته من كل ما يهواه
ويتمناه فيجب منها ان تتخذ بها بين العدل والحزم
وحسن التدبير في جميع احوالها وتكون ضابطها
محترما في كل ما منها لها ثم اكتساب لها الا شفقة
باخوتها وحمية على من تحتها ومحبة فيها واعتبار
بما وات عليها والكيس من الناس من دان نفسه
وقدم امور دينه على امور دنياه وزهد فيما عند
الناس رغبة فيما عند الله والعاقل من نظر في العواقب
فبنى ما ونظر لما يات عليه من الامور وشتهي ما
ففي كلام الحكمة تعاقب الاحقاد بما فعلته
اجداد فلينظر اخوتي وان عمنا لنفسه وولده
ويعمل بما يرضي ربه في بلده وقد حملنا محبة في هذا
الحرم الشريف وايثار في هذا الجناب الكريم المنيف
على تذكرتها ونصيحتها وقد عودنا الله سبحانه
التذكرة والنصيحة لجميع من عرفنا من المسلمين وحدثنا

الصفحة الأخيرة من الرسالة

الدبلوماسية الروسية في الجزيرة العربية والخليج العربي

أواخر القرن التاسع عشر - أوائل القرن العشرين

أ. د. فيتالي نعومكين

كان الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي (القرن الثالث عشر الهجري) فترة نمو في اهتمام الإمبراطورية الروسية بالعالم العربي والإسلامي بشكل عام وبالجزيرة العربية بشكل خاص.

وكانت روسيا ذلك الحين تتصارع في الشرق العربي مع منافستيها الدولة العثمانية وفارس على مجالات النفوذ، بيد أنه لا يجوز النظر إلى تصرف إمبراطورية روسيا حيال العالم العربي والاسلامي عمومًا وشبه الجزيرة العربية خصوصًا من خلال منظور المجابهة ضد الدول الأخرى أو التوسع حصرا، وقد وجه مسلمو روسيا أبصارهم نحو الأراضي المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة منتهزين أية فرصة سانحة لتأدية فريضة الحج، وقد أدى احتلال روسيا مناطق جديدة يقطنها مسلمون في القرن التاسع عشر الميلادي (القرن الثالث عشر الهجري) إلى زيادة تعداد المسلمين بين رعايا الإمبراطورية الروسية؛ مما أسهم ذلك بعناية المنطقة التي تقع فيها الأراضي الإسلامية المقدسة.

وكان اهتمام روسيا المتزايد بمنطقة شبه الجزيرة العربية والخليج العربي مرتبطًا كذلك بمصالحها التجارية - الاقتصادية، وكان أحد المسارات التي جرت عبرها الاتصالات بين روسيا والخليج مسار آسيا

الوسطى - الدولة العثمانية، وقد اكتشف ذلك المسار التاجر الروسي أفاناسي نكيتين في أعوام الستينيات والسبعينيات من القرن الخامس عشر للميلاد، وبعدئذ أخذ الروس يصلون إلى الجزيرة العربية عبر المسار الثاني بحر قزوين - بلاد فارس، وكذلك المسار الثالث عبر البحر الأسود والأبيض والمتوسط والأحمر.

وفضلاً عن البعد الإسلامي التجاري - الاقتصادي لاهتمام الإمبراطورية الروسية بالجزيرة العربية كان هناك أيضًا البعد العسكري - الإستراتيجي، وقد أصبح ملحوظًا بشكل خاص أواخر القرن التاسع عشر؛ حين أخذت روسيا تقوم بمحاولات المجابهة لا ضد منافستها التقليدية الدولة العثمانية وحدها، وإنما أيضًا ضد بريطانيا التي صارت تكتسب المزيد فالمزيد من الأهمية في المنطقة. وفي أواخر القرن التاسع عشر - أوائل القرن العشرين افتتحت في شبه الجزيرة العربية والخليج العربي واحدة تلو الأخرى القنصليات الروسية أولاها في البصرة وجدة، ومن ثم في بوشهر، وعدا هذا افتتح في سنة ١٩٠٣م (١٣٢١هـ) خط مباشر لنقل الركاب من ميناء أوديسا في البحر الأسود إلى الخليج العربي، وقد افتتحت القنصلية الروسية في جدة عام ١٨٩١م (١٣٠٨هـ)، ونظرًا لأنه لا يكاد يعرف أي شيء عن أعمالها في ذلك العهد يستحق الأمر تناول هذه الأنشطة ببعض التفصيل.

في يوم ١٢ أيار (مايو) من سنة ١٨٩١م (٥ شوال ١٣٠٨هـ) وجهت سفارة الإمبراطورية الروسية في مدينة أسطنبول تعليمات خاصة إلى المستشار الفعلي شاهيمراد إبراهيموف[1] لخصت فيها الغايات والمهام المنوطة بالقنصلية الجديدة، وقد ورد في تلك التعليمات أن أهم هدف من تأسيسها هو حماية حجاجها المتوجهين بأعداد كبيرة

(١) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. الرصيد التركي. الورقة ٥٠٢ ظهرها ١٨٩١، الملف ٣٣١٢، الأوراق ٤ - ١٣.

إلى التعبد في الأراضي المقدسة بمكة والمدينة(٢)، وأنيطت بالقنصل مهمة تنظيم مراقبة الحجاج "وفهم احتياجاتهم ومشاطرتهم إياها والدنو منهم في علاقات أقرب"، وفي الوقت عينه أفادت السفارة إبراهيموف بوجوب إعداده قواعد عامة لعلاقات القنصلية مع الحجاج وحقوقهم وواجباتهم تجاه رعايا روسيا. وأرسلت هذه الوثيقة لتصديقها إلى سانت بطرسبورغ، ولكن السفارة طلبت الشروع على الفور بالاسترشاد بها.

ورأت السفارة أنه من اللازم أن تحقق القنصلية المراقبة العامة على الحج وتأثيره على رعايا روسيا "وعلى المساعي المطلوبة في العلاقات معهم من قبل القيادة المحلية"، وبالأخص التأثير فيهم مما أدى إلى الاهتمام بحماية الحجاج من تأثير كهذا.

وكان يجب على القنصلية إعارة اهتمام خاص إلى رعايا روسيا الذين بقوا - بعد انتهاء موسم الحج في الجزيرة العربية للإقامة وأخْذ المال من أبناء الوطن، وليس من العسير التكهن بأن السلطات الروسية توافرت لديها معلومات ومعطيات عن الحجاج من المناطق الإسلامية في الإمبراطورية الذين تضرروا من تصرفات أبناء وطنهم المقيمين في الجزيرة العربية؛ إذ استغل بعض المحتالين موسم الحج لتنفيذ أهدافهم، وأكدت السفارة أن حمايتها قد أفاد منها لا رعايا روسيا وحدهم "بل ومعهم أهالي الإمارات الأخرى في آسيا الوسطى الذين تقدموا باحتياجاتهم إلى روسيا"(٣) غير أنه كان ينبغي اتخاذ الموقف على نحو مغاير إزاء أولئك المنحدرين من مناطق خارج حدود روسيا، ومن خانات آسيا الوسطى الذين قدموا إلى الحجاز لأغراض سياسية، وبعد مراقبة تصرفاتهم، ونوعية تفكيرهم تبيّن أنه يجب عدم دخول موظفي القنصلية معهم في "علاقات قريبة" حتى في

(٢) المصدر السابق، الورقة ٤ وجهًا وظهرًا.

(٣) المصدر السابق، الورقة ب ظهرها - ٧.

حالة سعي أولئك إلى السمو في أعين أبناء وطنهم "بهدف إنجاح جهودهم الرامية إلى نسف نظام الأمور القائم في الوطن". ويبدو أن الخشية كانت مرتبطة بالدرجة الأولى مع التصرفات المعادية المحتملة من العدو القديم للإمبراطورية الروسية الدولة العثمانية.

وتضمنت التزامات القنصلية التعرف على دروب انتقال الحجاج، وجمع المعطيات الإحصائية عن تعدادهم و"موطن أصولهم"، وكان يجب إيلاء العناية التامة إلى أقرب ميناء إلى المدينة المنورة - ينبع، وكذلك إلى الخليج العربي الذي كان يصل عن طريق موانئه قسم غير قليل من الحجاج. وطلب من القنصل في حالة ما إذا رأى أن ذلك الأمر ضروري أن يتعين وكلاء في بعض النقاط الأكثر أهمية، وإرسال التقارير بهذا الخصوص.

ومن المفهوم أن التأثير - الذي أبدي أثناء موسم الحج - في الحجاج من رعايا روسيا، ومن آسيا الوسطى قد مس بشكل مباشر مصالح السلطات الروسية، وضمنا في حالة توخيه الغايات المنظور إليها بصفتها معادية، غير أن السفارة لم تقتصر على مهام القنصلية في درس المشاكل المتعلقة بالحجاج من روسيا وخانات آسيا الوسطى، بل أرادت معرفة كذلك التأثير الذي تخلفه الرحلة إلى مكة والمدينة في رؤية الشعوب المسلمة بوجه عام، والأهمية التي اكتسبها لقب الخليفة العائد إلى السلطان العثماني، و"إلى أي حد يحظى بالتبجيل في شتى أوساط المسلمين من غير رعايا الدولة العثمانية، وكذلك مدى أهميته في أعينهم، ووضعه السياسي بصفته حاكمًا لإمبراطورية تنتمي إلى مصاف الدول الأوروبية"(٤).

وهذه التعليمات تبين كذلك أن الدبلوماسية الروسية كانت تنظر إلى الحج من خلال مؤشر العلاقات الروسية - العثمانية، ومع النظر

---

(٤) المصدر السابق، الورقة ٨ ظهرها - ٩.

إلى إمكانية استغلاله من قبل العثمانيين بغية إشعال التناقضات بين الطوائف الدينية داخل الإمبراطورية الروسية نفسها.

وقد أكدت السياسة مخاوف السلطات من المعلومات التي أوردها النقيب دولتشين المرسل إلى الحجاز في مهمة من قبل هيئة الأركان العامة الروسية، ومما أفاد به ضمنا عن شخص أقام في المدينة المنورة أصله من تتر محافظة إستراخان هو عبدالستار الذي شيد في المدينة المقدسة - بالتبرعات المجموعة في روسيا - مدرسة دينية كان يسكن في أروقتها حجاج من روسيا، وإذا توفي أحد ما منهم؛ فإن ممتلكاته ونقوده كانت تخفى "بشكل مخالف تمامًا للضمير"، وكانوا يتصرفون على هذا النحو أيضًا تجاه تلامذة المدرسة، وقد حاول عبدالستار وأقرب مساعديه - كما كتب دولتشين - "الإيحاء بكل السبل إلى أنصاره المقيمين في روسيا بأن الهجرة؛ أي: الانتقال إلى دولة تحكمها قيادة إسلامية تشكل واحدة من التزامات كل مؤمن"(٥). وكتب دولتشين كذلك ضمن تقاريره أن الشيخ عبدالقادر المدني وضع - بتكليف من عبدالستار ومساعديه - كراسة تؤكد هذا المفهوم معتمدة على آيات القرآن الكريم؛ لإرسالها إلى روسيا حيث "يمكنها إثارة" الغليان بين قسم معين من السكان المسلمين(٦). "وعلى أية حال فإن التتر القاطنين في تلك المدينة المقدسة عاشوا على نفقة إخوتهم الحجاج من روسيا الذين خدموهم إبان مكوث أولئك في الحجاز، وسافروا إلى روسيا لجمع الصدقات"، وتسنى لدولتشين أن يعثر على مهاجر واحد فقط هو تاجر ثري سابق فرَّ إلى المدينة المنورة هربا من الإفراط في

أكدت السياسة مخاوف السلطات من المعلومات التي أوردها النقيب دولتشين

(٥) تقرير النقيب دولتشين عن إيفاده إلى الحجاز. سانت بطرسبورغ. المطبعة العسكرية سنة ١٨٩٩م، ص ٥٧.

(٦) المصدر نفسه.

الشراب "وهو الذي لم يهتم بأمر الحجاج وكسب خبزه وقوته بعرق جبينه"[٧].

وعلى هذا فإن استيضاح كل عواقب تأدية الحج من قبل الحجاج من روسيا بمساعدة موظفي القنصلية استهدف جمع المعلومات وتحليلها سواء عن تصرفات الدولة العثمانية المحتملة غير الودية تجاه روسيا، أو الأخطار الممكنة بحدوث قلاقل بين المسلمين في روسيا.

وارتباطا بالمهام المشار إليها أعلاه لم يكن بمحض الصدفة أن تناط بالقنصلية مهمة تحديد "القدر العام من سلطة السلطان في الجزيرة العربية والأراضي المتاخمة والمصاقبة لها"، وإشارات السفارة إلى أن إبراهيموف وهو نفسه المسلم المسموح له بزيارة الأراضي المقدسة كان متمتعًا بقدرة نادرة على إقامة الصلات اللازمة، ودراسة الواقع المحلي غير أنه قد تطلب منه إبداء منتهى الاحتراس "لئلا يغدو بالمرة عرضة لتهجمات المهاجرين الخطرين والماكرين، ولا يوقظ الآمال غير المتحققة بين السكان"[٨]. وعدا استيضاح متانة موقع الدولة العثمانية عند الحجاج طلب من إبراهيموف إعارة عناية خاصة إلى "السياسة التي تنتهجها بريطانيا في هذه الأمكنة". وأفادت تعليمات السفارة القنصل بأن بريطانيا العظمى "تستغل الحج وسيلة لتقارب المسلمين من رعاياهم مع العرب". وفي رؤيتنا أنه لا يمكن وقوع مثل هذا التوسع في أهمية بريطانيا في العالم الإسلامي وفي الشرق عمومًا[٩]. "وفي الوقت نفسه لم تستطع التأمل في قذف التحدي الجاد في وجه بريطانيا غير أن مهمة تحجيم التأثير البريطاني وعرقلة نموه كانت تمامًا في استطاعة الدبلوماسية الروسية. ولأجل هذا تعين على القنصل أن يطرح سواء الموقف

---

(٧) المصدر السابق، الورقة ٥٦.

(٨) أرشيف السياسة الخارجية للأمبراطورية الروسية، الملف، ٢٣١٢، الورقة ١٠.

(٩) المصدر السابق، الورقة ١١.

الطيب الذي تبديه نحو الإسلام الدولة الروسية وحكومتها أم أيضًا رغبتها في الحفاظ - وسط العالم الإسلامي - على نظام الحكم الحقيقي الأكثر انسجامًا مع حاجاته. وتوخي بهذا الهدف أيضًا اكتساب ثقة السلطان العثماني الذي سيثمن مودة القيصر الروسي، ويتخذ إزاءه موقف "الإخلاص الصريح بصفته حليفًا وفيًا".

ودخلت في دائرة أنشطة القنصل المعين حديثًا - وفقًا للتعليمات أيضًا - مراقبة حالة العلاقات بين الحجاز واليمن، وكذلك الوضع في نجد[١٠]. وأكدت رسالة التعليمات أنه تقع في تبعية أكبر إلى بريطانيا أراضي سلطان مسقط وإمام عمان والأراضي الخليجية الساحلية الأخرى. ومع أنه لم يكن ممكنًا الدخول معها في علاقات مباشرة فقد كان واجبًا على القنصل استغلال "قدوم الشخصيات المتنفذة من هناك لتأدية الواجبات الدينية والتعرف تدريجيًا بها، واكتساب الثقة لديها، والاحترام والتوصل إلى بعض التأثير فيها"[١١].

وأشارت السفارة إلى أن إقامة أمثال هذه الصلات من شأنها أن تخدم من جهة "إضعاف جاذبية البريطانيين القوية جدًا في هذه الأمكنة، وفي الوقت ذاته كسْب التأثير في السلطان العثماني الساعي إلى الحفاظ على سلطته هناك، وحتى توسيعها وهو الذي تعد صداقته أمرًا مرغوبًا فيه دومًا، ويمكن أن تكون نافعة لنا في حالة التعقيدات في الشرق المتوقع حدوثها"[١٢].

واستغلالاً للتناقضات ما بين الدولة العثمانية وبريطانيا علقت الدبلوماسية الروسية آمالها على توهين كلتا الدولتين، والتقليل من الخطر الناجم ضد بلادها في الاتجاه الجنوبي، وكذلك التوصل إلى توفير الظروف الأكثر ملاءمة ومواءمة لأنشطة روسيا ورعاياها في

(١٠) المصدر السابق، الورقة ١٢.

(١١) المصدر السابق، الورقة ١٢ ظهرها.

(١٢) المصدر نفسه.

الشـرق الأوسط. وليس من الصـدفـة أن القنصل قـد كلف بوجـوب توجيـه العناية المركزة إلى ظروف التجارة عـمومًـا والروسـيـة بشكل خـاص، ثم إطلاع الحكومـة الإمبـراطورية على تصـوراته وحسـاباته بخصـوص إمكانات تسـويق البضـائع الروسـيـة، وإقـامـة العـلاقـات التجارية بين روسيـا والحجاز، والتي نظر إليها كذلك بصفة الموصل الرئيس للنفـوذ السـيـاسي. وكلف القنصل بإقـامـة أفضل العـلاقـات والصـــلات مع السلطات المحليـة؛ بغـيـة تأمين الظروف للذود عن المصالح التي أنيطت به حمياتها.

وإذ توجه إبراهيموف نحو محل تعيينه بدأ وهو ما يزال في مصر، حيث مر بها في طريقه إلى جدة مقر عمله التمثيلي والاستعلامي. وفي الإسكندرية قدم القنصل إلى الخديوي الذي "أبدى إعجابه الكبير بصدد تعيين شخص مسلم" في منصب القنصل. وأفاد إبراهيموف أنه وفقًا لرأي الخديوي؛ فإن الطريق إلى المدينة المنورة عبر ميناء ينبع خطر وغير مريح للغاية بالنسبة إلى الحجاج من حيث طوله وانعدام الماء فيـه(١٣)، وطلب الخديوي من القنصل إقناع شـريف مكة بنقل موقع نزول الحجـاج من ينبع إلى رابغ عند منتصف الطريق ما بين جدة وينبع وهو ما سبق أن طلبه الخديوي من الشريف بلا جدوى.

وصل القنصل إلى جدة في عام ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٦م على متن باخرة للشـركة الخـديوية تحت الراية القنصلية الروسـيـة، وكان متـأثرًا خصوصًا بالاستقبال الذي أُبدي له من قبل رعايا روسيا "الذين تقدموا إليَّ على الطريقة الشرقية مادين لي اليدين معا في آن واحد للمصافحة، ومسحوا بعد هذا براحتي اليدين على الوجه دليلاً على التوقير الكبير لي والاحترام"(١٤). وتقليد المراسيم الدبلوماسية في

---

(١٣) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي. رقم التصنيف ٤٨٢، الملف ٧٧١، الورقة ٢.

(١٤) المصدر نفسه، الورقة ٤.

ذلك الوقت نفسه يتمتع اليوم بغير قليل من الاهتمام والطرافة. عند وصول القنصل دارت له محادثة قصيرة في مكتب الديوان مع قائم مقام جدة الذي قدم إلى القنصل باسم الرئيس صهوة جواد. ولم يربك القنصل قيظ حزيران (يونيو) الخانق. "قمت مرتديًا معطفًا عسكريًا أبيض، ومعتمرًا خوذة بيضاء ذات حافة أمامية بأول رحلة لي في المدينة على ظهر حصان بخطى وئيدة، وبرفقة مندوبين عن جميع القنصليات [وكانوا في استقبال القنصل الروسي في الميناء] مرتدين البزة الرسمية وفي أيديهم القضبان المعدنية"(١٥)، واستقبل التجار الجالسون في دكاكينهم والأهالي الدبلوماسي "بالقيام والوقوف مع رفع الأيدي ووضعها على الهامة".

وفي مكان السكن بدأ إبراهيموف رأسا باستقبال الزوار الذين أبدى لهم عزمه على التوجه إلى مكة المكرمة. وسرعان ما تقدم إليه عشرة أشخاص من "الوكلاء" مقترحين "تسجيله في أية شركة سياحية للقيام بالرحلة إلى مكة". واستوضح القنصل أن هؤلاء الوكلاء يعينون الأدلاء الذين يقسمون جملة الحجاج القادمين حسب القوميات، ويصطحبونم إلى الطريق إلى مكة. ويخضع الحجاج لسطلتهم الكاملة، ويتعرضون من جانبهم إلى أنواع المشاكل كافة، وبالطبع رفض القنصل الإفادة من خدماتهم.

وسرعان ما استقبل إبراهيموف قائم مقام جدة خورشيد باشا، وتلقى برقيتين تهنئة من والي الحجاز إسماعيل حقي باشا وشريف مكة. وفضلا عن هذا تلقى خبرًا من "المحكمة التجارية" المحلية بصدد النظر في كافة الدعاوى التي يشارك طرفا فيها رعايا روسيا والدعوة للحضور أثناء المرافعات القضائية فيها من قبل موظفي القنصلية. وتعرف إبراهيموف كذلك على قناصل الدول الأجنبية الأخرى في جدة وباشر التعامل معهم. وكتب إبراهيموف بأن

(١٥) المصدر السابق، الورقة ٤ ظهرها.

الاستقبال الذي أبدي له ومراسيم الاحتفال بقدومه إلى جدة، وامتطاء صهوة الجواد بما لم يسبق له مثيل بالنسبة إلى جميع القناصل الآخرين "يؤكد قناعة السكان المحليين بعظمة روسيا، وحتى الانتشار في وسطها للرأي القائل بأن القيصر الروسي الأبيض هو أقدم قيصر بين جميع القياصرة والحكام في الكرة الأرضية بأسرها"(١٦). وطلب القنصل من الرئاسة السماح له بمناسبة قدومه بإقامة وليمة لجميع رعايا روسيا.

ولدى الإفادة باقتراب موعد حلول عيد الأضحى كتب القنصل أنه يجتمع في مكة ذلك اليوم ما يقارب (١٣٠,٠٠٠) شخص. وحلل القنصل في تقاريره الأولى مشاكل الحجاج من الإمبراطورية الروسية، التي اتضح أن معظمها يرتبط بمصاعب الطريق عبر أفغانستان وبشاور والهند، وقد يكون التأخير أحيانًا في ختم جوازات السفر "أو بدون أية أسباب على الإطلاق".

ولم يتح لإبراهيموف نشر العمل في الحجاز فلقد توفي يوم ١٠ تموز (يوليو) عام ١٨٩١م (٤ ذي الحجة ١٣٠٨هـ) ولاحقًا لم يعين في هذا المنصب مسلم.

بيد أن أعمال قنصلية الإمبراطورية الروسية تواصلت، واحتوت المراسلات الدبلوماسية الروسية آنذاك معطيات طريفة ومهمة بصدد تجارة الرقيق في الحجاز، وأعلم سكرتير القنصلية نكيتنيكوف في تقريره بتاريخ ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة ١٨٩٢م (٢٢ ربيع الثاني ١٣١٠هـ) بأنه قبل نصف عام في جدة إثر فرض الحظر على بيع العبيد والإماء وشرائهم؛ شكلت محكمة خاصة للنظر في القضايا حول عتق من سبق بيعهم من الرقيق، غير أن السلطات المحلية قامت - خفية - بإعادة بيع العبيد الذين أعتقتهم المحكمة المذكورة

---

(١٦) المصدر السابق، الورقة ٦ ظهرها.

"لصالحها"(١٧)، وعلاوة على حوادث الاستغلال والارتشاء الأخرى للسلطات أثار هذا نقمة قوية بين القبائل العربية. واستنبط سكرتير القنصلية الاستنتاج بأن منع العبودية دون استئصال هذا الشر لا يلحق الضرر إلا بالبدو الذين زاولوا تجارة الرق.

وهؤلاء البدو الناقمون قاموا بقطع (كيبل) الهاتف المفضي إلى سواكن، والأسلاك (التلغرافية) بين جدة ومكة والطائف، وكذلك صاروا ينهبون القوافل بنشاط، وأرسلت السلطات القوات؛ لتنظيم دوريات حراسة على الطريق من مكة وجدة، وشددت حامية جدة.

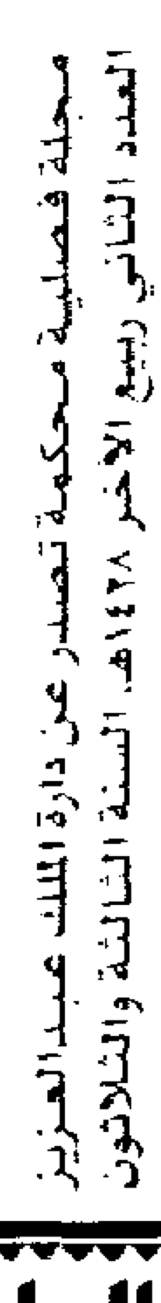
والأمر أشبه ما يكون بأن الدبلوماسي لم يتمرس جيدًا بعد في فهم الواقعيات المحلية، فهو مثلاً يعلم عدم رضا السكان المحليين عن شريف جدة الذي "اتسم بالظلم والقسوة"(١٨)، وليس معروفًا لدى ذلك ما إذا كان يقصد شريف الحجاز القاطن أساسًا في مكة أم قائم مقام جدة. مهما كان من أمر فقد قيل عن هذه الشخصية النظامية إنها تستخدم "بعض الأشخاص الذين يقومون وفقًا لأوامره بأعمال السلب والنهب ويشاطرونه الغنائم".

وكانت موضع اهتمام القنصلية بالطبع التعيينات والتنقلات بين الشخصيات النظامية الرئيسة في الولاية. وقد أخبر مدير إدارة القنصلية براندت السفير الإمبراطورية أن القائم بأعمال قائم مقام جدة سلم يوم ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٩٤م (٧ جمادى الأولى ١٣١٢هـ) هذا المنصب إلى القائم مقام الجديد محمد عساف أفندي الذي هو محسوب والي الحجاز حسن حلمي باشا وصنيعته(١٩)،

(١٧) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي. رقم التصنيف ٤٨٢، الملف ٧٧١، الورقة ٤٧.

(١٨) المصدر السابق، الورقة ٢١.

(١٩) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي. رقم التصنيف ٤٨٢، الملف ٧٧١، الورقة ٤٠.



وقد صرح عساف أفندي بأنه يزمع فعل الكثير لتحسين ظروف المعيشة في جدة، وقرر تمديد (الكورنيش) الذي بديء به مؤخرًا، والذي كان يستخدم لنزول الحجاج.

وفي يوم ١٠ شباط (فبراير) سنة ١٨٩٥م (١٥ شعبان ١٣١٢هـ) أفاد براندت بوصول حلمي باشا إلى جدة من مكة يوم ٢٠ كانون الثاني (يناير) (٢٤ رجب) لدى عودته إلى الحج. وقد هنأ السكان المحليون الباشا بترقيته مؤخرًا إلى رتبة مشير. وتحدث براندت عن لقاءاته مع حلمي باشا التي من ضمنها زيارة الباشا إلى القنصلية الإمبراطورية والاحتفال بيوم ميلاد السلطان. وذكر براندت أن الوالي الجديد تميز في الجانب الأفضل عن سابقه أحمد راتب باشا الذي لدى قدومه إلى جدة لم يقم بزيارة القناصل، و"أهمل مطالبهم العادلة"[٢٠]، وأعرب براندت عن الأمل في أنه إذا لم تشل نوايا حلمي باشا الطيبة من قبل شريف مكة والشخصيات الأخرى المهتمة باستغلال الحجاج؛ فإن القنصلية سوف تتاح لها إمكانية إسباغ الحماية على رعايا روسيا الذين يؤدون فريضة الحج.

وكان حظ الخدمة في جدة لبعض الدبلوماسيين الروس مأساويًا. ففي أحد أيام آيار (مايو) سنة ١٨٩٥م (ذي القعدة ١٣١٢هـ) هاجم البدو مدير إدارة القنصلية براندت ومجموعة من موظفي القنصلية الأخرى أثناء قيامهم بنزهة. وأصيب براندت بجرح ناري خفيف في وجهه، وقتل طبيب القنصلية البريطانية، وأصيب آخرون بجراح أو صدمة عصبية. وتوجه براندت لغرض التداوي إلى مدينة السويس. وعدَّت السلطات أن المهاجمين الذين تسنى لهم الاختفاء عبَّروا بهذا التصرف عن عدم رضاهم عن تدابير إدارات الحجر الصحي ضد وباء الكوليرا. وفكر السكان المحليون "بأنها كانت تدلق الدواء من

(٢٠) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي. رقم التصنيف ٤٨٢، الملف ٧٧١، الورقة ٤٧.

الأحقاق والأنابيق، وتجري عملية التبخير؛ وهو ما يسبب وفاة البدو والحجاج"(٢١). والبدو الذين شعروا بالحقد على الأطباء خربوا في مكة مقر العيادة الطبية، وجهاز التطهير من العدوى فيها، وبحثوا عن أطباء الحجر الصحي الذين اختبؤوا في القلاع المكية. وأفادت القنصلية كذلك بأن هذه الأحداث كانت قد سبقت بنقمة التجار المحليين والبدو من فرض الحظر على البيع في السوق للبطيخ الأحمر والأصفر، "وقد اصطحب ذلك بأعمال العنف ضد أطباء مكة".

وفي ذلك الوقت نفسه اعتقدت القنصلية بأنه إذا كان سبب الهجوم السعي للانتقام من الأطباء لكان أكثر انجسامًا مع المنطق شنه لا على الدبلوماسيين - الذين كان بينهم طبيب واحد فحسب - وإنما على مجموعة الأطباء الذين كانوا عادة شأن الدبلوماسيين يتجمعون معا ولكن في موضع آخر. ولهذا طرحت رواية تقول: إن سبب الهجوم يكمن في "رغبة أشخاص معادين للشريف في إحداث ما ينغص عيشه"(٢٢). وشكا السكرتير نكيتينكوف غياب المعلومات الوثيقة ذاكرًا ذلك السبب المعهود لدى الموظفين الروس في الخارج: "وهو أن المعلومات تقليدية، ومع ذلك لا يرغب في الإفادة بها الأشخاص المقربين إلى القنصلية لعدم أهمية المحتوى المحصول عليه" و"بنتيجة الخشية من أية عواقب أخرى عليهم"(٢٣).

وفضلاً عن ذلك أفاد الترجمان إيمايف بأنه كما يدعي سمع أن الأمير ابن رشيد "بعث إلى المدينة شيوخًا عنه ينقلون مطالبة الوالي

(٢١) تقرير سكرتير القنصلية بتاريخ ٥ حزيران (يونيو) سنة ١٨٩٥م (١٢ ذي الحجة سنة ١٣١٢هـ) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي ٤٨٢، الملف ٧٧١، الورقة ٥١ ظهرها.

(٢٢) المصدر السابق، الورقة ٥٣.

(٢٣) المصدر السابق، الورقة ٥٣ ظهرها.

بطرد أصحابه الكفار من الأراضي المقدسة"(٢٤)، وتحدث الترجمان كذلك عن هجوم السكان المحليين على المستشفى، وقيامهم بتحطيم الصيدلية والأشياء النفيسة، وأخذهم الأوعية، وجرهم للمرضى من أرجلهم جراً. وعدا ذلك ما أفاد به إيمايف من أخذ "أشخاص مغرضين" عقب شن الهجوم على القناصل كانوا يروجون بين الحجاج شائعة عن عدم الحصول على ودائعهم من القنصلية، وبعد المفاوضات فقط مع "الشيوخ الطشقنديين" تسنى للمترجم إقناعهم بصرف النظر عن استرجاع النقود التي دفعوها.

وتشهد هذه المعطيات على المكائد والدسائس التي تحاك ضد القنصلية الروسية، وأسهم فيها بمشاركة نشيطة ضمنًا المنحدرون أصلاً من الأقاليم الإسلامية في الإمبراطورية الروسية، وبالدرجة الأولى آسيا الوسطى والذين صاروا من رعايا الدولة العثمانية.

ورأت السلطات العثمانية في الهجوم على القناصل واحداً من أعراض تمرد البادية؛ فقررت تلقين البدو درسًا من خلال اعتقال أكثر من ثلاثين بدويًا من قبيلة حرب بضمنهم واحد من كبار شيوخها. وعلاوة على ذلك حظر على تجار الحجاز جميعًا أن يبيعوا للبدو الرز والدقيق والمواد الغذائية الضرورية الأخرى ضمن حدود أراضي المدن. ولحظت القنصلة لدى إخبارها بذلك السفارة في إسطنبول أن أمر اعتقال البدو المفاجئ، ومنع بيع المواد الغذائية قد فسر برده إلى "رغبة السلطات في أن تكون لديها رهائن منهم لوقت الحاجة، ومع الجوع سيسهل إقناع البدو بتسليم الأشخاص المذنبين في الهجوم"(٢٥).

(٢٤) التقرير المؤرخ في ١٤ حزيران (يونيو) سنة ١٨٩٥م (٢١ ذي الحجة سنة ١٣١٤هـ)، أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي ٤٨٢، الملف ٧٧١، الورقة ٥٧.

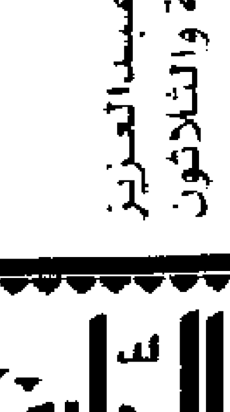
(٢٥) التقرير المؤرخ في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٩٥م (١٠ جمادى الثانية سنة ١٣١٣هـ)، أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي ٤٨٢، الملف ٧٧١، الورقة ٦٠ ظهرها.

بيد أن التدابير المتخذة لم تخفض مستوى الاضطرابات في العلاقات بين البدو والسلطات العثمانية. وفي جدة ارتفعت أسعار المواد الغذائية والوقود وكراء الإبل. وأفادت القنصلية بأن البدو المقيمين في ضواحي رابغ طالبوا بإخراج الأتراك من هذه المدينة؛ مما أدى إلى استدعاء تعزيزات إلى هناك ولدى ذلك شددت الحاميتان في مكة وجدة. وقدر الوضع في الحجاز في تلك الفترة بأنه خطر على الأتراك، ورأوا أن مشاعر عداء البدو كما قدرت القنصلية قد اكتسبت طابعًا أكثر حدة، وازدادت نقمتهم على الشريف[٢٦]. وفي سنة ١٩٠٠م (١٣١٧هـ) أفاد القنصل الروسي فون تسيمرمان عن نقص الماء في جدة "وفشل المحاولات؛ لإقامة منظومة صحيحة هناك لإسالة الماء لمقاومة مالكي الصهاريج (الفناطيس)". وفي غياب تسيمرمان في حزيران (يونيو) سنة ١٩٠١م (صفر ١٣١٩هـ) كتب مدير إدارة القنصلية كما كان يسمى حينذاك القائم بالأعمال بدرجة المستشار المفوض توخلوكا إلى السفير في إسطنبول "أن جدة تتزود بالماء قبل كل شيء من الفناطيس (الصهاريج) التي يعمد أصحابها أثناء موسم الحج إلى سرقة الأموال من جيوب الحجاج دون وازع من ضمير بإعطاء الماء لقاء سعر مرتفع جدًا"[٢٧]. وكانت الصهاريج (الفناطيس) سيئة؛ مما جعل الماء غير صافٍ بالدرجة المعهودة.

غير أن الفناطيس لم تكن لتمتلئ بالماء إلا في موسم الأمطار. وأفاد توخلكا بأن الماء في وقت الجفاف كان يؤخذ كذلك من آبار غير كبيرة، أو من الحفر التي تحفر خارج المدينة على مسافة ساعة أو ساعة ونصف من الطريق؛ نظرًا لأن المياه الجوفية لا توجد بكمية كافية

(٢٦) المصدر السابق، الورقة ٦١ ظهرها.

(٢٧) ٨ حزيران (يونيو) سنة ١٩٠١م (٢١ صفر سنة ١٣١٩هـ)، أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي ٤٨٢، الملف ٧٧٥، الورقة ٧.



إلا في ضواحي جدة، وقد تطلب حفر الحفر، ونقل الماء كثيراً من الجهود؛ ولهذا فإن هذا الماء كان مكلفًا وعليه كان يباع بثمن مرتفع.

ولكن حتى في الأعوام ذوات المطر الغزير لم تكن المياه كافية للحجاج. وخلال موسم الحج الذي سبق تحرير ملحوظات توخلوكا كانت الأمطار قليلة. وبيع الماء بسعر ١٥ فرنكًا مقابل الطن الواحد وكان "رديء النوعية"[٢٨]. وكان احتياط الماء المجلوب من الحفر خارج المدينة - في ذلك الوقت - يملأ أربعة صهاريج فقط. وفي العام التالي وافق عيد الفطر أن يكون في شهر آذار (مارس)، وكانت الأمطار تهبط على جدة عادة في شهري تشرين الثاني (نوفمبر) وكانون الأول (ديسمبر)؛ ولهذا كانت في انتظار الحجاج فترة عطش ونقص مياه.

وأفاد الدبلوماسي الروسي أن جدة كانت في السابق تتزود بالماء من منظومة إسالة الماء المسماة بالحميدية من خزان المياه الواقع على مسافة ساعتين من الطريق عن المدينة. غير أنه في سنة ١٩٠١م (١٣١٨هـ) لم تخرج منظومة إسالة الماء ولا قطرة ماء واحدة؛ لأنها تعطلت عن العمل بسبب تلفها، وكذلك لأن منسوب الماء في الخزان لم يكن على الارتفاع الكافي المطلوب.

وأفاد توخلوكا بأنه في أواخر عام ١٩٠٠م (أوائل ١٣١٨هـ) حفرت أربعة آبار جوفية لمنظومة "نورتون"، ولكن عقب مرور تسعة أشهر كان اثنان منها غير صالحين، أما الاثنان الآخران فكان مردودهما لا يكفي. ولحظ الدبلوماسي أن هذا الطريق ربما يكون له مستقبل في حالة تقديم أنابيب كبيرة القطر ومضخات جيدة وقوية. وتتجلى السمة لهذا الطريق في أن مصادر تزويد المياه تقع داخل حدود المدينة نفسها.

---

(٢٨) المصدر السابق، ص ٨.

ومن الطريف أن الدبلوماسي الروسي أعطى ضمن تقريره إلى السفير النصائح والتوصيات إلى السلطات العثمانية قائلاً: "أبدًا من المرغوب فيه لو أن الحكومة العثمانية حرصت على ضمان تزويد جدة بالماء"(٢٩)، وحتى حاول

من الطريف أن الدبلوماسي الروسي أعطى النصائح والتوصيات إلى السلطات العثمانية

توخلوكا إقناع القنصلين البريطاني والفرنسي بالسعي معًا إلى إقناع العثمانيين "بإنشاء منظومة إسالة صحيحة في جدة تضمن حسن تزويدها بالماء" ولكن عبثًا ودون جدوى، وذهبت جهوده سدى وأدراج الرياح؛ وذلك لأنهما كانا يريان أن أي تحسين لظروف الحج لم يكن متناسبًا مع مصالح الدول الأوروبية، وعدًّا من المناسب والضروري انتهاز أية فرصة سانحة لمنع الحج أو تقليصه ما أمكن. وإذ عارض توخلوكا موقفًا بالغ السوء كهذا توصل وفق الأسلوب المعهود والمألوف لدى الدبلوماسيين في ذلك الزمان الى استنباط الاستنتاج الآتي: "يخيل إلي أن منع الحج، أو تقليصه بسبب النواقص وسوء التصرف بشأن تزويد مدينة جدة بالماء؛ مما يبعث العديد من المزعجات والمنغصات"(٣٠)، ويتراءى وراء هذه الآراء ويستشف من خلالها الموقف السياسي لتوخلوكا نفسه الذي يملك وجهة نظره الخاصة بشأن الكيفية التي ينبغي بها حل مشاكل الحجاز، وكيف يجب أن تبنى السياسية الروسية تجاه هذا الإقليم. ويجدر عمومًا التنويه بأن معظم الدبلوماسيين الروس الذين اشتغلوا في جدة تجاوزوا نطاق أطر واجباتهم المباشرة، وما أكثر ما وجهوا إلى المركز اقتراحاتهم بشأن سياسة روسيا، وحرروا تقارير وافية وطويلة فوق العادة مثلاً عن الحجاج.

وبتاريخ ٢٥ تموز (يوليو) سنة ١٩٠١م (٩ ربيع الثاني ١٣١٩هـ) أبلغ توخلوكا ضمن تقريره السري إلى السفير في إسطنبول تصوراته

(٢٩) المصدر السابق، ص ٩.

(٣٠) المصدر السابق، ص ١٠.



بصدد المهام في الحجاز، وهو شأن السكرتير الآخر في السفارة قبله نكيتينكوف؛ إذ كان يحاول أثناء تنفيذه واجبات القنصل استرعاء انتباه الرئاسة إلى نفسه بالأفكار والاقتراحات المتعلقة بسياسة الإمبراطورية الروسية في الحجاز. وبغية دراسة السياسة الروسية لتلك الحقبة من الزمن في المنطقة فإن آراء الدبلوماسي - الذي اشتغل هناك - تمثل أهمية للأمراء فيها، لا سيما وأنها تعتمد على تقييم الوضع في الحجاز. وقد كتب توخلوكا عن المهمة المزدوجة:

"١ - العمل ما أمكن على سلب مكة أهميتها، أما المراقبة الحالية فهي لا تؤثر بالشكل المطلوب في الأراضي التي يقطنها مسلمون من بلادنا.

٢ - مراعاة ألاَّ يغدو المسلمون عندنا أثناء فترة الحج ضحية حوادث النهب والسلب أو فريسة الاستغلال أو عرضة للظروف الصحية السيئة"(٣١).

وإذا كان إنجاز المهمة الثانية يبدو قضية واقعية تمامًا فإن الأولى تولد وتطرح غير قليل من الأسئلة وضمنا حول ماهية الوسائل والسبل التي يمكن تحقيقها بها. وقد حاول واضع التقرير إعطاء الجواب مقترحًا أن بلوغ هذه الغايات ممكن عن طريق الدولة العثمانية. وعند الحديث عن "الاقتراح المعاكس"؛ أي: احتمال التأثير مباشرة في شريف مكة والعرب والبدو "الأمر الذي من شأنه أن يعني افتراض انفصال الحجاز عن الدولة العثمانية" كتب توخلوكا أنه ليس مرئيًا بعد أن الدولة العثمانية عاجزة عن الاحتفاظ بالحجاز، ولكن حتى في حالة حدوث هذا الأمر في رأي السكرتير ستكون ثمة عقبات تحول دون التأثير المباشر على الحجاز وهي بالذات:

"١ - بين القبائل البدوية عداء بصفة دائمة.

---

(٣١) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي. سنة ١٩٠١م (١٣١٨هـ)، رقم التصنيف ٤٨٢، الملف ٧٥، الورقة ١٠٠.

٢ - العنصر العربي في الحجاز هو الذي يتمثل بالذات جذر النزعة الإسلامية الشاملة نحو الوحدة الإسلامية.

٣ - لكي يكون التأثير فاعلاً ربما يتعين اللجوء إلى القوة العسكرية"[٣٢].

وفي مثل هذه الحالة سيتعين على الدول - علاوة على ذلك التصرف معًا؛ وذلك لأن إحدى الدولتين لن تسمح بالاستحواذ على السلطة في الحجاز للدولة الأخرى (وكان المقصود بهما روسيا وبريطانيا)، وعدا ذلك كل دولة لديها رعايا مسلمون - أن تحترس من إثارة التعصب الإسلامي ضدها لوحدها.

وتوصل سكرتير السفارة الى استنباط الاستنتاج الآتي: "أفضل شيء هو بقاء الحجاز في أيدي العثمانيين؛ وذلك لأن روسيا سوف تمتلك الفرصة والإمكانية للتأثير في الدولة العثمانية في إسطنبول. غير أنه من المهم لأجل هذا أن تمارس الدولة العثمانية نفسها التأثير اللازم في الحجاز، أما في واقع الأمر فقد كانت تسود هناك الفوضى". وحجج توخلوكا في هذا الاستنباط الآتي: أن حدود سلطات الوالي والشريف ليست مرسومة بالشكل المحدد إلى الحد الكافي. والوالي يتراجع في كل شيء أمام الشريف، ويستغل الحجاج من قبل السلطات والأهالي معا، أما البدو فينهبونهم ويسلبونهم"[٣٣]. ويرى الدبلوماسي المخرج من هذا تعيين الحكومة العثمانية في الحجاز واليًا نشيطًا وفعالاً، وفي الوقت نفسه شريفًا ونبيلاً وخضوع الشريف للوالي تحت شعور الخشية من العزل والخلع، أما البدو فيجب أن تتولى تهدئتهم القوات المسلحة، وينبغي دفع المعونات إليهم بشكل صحيح.

---

(٣٢) المصدر السابق، الورقة ١٠٠ ظهرها.

(٣٣) المصدر نفسه.

كان من الأصح توجيه هذه المقترحات إلى الحكومة العثمانية نفسها التي كان تنفيذها لهذه المقترحات في منتهى الصعوبة عليها. ومع ذلك تفاءل الدبلوماسي في رد الفعل الطيب بالنسبة له من قبل الرئاسة؛ وذلك لأنه رأى أن تحقيق الخطوة التالية يتمثل في أن تجري الدولة العثمانية تحسين بناء الحجاز وتنظيمه، وأن يصطحب ذلك تشديد التأثير الأوروبي وتقويته. وقد أشير ضمنًا إلى إنشاء وحدات عسكرية في جدة، وتزويد جدة وينبع بالماء، ومد خطوط البرقية من ينبع إلى المدينة وخط للسكك الحديدية من جدة إلى مكة.

وكانت الدولة العثمانية نفسها ستحصل على المنافع من وراء تحسن كهذا للنظام البنائي في هذه الولاية. ورأى كاتب التقرير أن تنفيذ خطته هذه (وهو ما كان يبدو أن الدبلوماسية الروسية يجب أن تشجع العثمانيين عليه) من شأنه - لو حدث فعلاً - عدم الاقتصار على تقليل الخطر المنطلق من الحجاز، وإرضاء الدولة العثمانية بل وفي الوقت نفسه إضعاف هذا الخطر نفسه الذي يهدد الإمبراطورية الروسية. وكان عرب الحجاز يشعرون بالثقل الشديد لسيطرة العثمانيين؛ لأنهم يرون فيهم التمدن الأوروبي المناقض لروح الإسلام، وطبقًا للخطة المطروحة من قبل الدبلوماسي الروسي ينبغي أن يوطد العثمانيون في الحجاز سلطتهم، ويزاولوا إجراء الإصلاحات؛ ونتيجة لذلك سيغدو العرب أشد سخطًا عليهم، لذلك سيكون عسيرًا على العثمانيين استخدام العنصر العربي؛ لتقوية وتشديد تأثيرهم ونفوذهم في المسلمين الأجانب عنهم(٣٤).

وكتب الدبلوماسي أنه في حال تنفيذ اقتراحه فستحصل الدول من الدولة العثمانية أن تكون مكة المكرمة والمدينة المنورة مفتوحتين للأوروبيين حين يذهب إليهما موظفو الصحة العامة وأرباب الأعمال

(٣٤) المصدر السابق، الورقة ١٠١ ظهرها.

والوكلاء عن الشركات والمهندسون والتجار وسواهم. وتعين الدول هناك ممثلين قنصليين عنها في البداية من المسلمين ثم من النصارى، وعندئذ:

١ - ستدنس مكة بالكفار؛ وتفقد - جزئيًا - أهميتها لدى المسملين.

٢ - يفقد الحج طابعه المتميز الذي ربما يتضاءل مع مرور الزمن.

٣ - سيكون الممثلون القنصليون قادرين على متابعة أفكار الوحدة الإسلامية والنزعة الإسلامية الشاملة، وتحذير حكومات بلدانهم ضدها في الوقت المناسب(٣٥).

وبغض النظر عن النشاط الكبير باتجاه التقارير إلى السفارة في إسطنبول لم يتسن لتوخلوكا أن يحوز رضا الرئاسة بالدرجة الأولى؛ لأن متقرحاته لم تتوافق مع فهم الواقع الحجازي. بيد أن التعرف على اقتراحات سكرتير القنصلية نافع لتشكيل تصور بصدد نموذج أفكار الدبلوماسيين الروس لذلك الوقت، وتنوع وجهات نظرهم نحو أهداف السياسة الروسية وغاياتها في الحجاز، وأساليب انتهاجها وتطبيقها. وقد وصف هو نفسه مشروعه بأنه "نشر التمدن الأوروبي في الحجاز، والتأثير فيه عن طريق الدولة العثمانية ولكن تحت المصالح المشتركة للدول".

واستحوذ على الاهتمام الشديد للدبلوماسيين الروس هجوم بدو الجزيرة العربية على والي الحجاز. وخلال شهر حزيران (يونيو) من سنة ١٩٠١م (صفر ١٣١٩هـ) توجه إلى الحجاز أحمد راتب باشا من مكة قاصدًا مقره الصيفي في الطائف مصحوبًا بكوكبة من حرس وأربعة مدافع غير ضخمة. وكما أفاد مدير إدارة القنصلية توخلوكا السفير الإمبراطوري في إسطنبول فإنه في يوم ١ تموز (يوليو)

(٣٥) المصدر السابق، الورقة ١٠١ ظهرها.

(١٤ صفر) من تلك السنة أثناء الرحلة هاجمه البدو واعتدو عليه وعلى أتباعه بالضرب، واستولوا على مدفع واحد بعد قتل أربعة جنود وجرح أحد الضباط[٣٦].

وكان المهم بالنسبة إلى الدبلوماسيين أكثر من الحصول على المعلومات عن هذا الحدث أن يدرسوا على أساس هذا المثال الحالة القائمة في الحجاز؛ فكان الاستنتاج المستنبط هو أن "البدو المحليين في حقيقة الأمر لن يعترفوا بالسلطة العثمانية. كما أن هذه السلطة لم تظهر سيادتها في صحرائهم بأي مظهر وربما أن البدو قاموا بهذا الحدث حتى لا يدفعون الأتاوات". وأفاد توخلوكا بأن البدو لم يعترفوا إلا بمكانة شريف مكة، ولهذا تصرف راتب باشا في كل شيء بالاتفاق معه، وكلاهما يستغلان دون وازع أو رادع من ضمير كلا من الحجازيين والحجاج معًا[٣٧].

وحقيقة أن البدو يزاولون أعمال النهب والسلب وقطع الطريق بصورة جلية، وأوضح الدبلوماسي الروسي أن الشريف لم يعطهم كل ما حسب لهم من النقود والحبوب (وقد كتب عن هذا ضمنا توخلوكا في تقريره بتاريخ ٢٨ آيار (مايو) سنة ١٩٠١م (١٠ صفر ١٣١٩هـ). وراجت شائعات بأن الشريف كان له مما ينهبون نصيبه، أما السلطات العثمانية فلقد كانت أيضًا تراعيهم؛ لكونها منشغلة البال بشأن الانتفاضة في اليمن والقلاقل في عسير. وطبقًا لمعطيات القنصلية الروسية ومعلوماتها كان البدو غير راضين عن نية الحكومة العثمانية أن تمد في الحجاز البرقية والسكة الحديدية. وفي تقرير توخلوكا إلى السفير الإمبراطوري في إسطنبول بتاريخ ٤ تموز

---

(٣٦) المصدر السابق، أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي. سنة ١٩٠١م (١٣١٩هـ)، رقم التصنيف ٨٤٢ الملف ٧٧٥ الورقة ١٤.

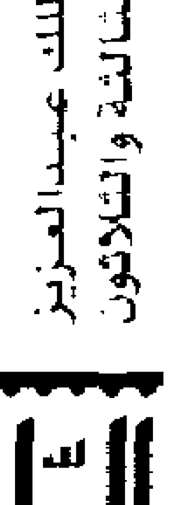
(٣٧) المصدر السابق، الورقة ١٤ ظهرها.

(يوليو) سنة ١٩٠١م (١٨ ربيع الأول ١٣١٩هـ) الذي بعث نسخة طبق الأصل عنه - كما هي العادة الجارية - إلى مدير القسم الأول في وزارة الخارجية أفيد بأنه في هذا اليوم دنا ٢٠٠ بدوي من قبيلة حرب على متون ١٠٠ بعير إلى مسافة قريبة من بوابات سور مكة مزمعين اختطاف الإبل الواقفة والباركة هناك بما على ظهورها من البضائع والسلع. وعقب وصول كتيبة من الشرطة إلى هناك ابتعد البدو. "أعمال السلب والنهب وقطع الطريق من البدو هنا ظاهرة مألوفة"، هكذا علق على هذا الحادث مدير إدارة القنصلية مؤكدًا أنه لا يعير هذا الواقع أهمية خاصة.

وذكرت القنصلية أن الشريف عون الرفيق عين في منصبه "تجاوزا للأشخاص الذين يملكون حقوقاً أكبر فيه"(٣٨)، كما أنه لم يكن محبوبًا ولا صاحب سمعة حسنة بين العرب. وكان يعيش في إسطنبول أيضًا بضعة أفراد من الطامحين في منصب الشريف، وقد أعلمت القنصلية السفير عن احتمالات تعيينهم. وما من ريب في أن تهيئة التوقعات بصدد التغيرات في البنى السلطوية المحلية كانت داخلة ضمن دائرة الواجبات والالتزامات لدى الموظفين القنصليين الروس. ورغم القلة في عدد الأشخاص العاملين تابعت القنصلية تنقلات القوات المسلحة في الولايات الحجازية. وضمن التقرير بتاريخ ١ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٠١م (١٨ جمادى الأولى ١٣١٩هـ) أفيد عن وصول باخرة عثمانية إلى جدة على متنها ٨٥٠ جنديًا. نزل منهم ٢٥٠ جندياً في جدة، وأرسل ٦٠٠ جندي إلى اليمن(٣٩). ودون حساب القادمين الجدد كان مجموع المرابطين في الحجاز ٥ - ٦ آلاف جندي ضمنهم طابوران في جدة يبلغ عددهما ٦٠٠ فرد، وكان في حصن جدة ٤ مدافع حصون ومدفعان من مدافع الميدان الحديثة

(٣٨) الوثيقة المقتبس عنها. الورقة ١٥.

(٣٩) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي سنة ١٩٠١م (١٣١٩هـ)، الملف ٧٧٥، الورقة ١٠٨.



الطراز. وقد احتفظ العثمانيون في مكة والطائف والقلاع الصغيرة باثني عشر طابورا مشاة يضم ٣٠٠٠ - ٣٥٠٠ فرد، وفي المدينة ٤ طوابير فيها ١٠٠٠ فرد، وعدا هذا رابط في مكة والطائف ٤٠٠ فارس من سلاح الخيالة (الفرسان). وتقدر القنصلية أن عدد المدافع ٢٢ مدفعًا. وكانت لدى شريف مكة وتحت تصرفه كتيبة من البدو تضم ٦٠٠ فرد وإلى حد ٨٠ شخصًا من الحرس الخاص. وأحاط مدير إدارة القنصلية أيضًا السفير علمًا بصدد تمرد الجنود الذي بدأ في جدة يوم ٣٠ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٠١م (٧ جمادى الثانية ١٣١٩هـ) وبين ٨٠٠ جندي من حامية جدة كان منهم ٢٥٠ جنديًا حتى ذلك الوقت أنهوا فترة الخدمة العسكرية منذ عامين؛ ولكنهم لم تدفع لهم رواتب في غضون عام كامل. ووقعت حالة مماثلة أيضًا في مدن حجازية أخرى. ولم تكن لدى السلطات أموال لدفع رواتبهم أو تسفيرهم إلى مواطنهم. وفي اليوم المذكور احتل ٤٠ جنديًا مسلحون جامع السوق (مسجد البازار)، وأعلنوا أنهم لن يغادروه إلاَّ إذا دفعت لهم رواتبهم المتأخرة وكذلك يعادون إلى مناطقهم. وعلى أثر هذا احتل ٥٠٠ جندي من حامية مكة - للغرض والمطلب نفسيهما - المسجد الحرام(٤٠).

لم تكن لدى السلطات أموال لدفع رواتبهم أو تسفيرهم إلى مواطنهم

وفي يوم ١١ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٠١م (٢٨ جمادى الأولى ١٣١٩هـ) أفادت القنصلية بأن الجنود ما يزالون يشغلون المسجد معتصمين فيه. وتحدث قائم مقام جدة قائلاً: إنه بغية دفع الرواتب إلى ١٨٠٠ جندي انتهت فترة خدمتهم العسكرية وإرسالهم إلى أماكنهم يحتاج إلى ٢٠ ألف ليرة عثمانية بينما الخزانة فارغة وخاوية على عروشها.

---

(٤٠) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي سنة ١٩٠١م (١٣١٩هـ)، ٤٨٢، الملف ٧٧٢، الورقة ١١١ وجهًا وظهرًا.

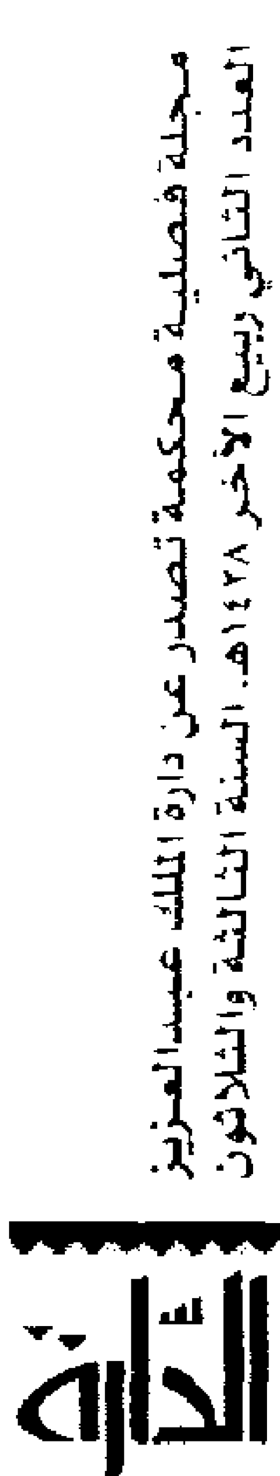
وأتاح الإعراب السافر عن النقمة من قبل الجنود للبدو انتهاز الفرصة السانحة واستغلال الوضع لتنشيط أعمال سلبهم ونهبهم، ونتيجة ذلك غدت الطريق ما بين مكة والمدينة مغلقة تماماً. وسيطر على الطريق ما بين جدة ومكة بعض شيوخ البدو. ويرى توخلوكا أن "جميع الدول المعنية كان بوسعها المطالبة من الباب العالي (رئاسة الوزراء العثمانية) بأن يفرض في الحجاز كله الإدارة الحسنة والنظام المستتب. علماً بأن التهديد بمنع الحج من شأنه أن يخلِّف التأثير سواء في الحكومة العثمانية أو في سلطات الحجاز وأهاليه". واعتقدت القنصلية - وهي على حق - أن الباب العالي لم تكن لديه معلومات كاملة عن الاضطرابات الحجازية؛ وذلك لأن كلا من الوالي والشريف يتخذان تدابير صارمة ضد المخبرين[٤١].

وفي يوم ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) (٢٦ رجب ١٣١٩هـ) أبلغ مدير إدارة القنصلية إلى السفير في إسطنبول وإلى غارتفيغ في وزارة الخارجية معلومات بصدد أن الجنود المعتصمين قد حصلوا أخيراً على أوراق التسريح في إجازة ووافقوا على العودة إلى الثكنات في انتظار الباخرة العثمانية التي يجب أن تقلهم في طريق العودة إلى الوطن[٤٢].

ولاحقاً واصلت القنصلية - بعناية - متابعة الوضع السياسي في الولاية، وفي سنة ١٩٠٤م (١٣٢٢هـ) تمرد أهالي المدينة المنورة بقيادة أعيانها على والي الحجاز عثمان باشا الذي تسنى له بصعوبة إنقاذ نفسه من التنكيل به الذي كان يتهدده. وقد امتنع ضباط الحامية عن تهدئه المتمردين؛ أي: قمعهم، وبقيت القوات في الثكنات، ولم تخرج إلى الشارع في المهمة التي كلفتها بها السلطات. وقد استدعى

(٤١) المصدر نفسه، الورقة ١١٢.

(٤٢) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي. سنة ١٩٠١م (١٣١٩هـ)، رقم التصنيف ٤٨٢، الملف ٧٧٥، الورقة ١١٨.



الاضطرابات في المدينة المنورة قرار عثمان باشا بصدد استيفاء الضرائب من المواطنين الذين منحوا في السابق امتيازات وإعفاءات. ونتيجة ذلك عدوا أنفسهم معفيين من دفع الضرائب.

وفي يوم ٢١ تموز (يوليو) سنة ١٩٠٤م (٩ جمادى الأولى ١٣٢٢هـ) أبلغ القنصل الإمبراطوري الروسي فون تسيمرمان السفير في إسطنبول عن قدوم لجنة من الباب العالي إلى المدينة المنورة، ولدى التحدث عن التمرد الذي قاده زهاء الستين من الشيوخ ذكر القنصل أنهم - كما يبدو - أرادوا بهذا التمرد الانتقام من محافظ المدينة على نواياه المزعومة في القضاء على العديد من أبناء وسطهم الاجتماعي وفق قائمة مسجلة مسبقًا بمساعدة بدو من قبيلة حرب دفع لهم عثمان باشا[٤٣]، وعقب فرار عثمان باشا هرع قادة التمرد إلى دائرة البرقية، واتصلوا بإسطنبول، وطلبوا أن يسمح لهم بمخاطبة السلطان مباشرة، وعندما رد عليهم من هناك الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) طالبوه بتغيير عثمان باشا مهددين في حالة الامتناع عن الاستجابة لمطالبهم بالتوجه إلى السلطات البريطانية وإعلان أنفسهم رعايا لبريطانيا[٤٤]. وبهذه المناسبة تساءل القنصل الروسي، هل كانت أحداث المدينة حصيلة دسائس البريطانيين؟. وقد ترسخ اعتقاد القنصل بسبب المصادفة من حيث الزمن بين القلاقل والقدوم إلى المدينة المنورة من قبل نائب القنصل البريطاني الدكتور محمد حسين للنظر في الدعوى المتعلقة بنهب البدو - أثناء الحج - ملكة إحدى المقاطعات الهندية. وأشار القنصل إلى أن أهالي المدينة المنورة كانوا يحملون أسلحة نارية طلقاتها سريعة جلبت إلى الحجاز عن طريق التهريب عبر جدة. وكان البدو مزودين بمثل هذه الأسلحة

---

(٤٣) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي سنة ١٩٠٤م (١٣٢٢هـ)، رقم التصنيف ٤٨٢، الملف ٧٧٨، الورقة ٣.

(٤٤) المصدر السابق، الورقة ٤ وجهاً وظهراً.

نفسها من صنع الهند، وأفاد القنصل بأنه في ظرف ستة أعوام جلبت عبر هذا الطريق ألف وحدة من هذه الأسلحة، وهي تباع بثمن منخفض إلى حد خيالي - من ٣ إلى ٥ مجيديات فضية (٤ روبلات و ٨٠ كبيكا - ٨ روبلات قرض). وكان الوسيط في التهريب من خلال نقيب أصحاب الزوارق البيت التجاري البريطاني(٤٥)، وإذا توافرت لدى القنصل مثل هذه المعلومات حاول عبثًا توجيه عناية قائم مقام جدة علي يمني بيه. ولقد قارن فون تسيمرمان هذه الحقائق مع توزيع الأسلحة على اليمنيين وسكان السواحل في مناطق الخليج وبلاد الفرس، وهو ما قامت خلفه مصالح بريطانيا السياسية وبالدرجة الأولى نواياها في "تهيئة السكان، وتحريضهم على الوثبة ضد السلطات العثمانية"(٤٦) والتثبيت اللاحق لسلطتها هنا. وكتب القنصل أن البريطانيين بعد امتلاكهم تقريبًا كل الساحل الغربي للبحر تولدت في نفوسهم منذ أمد بعيد الرغبة في "الاستحواذ على الساحل الشرقي كله الأمر الذي من شأنه أن يهيئ لهم المزايا والأفضليات العظمى على الدول الأخرى".

ولدى مقارنة الحقائق توصل القنصل إلى استنباط الاستنتاج القائل بأن البريطانيين كانوا ينوون تقوية نفوذهم في الحجاز ونجد عازلين بذلك عزلاً تامًا لليمن وحضرموت الأمر الذي من شأنه أن ييسر لهم لاحقًا السيطرة أيضًا على هذين الإقليمين كذلك(٤٧). وقد ساعدت على تحقيق البريطانيين هذه الغايات والأهداف بضعة عوامل في مقدمتها "البغضاء بين العرب والأتراك التي تفاقمت بسبب السخط الشديد على ممثلي الإدارة العثمانية سواء بين البدو

(45) Gellatly Hankey & Co.

(٤٦) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي سنة ١٩٠٤م (١٣٢٢هـ)، رقم التصنيف ٤٨٢، الملف ٧٧٨، الورقة ٥.

(٤٧) المصدر السابق، الورقة ٦. لم تتحقق السياسة البريطانية هذه عندما تمكن الملك عبدالعزيز آل سعود من استعادة الحجاز وضمه إلى الدولة السعودية سنة ١٩٢٤م.

أو الحضر". وأفاد فون تسيمرمان بأن الذي أثار السخط في نفوس البدو هو أن الوسطاء الخبثاء بينهم وبين السلطة لم يسلموا إليهم المعونات المحسوبة لهم بتمامها بل وبتاتاً في بعض الأحيان. وكان أهل المدن يتذمرون أيضًا من شريف مكة الذي وثق بإيداع زمام الإدارة في "أيدي شتى الأشخاص غير الموثوقين". وكان سوء الحال وشر المآل؛ مما دفع السكان المحليين إلى الرضا "بالوقوع تحت هيمنة الغرباء حتى ولو كانوا البريطانيين". وأعلم القنصل السفارة بأن قد نفخوا ما استطاعوا هذا السخط ناشرين مجانًا بين السكان المحليين كراريس باللغة العربية مطبوعة في سنغافورة "تصور السلطات العربية المحلية والعثمانية في أبشع وأقذر شكل ممكن ومستطاع".

وأثَّر البريطانيون كذلك على السكان المحليين بوساطة الجالية المتنفذة من المسلمين رعايا بريطانيا الذين "أخذوا في أيديهم جزءًا كبيرًا من تجارة الحجاز"(٤٨).

وحلل فون تسيمرمان وضع المسلمين المحليين من رعايا بريطانيا وتأثيرهم السياسي. وما أشير إليه ضمنًا في أنهم سعوا ما أمكن إلى إبراز – بشكل واضح وجلي – المزايا والأفضليات التي يتمتعون بها في عيون السكان الأصليين. وهذه الجالية استغلت ذريعة لمضايقة الحكومة العثمانية وإرغامها في أي وقت من الأوقات عندما يراد ذلك.

ومن البديهي أن جالية المسلمين من الرعايا البريطانيين استغلت على أيدي البريطانيين بصفتها عامل ضغط على السلطات العثمانية بهدف ضمان اتخاذها القرارات المتلائمة مع المصالح البريطانية بصدد القضايا المهمة لهم، بيد أنه من المستبعد في رأي فون تسيمرمان تأميل لندن في التوصل عن طريق مساعدة هذه الأداة إلى الترسيخ التدريجي للسيطرة البريطانية هنا.

---

(٤٨) المصدر السابق، الورقة ٧ ظهرها.

وكان أهم عامل حث بريطانيا على القيام بمحاولات السيطرة على الحجاز وجود أقدس المقدسات الإسلامية في العالم هنا؛ "ومن ثم التأميل في مزاولة الضغط المعنوي من هنا على المسلمين"[٤٩]، وتتسجم بشكل حسن في الرسم التخطيطي لدى فون تسيمرمان المحاولة المنسوبة على سبيل الخطأ إلى شيخ الكويت (الذي خلط القنصل في اسمه بين ابن سعود وابن صباح) للسيطرة على الحجاز ونجد. وفي حالة نجاح محاولة كهذه سيتاح للبريطانيين تحقيق حلمهم المنشود حول توحيد البحر الأبيض المتوسط والخليج العربي بخط للسكة الحديدية بين مدينتي السويس والكويت وكلتا المدينتين خاضعتان لسلطة البريطانيين.

وقد كانت المجابهة بين بريطانيا والدولة العثمانية في منطقة الخليج العربي موضع الاهتمام الشديد سواء من قبل الدبلوماسيين الروس أو العسكريين؛ إذ إن أولئك وهؤلاء أنجزوا عملاً نشيطًا بصدد هذه المنطقة، وفي يوم ٦ نيسان (أبريل) سنة ١٩٠١م (١٧ ذي الحجة ١٣١٨هـ) أفاد القنصل العام الروسي الإمبراطوري في بغداد ضمن برقيته السرية التي وجهها وزير الخارجية نظرًا لأهميتها إلى الدوق كوراباتكين بوصول مشير الفيلق العثماني السادس إلى البصرة لغرض احتلال الكويت[٥٠]. وبشأن هذا النبأ استوضحت هيئة الأركان العامة أن شيخ الكويت مبارك الذي له عداوة مع حاكم نجد ابن رشيد، وبعد العديد من النجاحات ومن ضمنها محاولة احتلال حائل عاصمة نجد مني بهزيمة نكراء. وكانت الحكومة العثمانية تنوي استغلال ما أصيب به مبارك من وهن وضعف؛ لكي تمتلك الكويت التي تتمتع بالأهمية "بصفتها منفذًا إلى البحر لطريق خط سكك حديد بغداد الذي هو قيد التصميم والتخطيط"[٥١]. وبهذا الشكل

(٤٩) المصدر السابق، الورقة ٥ وجهًا وظهرًا.

(٥٠) أرشيف الدولة الروسي التاريخي. السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ٣.

(٥١) أرشيف الدولة الروسي التاريخي. السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ٤.

اكتسب الصراع على الكويت - حتى في ذلك الوقت - طابعًا جديًا للغاية.

والأمر أشبه ما يكون بأن الإمبراطورية الروسية قد انجذبت إلى هذا الصراع وتورطت فيه، وقد شهدت على ذلك رحلة البواخر الروسية إلى الخليج العربي والازدياد الحاد؛ لاهتمام الدبلوماسيين والعسكريين بهذه المنطقة. وكما أفيد بتاريخ ١١ نيسان (أبريل) من سنة ١٩٠١م (٢٢ ذي الحجة ١٣١٨هـ) في تقرير ضابط هيئة الأركان العامة استنادًا إلى بعض المعلومات؛ فإن الشيخ مبارك "كان قد أعد خلال الآونة الأخيرة خطة للتنازل إلى الحكومة الروسية عن شريط ساحلي عند مدينة الكويت لإنشاء محطة فحم في الخور الخليجي الكويتي"(٥٢). وتنبغي الإشارة إلى أن تشييد المحطة الفحمية في ذلك الحين كان ينظر إليه بصفتها خطوة جدية نحو إقامة التأثير والنفوذ أو حتى باتجاه الاستعمار. بيد أن روسيا لم يتسن لها إحراز الفوز على البريطانيين، وليس هناك ما يثبت خطة للتنازل للحكومة الروسية عن شريط ساحلي بالكويت.

وفي يوم ١٨ كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٠٥م (١٣ ذي القعدة ١٣٢٢هـ) بعث المندوب العسكري الروسي في إسطنبول تقريرًا إلى القسم السابع لهيئة الأركان العامة عن تحركات ابن سعود الواقف "في مقدمة الشيوخ العرب الذائدين عن استقلالهم من تطاولات العثمانيين الساعين إلى الهيمنة في القسم المركزي الأوسط من الجزيرة العربية"(٥٣)، والذي تهيأ له ترسيخ مواطئ أقدامه في شمال نجد وفي منطقة القصيم. وأبلغ الوكيل العسكري في إسطنبول المقدم إليكسييف بأنه حسب اعتقاد العثمانيين وتوقعاتهم يسعى إلى الاستحواذ على المدينة المنورة المقدسة، ولأجل هذا كما يدعي دخل

---

(٥٢) أرشيف الدولة الروسي التاريخي. السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ٣.

(٥٣) أرشيف الدولة الروسي التاريخي. السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ٧.

في صلات سرية خفية مع قادة الانتفاضة التي اندلعت مؤخرًا في هذه المدينة. أما خصمه الرئيس فهو حاكم جبل شمر عبدالعزيز بن رشيد والقوات العثمانية التي أرسلت إلى هذا الإقليم لتطويع ابن سعود أوائل عام ١٩٠٤م (أوائل ١٣٢٢هـ)، ولم تنقذ من الهلاك إلا بفضل ابن رشيد؛ مما حمل العثمانيين على اتخاذ موقف جديد بإرسالها إلى القصيم عشرين ألف عسكري على رأسهم مشير الفيلق السادس أحمد فيضي باشا. وقد وضعت تحت تصرف هذا المشير من مستودعات إسطنبول بنادق موزر وبضعة مدافع؛ نظرًا لكون أهالي الجزيرة العربية المتمردين امتلكوا أسلحة من أحدث المنظومات. وعدا هذا تقرر تركيز فيالق عدة في المدينة هي التي ضمت بعدئذ إلى قوات فيضي باشا.

وكتب الوكيل العسكري عن الجمود التام للقوات العثمانية، وانتشار الهرب منها بالجملة وبشكل شامل؛ الأمر الذي أوضح إحباط القوات التام والنوعيات الواطئة للكيان القيادي نفسه. شعرت القوات بنقص في الجياد، ولم يكن لدى الولاية ما يكفي من الوسائل والسبل والأموال لإمداد القوات المرسلة وتزويدها بكل ما يلزمها، وما هو ضروري لها. أما تصرفات ابن سعود وأعماله فقد كانت ناجحة إلى حد أنه حتى جرى التوقف في إرسال القوات. وعاد السلطان إلى قراره السابق بناءً على الطلب الملح من شريف مكة الذي عدَّ ابن سعود وكذلك شيخ الكويت مبارك الصباح العدوين للدولة العثمانية(٥٤).

وبصورة متوازية مع قوات المشير اتخذ قرار بتحريك ٤ - ٥ (طوابير) إلى المدينة المنورة. يورد الوكيل العسكري الروسي على الدوام المعطيات عن تنامي حركة ابن سعود.

(٥٤) المصدر السابق، الورقة ٨ ظهرها.

ويورد إليكسييف حقائق عدة تشهد على اهتمام بريطانيا بالانتفاضة المضادة للدولة العثمانية في الجزيرة العربية. وهو الأمر الذي من المستبعد أن يكون ممكنًا التشكيك فيه، ومن هذا إرسال بريطانيا إلى الخليج العربي - بالإضافة إلى الباخرتين العسكريتين المرابطتين هناك بصورة دائمة - باخرتين عسكريتين أخريين. وكما أبلغ الوكيل والي البصرة فإن وصول كابتن بريطاني إلى الكويت بصحبة ثلاثة موظفين كانت غايته توسيع ممتلكات شيخ الكويت[٥٥]. وتوجه موظفون نظاميون بريطانيون إلى البصرة ثم إلى بغداد حيث صرحوا برغبتهم في القيام بزيارة إلى نجد ولكن طلبهم هذا جوبه بالرفض.

ولقد عقد وضع العثمانيين في القسم الأوسط من الجزيرة العربية تناشط التمرد في اليمن، والذي وصف مفصلاً في تقارير الوكيل العسكري، وتعين على بريطانيا إرسال قوات أيضًا إلى اليمن؛ حيث لاقت مصاعب لا تقل عنها في نجد. وبسبب المصاعب مع إرسال الحمولات ونقص الجياد استطاع العثمانيون أن يرسلوا إلى نجد سريتين فحسب بدلاً من فوجين من الخيالة (سلاح الفرسان).

وفي التقرير بتاريخ ٢ شباط (فبراير) سنة ١٩٠٥م (٢٨ ذي القعدة ١٣٢٢هـ) أبلغ الوكيل العسكري بالإحالة على والي ولاية البصرة الذي كان المصدر الثابت للمعلومات إلى العسكريين الروس بأنه من تعداد القوات المرسلة إلى القصيم قد هرب من الخدمة العسكرية ما يقابل كتيبتين في ظرف ١٥ يومًا من حملة الزحف لم تبلغ فصيلة المشير فيضي باشا إلا إلى منطقة آبار الدهيسه على مبعدة ٦ مسيرات إلى الجنوب من نجد، وهو الأمر الذي يشهد في رأي الوكيل سواء على خيبة الثقة في العرب الذين كانت تتشكل منهم قوات الفيلق السادس،

(٥٥) المصدر السابق، الورقة ١١ ظهرها.

أو تخلخل مواقع العثمانيين في الجزيرة العربية[٥٦]، وانتقلت كتيبة واحدة إلى صف ابن سعود، وتوجهت كتيبة أخرى إلى الكويت عارضة تقديم خدماتها إلى البريطانيين.

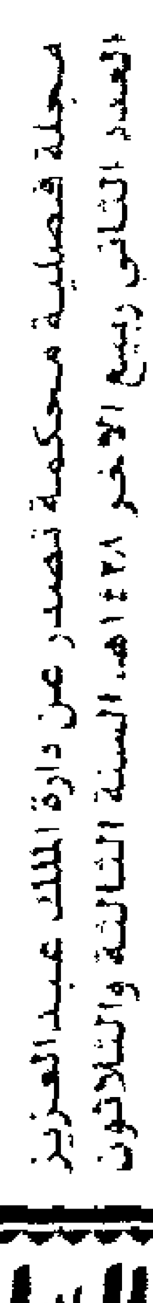
وبعث والي البصرة كذلك برقية عن نتائج لقائه مع ابن سعود، وقد أكد ابن سعود إخلاصه للسلطان، وطلب إلغاء البعثة العسكرية التي أرسلت ضده، وفي حالة الموافقة على طلبه عرض تزويده فصيلة القوات العثمانية بكل ما يلزمها للعودة إلى البصرة[٥٧]. ولدى ذلك رجا ابن سعود الانتباه إلى دسائس ابن رشيد شيخ جبل شمر ومكايده. واعتذر ابن سعود عن قبول الدعوة الموجهة باسم السلطان للقيام بزيارة إلى إسطنبول بغية الحصول على الإيضاحات، وأرسل من ينوب عنه في ذلك. وحسب رأي السفير الإمبراطوري في إسطنبول؛ فإن السلطان كان يريد المصالحة مع ابن سعود، ولكن يخشى من أن يكون في ذلك إساءة إلى نصيره المخلص ابن رشيد.

وخلال النصف الثاني من شهر شباط (فبراير) سنة ١٩٠٥م (منتصف ذي الحجة ١٩٢٢هـ) توجه ابن سعود مجدداً إلى السلطان معربًا عن رغبته في التفاهم مع السلطات العثمانية بشأن قواتها في إقليم القصيم التابع له[٥٨]. وأمر السلطان والي البصرة أن يعلن لابن سعود رأفته، وأن فصيلة فيضي باشا مرسلة إلى القصيم؛ لتثبيت السلطة العثمانية هناك شأن الفصيلة الأخرى المرسلة إلى المدينة المنورة. وفي الوقت نفسه - كما كتب الوكيل - فإن تصرفات ابن سعود ضد ابن رشيد "جعلت السلطان يشك في صدق تأكيدات ابن سعود". ولهذا السبب بقيت غايات البعثة العسكرية هي السابقة

(٥٦) أرشيف الدولة العسكري التاريخي السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ١٣ ظهرها.

(٥٧) التقرير بتاريخ ١٢ شباط (فبراير) سنة ١٩٠٥م (٨ ذي الحجة سنة ١٣٢٢هـ)، أرشيف الدولة الروسي العسكري - التاريخي. السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ١٧ ظهرها.

(٥٨) التقرير بتاريخ ٢٠ آذار (مارس) سنة ١٩٠٥م (١٤ المحرم ١٣٢٣هـ)، أرشيف الدولة الروسي العسكري - التاريخي السجل ٤٤، الملف ٢٣، الورقة ٢٣.



نفسها. وفي يوم ٢٧ شباط (فبراير) سنة ١٩٠٥م (٢٣ ذي الحجة سنة ١٣٢٢هـ) تلقت الطوابير الأول والثاني والرابع من فوج المشاة الأربعين المرابطة في المدينة المنورة أمرا بالتحرك نحو القصيم - الواقعة بين حائل والكويت - حيث كانت نية الباب العالي متجهة إلى تشكيل ولاية جديدة تحت إدارة فيضي باشا(٥٩).

وأفاد الوكيل ضمن تقريره المؤرخ في ٢٠ أيار (مايو) (١٦ ربيع الأول ١٣٢٣هـ) بأن المشير فيضي باشا التقى لدى وصوله إلى عنيزة الإمام عبدالرحمن الذي أبدى استعداده للولاء للسلطان، وعقب هذا أخذ المشير منه يمين الإخلاص؛ وسلمه إدارة القصيم مع الأقاليم المتاخمة الموحدة تحت إدارة "الرياض" العامة(٦٠). وطبقًا لرأي الوكيل العسكري فإن المشير كان مضطرًا إلى الاقتصار على هذا التدبير والاكتفاء به. وكان الوضع بالنسبة للعثمانيين ليس مستتبًا أو مستقرًا بتاتًا. ولم يكن الوضع أقل منه اختلالاً في الحجاز حيث انتشار النقمة. وأفاد الوكيل بأن القوات العثمانية في الحجاز تشعر بالاحتياج إلى كل شيء. و"أقسام الفيلق الرابع التي أظهرت ضعفها في اليمن عوقبت بتعيينها لحراسة سكة حديد الحجاز"(٦١).

وفهم من تقرير الوكيل العسكري بتاريخ ١٠ أيار (مايو) (٦ ربيع الأول ١٣٢٣هـ) لفيضي باشا احتلال بريدة وعنيزة وبعد هذا إلى المدينة المنورة ومن هناك توجه عن طريق جدة إلى اليمن(٦٢).

وأفيد ضمن التقرير المقدم إلى هيئة الأركان العامة على أساس تقارير الوكيل العسكري إلى إسطنبول وهيئة أركان المنطقة العسكرية القوقازية بتاريخ ٢٧ أيار (مايو) (٢٣ ربيع الأول ١٣٢٣هـ) وبتوقيع

---

(٥٩) أرشيف الدولة الروسي العسكري - التاريخي. السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ٢٦.

(٦٠) أرشيف الدولة الروسي العسكري - التاريخي. السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ٤١.

(٦١) التقرير بتاريخ ١٦ حزيران (يونيو) سنة ١٩٠٥م (١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٢٣هـ).

(٦٢) الوثيقة المقتبس عنها. الورقة ٧٥.

الجنرال ميجر يرمولوف عن تعيين فيضي باشا رئيسًا للبعثة العسكرية اليمنية ووصوله إلى المدينة المنورة[٦٣]. ويبدأ العسكريون الروس بإلحاح متزايد تدريجيًا مع أن ذلك مصحوب بالاحتراس يطرحون الفكرة حول دور البريطانيين في الانتفاضة المضادة للدولة العثمانية في الجزيرة العربية، وبالدرجة الأولى في اليمن. وجاء في إحدى وثائق هيئة الأركان العامة ولو بالاستناد إلى الصحافة عن التلميحات إلى أن "الانتفاضة في اليمن التي اتخذت مثل هذه الأبعاد الجدية هي من فعل أيدي البريطانيين"، وأن الغرض من هذا التحريض هو تأمين ممتلكاتها الساحلية في الجزيرة العربية بالمجاورة الأكثر نفعًا لها من العشائر العربية المستقلة ولكن الضعيفة"[٦٤]، وأكد في الوثيقة المرسلة من قبل هيئة أركان الدائرة العسكرية القوقازية إلى المقر العام الثاني لهيئة الأركان العامة بتاريخ ٢٨ تموز (يوليو) من تلك السنة نفسها (٢٦ جمادى الأولى ١٣٢٣هـ) أن حركة الإمام حميد الدين في اليمن "يدعمها البريطانيون من عدن"[٦٥]، وعقب الاستيلاء على صنعاء وجه حميد الدين إلى شريف مكة الإنذار يطالبه بالانضمام إليه، "وبعكسه يهدده بالموت، ونهب مكة"[٦٦]، ويفهم من الشائعات الرائجة في الأوساط العسكرية في الباب العالي أن الشريف طلب المساعدة من مصدر؛ أي: عمليا من البريطانيين.

وحتى نهاية صيف سنة ١٩٠٥م (شعبان ١٣٢٣هـ) تغير الوضع في اليمن. وقد أدت أفعال العثمانيين الناجحة خلال فترة آب (أغسطس) – أيلول (سبتمبر) وفقًا لتقدير الوكيل العسكري إن لم "يكن إلى تهدئة

(٦٣) أرشيف الدولة الروسي العسكري – التاريخي. السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ٧٩.

(٦٤) الوثيقة المقتبس عنها. الورقة ٧٥ وجهًا وظهرًا.

(٦٥) الوثيقة المقتبس عنها الورقة ٢٠.

(٦٦) المصدر نفسه.

البلاد فعلى أقل تقدير إيقاف أعمال العرب المتمردين"[٦٧]. وأعيد قسم من القوات السورية وإن كان ذلك في الحقيقة بسبب "الغياب التام للبسالة الحربية". غير أن الباب العالي كان ما يزال مهتمًا سواء بالحالة في اليمن أو ضغط عبدالعزيز بن سعود على آل رشيد. وعلى الرغم من النجاحات التى أحرزتها القوات العثمانية في الصراع ضد الثوار اليمنيين؛ فإن الحكومة العثمانية كما أفاد المقدم إليكسييف بتاريخ ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة ١٩٠٥م (١٧ رمضان سنة ١٣٢٣هـ)[٦٨] لم تعد انتفاضة الجزيرة العربية منتهية، وهو ما يشهد عليه ضمنا الأمر بإرسال "٢٠٠٠ فرد من عداد الفيلق الخامس؛ لتكميل تعداد الوحدات المرابطة في نجد التي بلغ عددها بنتيجة الخسائر والأمراض وحوادث الهرب من الجيش إلى حد الربع من مجموع تركيبها الابتدائي"، ولذلك لم يكن لدى العثمانيين أموال كافية لإرسال الجنود، وهؤلاء أنفسهم رفضوا الذهاب إلى هناك؛ "لعلمهم بالنصيب الذي أصاب القوات الموجودة هناك". وأبلغ القنصل العام الروسي في بغداد عن اعتقال ميجر وأربعة من صغار الضباط لفرارهم من الخدمة العسكرية في القصيم. وطبقًا لكلامهم فإن العديد من الضباط قد هربوا إلى الكويت وجهات أخرى من سواحل الخليج، وبقي في الفيلق ما بين ٨٠ - ١٠٠ فرد[٦٩].

وكان سبب حوادث الفرار بالجملة الظروف التي لا تطاق لحياة العسكريين العثمانيين الذين وبضمنهم الضباط "منذ يوم الاشتراك في الزحف لم يتلقوا مخصصاتهم، وظلوا دون الملابس الداخلية الجديدة والبزات والملابس ولم يتناولوا اللحوم شهورًا"[٧٠]. ورأى

(٦٧) أرشيف الدولة الروسي العسكري - التاريخي. السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ١٠٥.

(٦٨) أرشيف الدولة الروسي العسكري - التاريخي. السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ١٠٥ ظهرها.

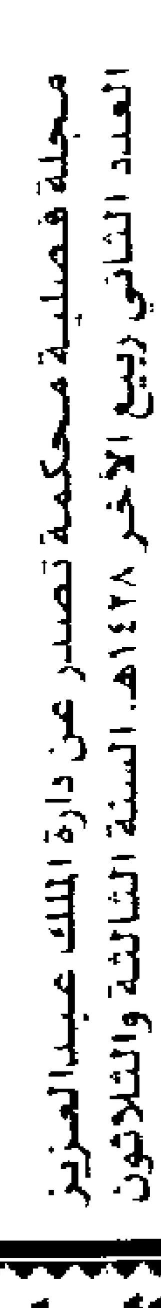
(٦٩) المصدر السابق، الورقة ١٠٦.

(٧٠) المصدر نفسه.

ضابط في الاستخبارات العسكرية الروسية بأم عينه رسالة بعثها ضابط عثماني إلى والده، وفيها يخبره بأن الجيش من المستبعد أن يتحمل الشتاء القادم.

وفي تقرير بتاريخ ١٢ كانون الأول (ديسمبر) من سنة ١٩٠٥م (١٥ شوال سنة ١٣٢٣هـ) أرسله إليكسييف الذي أصبح الآن مقدمًا في هيئة الأركان العامة أفاد مجددًا بأنه قد شكلت في الجزيرة العربية إما ولاية أو متصرفية جديدة في منطقة القصيم. وبعدئذ في يوم ١٧ آذار (مارس) سنة ١٩٠٦م (٢٢ المحرم سنة ١٣٢٤هـ) أعلم إليكسييف بأن فصيلة عثمانية صغيرة في عرف الماضي القريب قد ازداد تعدادها من جديد، وبلغ إلى ١٠ كتائب. ولدى ذلك عرفت هيئة الأركان العامة الروسية بالضبط من أين بالذات أرسلت القوات لتعزيز هذه الحامية، وهكذا أخذت من كيان الفيلق السادس للجيش العثماني الكتيبتان الأولى والرابعة لفوج المشاة الحادي والأربعين والكتيبة الثانية من الفوج الثاني والأربعين والكتائب الأولى، والرابعة والأربعين، والخامسة والأربعين من فيلق الرماة وبطارية مدفعية واحدة (٦ مدافع) وكتيبة جبلية (٤ مدافع ميدان) و ١٠٠ خيال، والقسم الثالث من الفيلق الخامس - ٣ كتائب (فوج المشاة الأول والثاني والرابع وكذلك الأربعين) علمًا بأن نفقات هذه القوات وزعت في حصص على هذه الفيالق؛ "ولكن ٣ كتائب من الفيلق الخامس يصرف عليها فعليًا الشيخ ابن رشيد على حساب ٥٠ قرية من إقليم القصيم"(٧١).

وعثر في وثائق هيئة الأركان العامة أيضًا على بعض التناقضات. وفي الاستعلامات عن القوات العثمانية في القسم الآسيوي منها أفادت هيئة الأركان العامة بأن القوات من الفيلق السادس كانت ٦ كتائب مرابطة في سنجق الأحساء على ساحل الخليج العربي،



(٧١) أرشيف الدولة الروسي العسكري - التاريخي - السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ١١٨.

وفضلاً عن ذلك قسم من هذا الفيلق ١٩ كتيبة فحسب دخلت في كيان الفصيلة الموفدة المرسلة إلى أواسط الجزيرة العربية (إقليم القصيم) في بداية عام ١٩٠٥م (أوائل سنة ١٣٢٣هـ)(٧٢).

ومن الطبيعي أن هيئة الأركان العامة الروسية تابعت باهتمام مراقبة تنقلات القوات العثمانية، كما راقبت القوات البريطانية في الجزيرة العربية. وفي يوم ٢٠ كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٠٦م (٢٥ ذي القعدة سنة ١٣٢٣هـ) أفيد ضمن تقرير سري بالشفرة من بيروت عن إنزال بريطاني في العقبة؛ وبسبب ذلك نجم نزاع بين الدولة العثمانية من جهة وبريطانيا من جهة أخرى(٧٣). وقد أعلنت الدولة العثمانية أنها تعير اهتمامًا كبيرًا إلى العقبة؛ وذلك لأنها تخطط لإنشاء طريق للسكة الحديدية من مكة إلى العقبة.

أما روسيا فإنها بالطبع اهتمت بالمعلومات عن التنقلات أكثر من أهمية الوضع في الجزيرة العربية بالنسبة إليها، بل بسبب وقوع التصادم الحربي المحتمل ضد الدولة العثمانية. واستنبط الاستنتاج بأن قوات الفيلقين الخامس والسادس، وهي التي في حالة قيام الحرب ضد روسيا "سوف تتحرك بلا شك نحو منطقة ما وراء القوقاز" يظهر أنها ضعيفة جدًا من حيث تركيب القوام(٧٤).

وجاء في استعلام هيئة الأركان العامة بتاريخ ١٤ كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٠٦م (١٩ ذي القعدة ١٣٢٣هـ) الموضوعة على أساس تقرير الوكيل العسكري الروسي في إسطنبول أن صراع الدولة العثمانية ضد الانتفاضة في اليمن التي بدا وكأنها قد قضي عليها وانتهت في ١٩ آب (أغسطس) سنة ١٩٠٦م (٢٩ جمادى الثانية سنة ١٣٢٤هـ) بالاستيلاء على المدينة الرئيسة، إلا أن أحمد فيضي

---

(٧٢) أرشيف الدولة الروسي العسكري – التاريخي – السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ١٢٣.

(٧٣) أرشيف الدولة الروسي العسكري – التاريخي – السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ١٠٩.

(٧٤) أرشيف الدولة الروسي العسكري – التاريخي – السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ١٣٥.

باشا في واقع الأمر ما يزال بعيدًا عن كونه قد اعتاد على هذه النتيجة الطيبة بالنسبة إلى العثمانيين"[٧٥]. وكان المشير العثماني "المحاط من جميع الجهات بالأجانب وخوفًا على مواصلاته عن طريق البحر مضطرًا إلى الذود عن صنعاء".

وأفادت هيئة الأركان العامة بأن العثمانيين يتعين عليهم إرسال تعزيزات إلى اليمن غير أن الكتيبة التاسعة عشرة المرسلة في عام ١٩٠٥م (١٣٢٣هـ) إلى القصيم "باقية هناك حاليًا كذلك"[٧٦].

وكان هذا شاهدًا على أن غياب الباب العالي في أواسط الجزيرة العربية منته ومفروغٌ منه، ولا يعد بالمرة قضية وقد تمت تسويته.

ومع كل الأنشطة العسكرية للدبلوماسيين الروس بصدد إعلام الحكومة عن ملابسات الصراع كافة بين الدول العالمية على النفوذ في منطقة شبه الجزيرة العربية، وكذلك عن حالة في ولايات الدولة العثمانية؛ فإن المهام الروسية حافظت على أهميتها الأولولية. وقد زاولت القنصلية في جدة بانتظام قضايا الحج مع إنجازها العمل التطبيقي والإعلامي اليومي. وضمنا بعثت سنويًا إلى سانت بطرسبورغ التقارير عن موسم الحج المنصرم. على سبيل المثال بعد موسم الحج لسنة ١٩٠٧م (ذي الحجة ١٣٢٤هـ) أرسل القنصل فون تسيمرمان إلى القسم الأول لوزارة الخارجية الروسية بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) (١٩ شوال ١٣٢٥هـ) تقريرًا مفصلاً أفاد فيه ضمنًا بأن المجموع العام للحجاج القادمين عن طريق البحر إلى جدة وينبع بلغ ١٠٨٣٠٨ أشخاص. ولدى ذلك نبه القنصل إلى أن سكان منطقة آسيا الوسطى الروسية وبخارى يخلطون مع سكان تركستان الصينية، ويدرجون في الفقرات نفسها من القائمة[٧٧]. وهم يشغلون

---

(٧٥) أرشيف الدولة الروسي العسكري - التاريخي - السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ١٣٤.

(٧٦) المصدر السابق، الورقة ١٣٥ ظهرها.

(٧٧) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. الرصيد التركي. رقم التصنيف ٥٠٢ - ب الملف ٣٣٧١، الورقة ١ ظهرها.

من حيث العدد ١٥٣٣٣ شخصًا المرتبة الثالثة بعد الهنود الذين يبلغ عددهم ٢٤٠٨٤ شخصًا وكذلك بعد المصريين الذين يبلغ عددهم ١٧٨٤٧ شخصًا. وعلى إثر الروس والبخاريين وسكان تركستان الصينية "يأتي الجاويون ١٣١٧١ شخصًا وعرب سوريا وفلسطين وطرابلس واليمن وحضرموت والخليج العربي ١٠٧٦٧ والأفارقة ٦٩٩٠ والعثمانيون واللبنانيون ٤٧٤٨ والمغاربة ٣٣١٧ والأفغان والبلوش ٢٩٩٧ والجزائريون ٢٤٠٤ والفرس ٢٤١٩ والصينيون ٤٩ والبوسنيون والهرسكيون ٢٤"(٧٨). أما الحجاج القادمون من الشمال عبر بور سعيد والسويس فقد بلغ مجموعهم ١١٣٦٦ شخصًا.

وحلل القنصل طريق سفر الحجاج من الإمبراطورية الروسية، واقترح إلزام جميع الذاهبين إلى الحج بقطع تذاكر السفر ذهابًا وإيابًا على البواخر الروسية، كما كان يجري في الدول الأخرى. واقترح فون تسيمرمان تشديد الرقابة على الحدود الروسية - الأفغانية، والبخارية - الأفغانية.

وأفيد أيضًا عن الأمانات التي تركها الحجاج في القنصلية الروسية خلال موسم الحج لسنة ١٩٠٧م (ذي الحجة ١٣٢٤هـ) بقيمة ٤٩٨٥٩ روبلا من روبلات القرض وبضمنها ٣٩٠٠١ نقوداً ١٠٨٥٨ روبلا في هيئة ممتلكات مؤمنة. ولأجل المقارنة ذكر أنه خلال موسم الحج السابق لعامي ١٩٠٥ - ١٩٠٦م (١٣٢٢-١٣٢٣هـ) وضع لدى القنصلية من الأمانات بقيمة ٣٠٢٨٠ روبلا(٧٩). وعدّ النمو الدائم لمقدار الأمانات والودائع إنجازاً من قبل العاملين في القنصلية.

وكان إيداع الأمانات في القنصلية تيسيرًا على العاملين فيها في إنجاز المهمة في حالة حدوث وفاة الحاج عند جمع إرثه، وهو ما واصل في غضون جميع الأعوام التسعة التي أمضاها فون تسيمرمان

---

(٧٨) المصدر السابق، الورقة ٣ ظهرها.

(٧٩) المصدر السابق، الورقة ٢١ وجها وظهرًا.

في منصب القنصل هنا إرساله إلى الوطن. وإنجاز هذه المهمة قد عقده الاستغلال الذي كان الحجاج عرضة له من طرف المطوفين (وهم الأدلاء في الحج) ووكلائهم الذين ينوبون عنهم، وكذلك أصحاب البيوت الذين كان يسمح لهم بأخذ الحجاج، وكانوا يدفعون مقابل ذلك إلى الشريف سواء عن طريق دفع مكافأة سنوية أو بمثابة رشوة ودفعة واحدة[٨٠]. وأبلغ القنصل أنه في عام ١٩٠٥م (١٣٢٣هـ) حين طالب الشريف عون الرفيق مثلاً أحد الوكلاء بدفع مبلغ ٣٠ ألف ليرة تركية أودعه في السجن؛ لكي يرغمه على دفعها.

وقد واصل عمل الدبلوماسيين الروس في جدة إلى حد الحرب العالمية الأولى التي عينت وزارة الخارجية عشيتها قنصلاً آخر في نجد غير أنه لم تتح له الفرصة للبدء في عمله.

وقد أدت الحرب العالمية الأولى والأحداث الدرامية التي أعقبتها والتي جرت في روسيا وهي ثورة أكتوبر البلشفية لسنة ١٩١٧م (ذي الحجة ١٣٣٥هـ)، والحرب الأهلية الدموية إلى انهيار الإمبراطورية الروسية. وانهارت أيضًا إمبراطورية أخرى سادت في منطقة الشرق الأوسط، وهي الإمبراطورية العثمانية.

ولكن خبرة تعاون روسيا مع بلدان شبه الجزيرة العربية والخليج العربي التي بدأت أواخر القرن التاسع عشر - أوائل القرن العشرين لم تذهب في طي النسيان بل تجسدت في أعمال الأجيال الجديدة من الساسة والدبلوماسيين.

(٨٠) المصدر السابق، الورقة ٢٦.

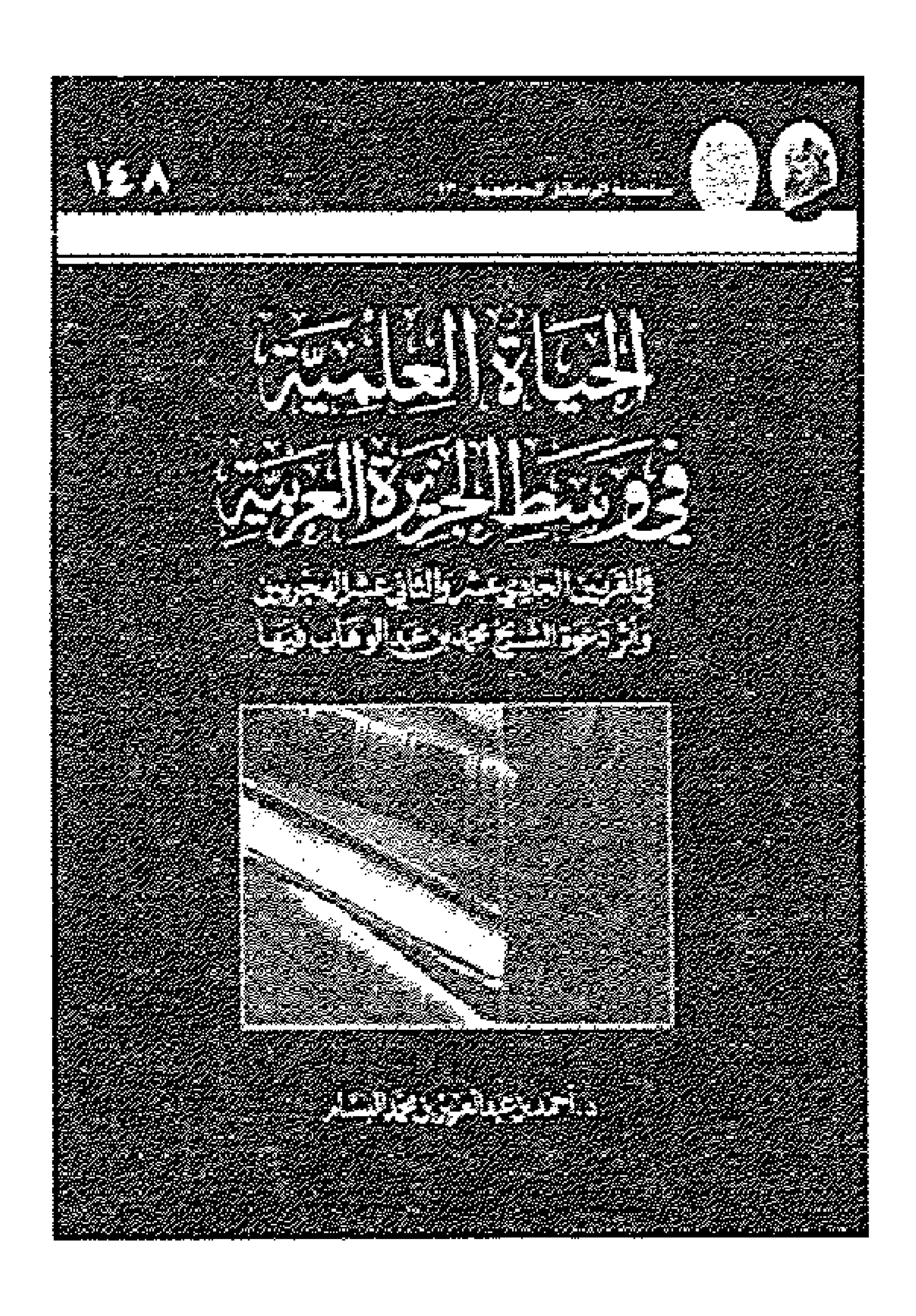
الحياة العلمية في وسط الجزيرة العربية

في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين وأثر دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب فيها

إعداد

د. احمد بن عبدالعزيز بن محمد البسام

٥٢٧ صفحة



يتناول هذا الكتاب الحياة العلمية في وسط الجزيرة العربية قبل ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب موضحًا السمات التي كانت تنطبع بها، ويدرس وصف بعض المصادر للحالة الدينية التي كانت تعيشها المنطقة، ويعرض صورًا مما كان منتشرًا من المخالفات الشرعية في تلك الفترة، كما يوضح تميز بعض المناطق في وسط الجزيرة باهتمامها بالتعليم الفقهي، وكثرة الرحلات من أجل طلب العلم الشرعي، ثم يعرض الكتاب بعد ذلك ظهور الدعوة الإصلاحية ويبين الآثار السامية التي تركتها فيها، والتي كان من أبرزها تنقيتها من الشوائب التي كدرت صفو عقيدتها الإسلامية، وربطها بنور القرآن الكريم وسنة نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام، وما أدى إليه ذلك من ازدهار ووفرة في التأليف والمناقشات والردود.





ص.ب ٢٩٤٥ - الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩/٤٠٢١٦٤ - فاكس ٤٠١٣٥٩٧
بريد الكتروني info@darah.org.sa

الخطابات العربية
في تصنيف الخارجية - متنوع
من تصنيفات الأرشيف العثماني

د. سهيل صابان
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

من أهم تصنيفات الأرشيف العثماني بإسطنبول فيما يخص العالم العربي، تصنيف الخارجية - متنوع، الذي يضم خطابات عربية كثيرة، أرسلت إلى السلطان عبدالحميد الثاني (١٢٩٣-١٣٢٧هـ/١٨٧٦-١٩٠٩م) وغيره من أعيان معروفين، أو مسؤولين إداريين أو من مختلف فئات المجتمعات العربية.

وعلى الرغم من أن الوثائق التي نقلت من قصر يلدز - وهو القصر الذي أدار منه السلطان عبدالحميد الثاني أمور الدولة العثمانية مدة ثلاث وثلاثين سنة - صنفت تحت مسمى يلدز بمختلف فروعه، إلا أن هذا التصنيف (أي تصنيف الخارجية) لم يصنف في التصنيف المذكور، على الرغم من أنه في العهد نفسه. والسبب في ذلك كون هذا التصنيف من وثائق وزارة الخارجية العثمانية التي كان لها أرشيفها المستقل في العقود السالفة، ثم ضمت إلى الأرشيف العثماني، وتضم مراسلات مختلف دول العالم إلى الدولة العثمانية، ومنها الخطابات الواردة من العالم العربي. إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا الصدد هو أن تلك الخطابات وردت إلى العاصمة إستانبول من داخل الدولة العثمانية وليست من خارجها. فلماذا

صنفت في هذا التصنيف ولم تصنف ضمن تصنيف يلدز الذي قسم لمجموعات فرعية كثيرة؛ بناءً على أن الوثائق التي يضمها تعود لفترة عهد السلطان عبدالحميد الثاني كما سلف ذكره؟

وهذا التصنيف - كما سبق بيانه - يضم آلاف الخطابات العربية من مختلف المناطق والبلاد العربية، أرسلت إلى السلطان العثماني، ويضم شكاوى لمختلف القضايا، وشكاوى من الموظفين العثمانيين العاملين في البلاد العربية، وتهنئة للسلطان العثماني بمختلف المناسبات، واعتراضات على قانون العشر؛ أي الرسم الذي تقرر تحصيله من المواطنين العثمانيين بمقدار العُشر، وخطابات في موضوعات متنوعة كثيرة[1].

وقد تم ترتيب هذه الوثائق والخطابات حسب تاريخ ورودها في ملفات، بحيث يشمل كل ملف مئة خطاب أو أكثر على وجه التقريب وحسب التسلسل التاريخي، مع ملاحقها من الترجمة العثمانية لتلك الخطابات. وعدد تلك الملفات حوالي خمسين ملفاً. والحقيقة أنه يمكن القيام بإجراء دراسات حضارية وعلمية على تلك الخطابات من حيث الموضوعات التي تتناولها، والقضايا التي كانت مثار جدل بين الإداريين العثمانيين (سواء أكانوا أتراكاً أم عرباً أم ألباناً أم غيرهم) والمواطنين العرب، وأنواع الخطوط التي كتبت بها تلك الخطابات، واللهجات المستعملة فيها، على الرغم من أن معظمها كتبت باللغة العربية الفصيحة مع استخدام جمل ركيكة في بعضها.

ومما لحظته أن بعض الملفات من هذا التصنيف خالية من خطابات عربية، وإنما هي خطابات ومراسلات فرنسية، وبجانبها ترجمة عثمانية مختصرة، على عكس معظم الملفات الأخرى الموجودة في هذا التصنيف التي تضم الخطابات العربية، التي أحيلت إلى

(١) تقوم دارة الملك عبدالعزيز حاليًا بالعمل على نشر هذه الخطابات العربية لأهميتها وإتاحتها للباحثين.

الصدارة العظمى (غرفة الباب العالي)، كما أفادت بذلك القيود الموجودة على الوثائق العثمانية في هذا التصنيف. ولذلك فمن يود الحصول على تلك الخطابات العربية فعليه الحصول على أرقامها من خلال فهارس غرفة الباب العالي (BEO).

ومعظم تلك الخطابات أرسلت محاضر إلى السلطان العثماني، اشتمل كل واحد منها على مئات التوقيعات، من عمد القرى والأعيان والمواطنين. وقد ذهلت لما رأيت الخطاب أو بالأحرى المحضر الذي أرسله أهالي حوران، ويضم توقيع ٤٤٥ شخصاً من حوران، يطلبون فيها إعفاء أولادهم من التجنيد الإجباري. وطول هذه الوثيقة أكثر من متر. وقد كتب بخط جميل وعبارات لبقة ثم توقيعات أصحابها وأختامهم. وهناك مئات الخطابات العربية التي يضم كل واحد منها عشرات التوقيعات والأختام، أرسلت إلى الباب العالي من مختلف البلاد العربية، وتتناول مختلف القضايا المهمة التي تخص كل منطقة أو بلد بعينها.

أما موضوعات هذه الخطابات فهي متنوعة، كما يفهم من اسم التصنيف نفسه: خارجية متنوع. فمنها خطابات أرسلها المواطنون العرب في فلسطين، يعرضون فيها مختلف المشكلات التي تعدّ مشكلات عامة لمنطقة بعينها في داخل فلسطين، كقيام أشخاص ببيع أراض في فلسطين إلى اليهود، وبعض المشاكل التي رفع رهبان بعض الكنائس في لبنان شكاواهم بشأنها إلى السلطان عبدالحميد الثاني، وبعض الخطابات التي بعث بها الشيخ مبارك آل صباح يعرض فيها مواقفه من الشيخ يوسف الإبراهيم وجماعته، وخطابات أخرى من آل صباح في هذا الخصوص، وخطابات ثالثة متناقضة بعثها الشيخ يوسف الإبراهيم ومؤيدوه في مسألة مشيخة الشيخ مبارك، وخطابات بعثها الدروز في لبنان موقعة ومختومة بمئات التوقيعات،

موضوعات هذه الخطابات العربية متنوعة، كما يفهم من اسم التصنيف نفسه: خارجية - متنوع

وخطابات بعثها الأهالي في بعض المناطق بمصر، وإدلب وحلب والشام والبصرة والموصل، ويافا، ومعان، ولبنان وسوريا وأهالي مجدل شمس في بيروت، وأهالي نابلس والقدس الشريف...

ومما لفت نظري في هذا التصنيف اعتماد أصحاب الخطابات على التوقيع والختم، فقلما يجد الباحث خطاباً خالياً من ختم أو أكثر في هذا التصنيف، إلا إذا كانت برقيات أرسلت من مختلف المناطق. مثل البرقيات التي بعثها أعيان الكويت من الفاو، والخطابات التي أرسلها مجموعات أشخاص من آل سعدون، شيوخ المنتفق في الناصرية. كما لفت نظري أيضاً عدة موضوعات مهمة - من أول وهلة - في تلك الخطابات: الخطابات التي بعثها المنفيون من الدروز إلى أنقره، والخطابات التي بعثها بعض اليمنيين المنفيين إلى جزيرة رودس، يطلبون فيها إخلاء سبيلهم والسماح لهم بالعودة إلى بلادهم.

كما لفت نظري أيضاً موضوع آخر هو اشتمال الخطاب الواحد على المظروف الذي أرسل فيه الخطاب إلى السلطان العثماني من خلال الصدر الأعظم، حيث ضم المظروف ختم البريد المرسل منه، ما يدل بشكل واضح على أن أي مواطن عثماني كان بإمكانه إرسال الخطاب بشكل مباشر إلى المسؤول الإداري الأكبر في عاصمة الدولة العثمانية إستانبول، دون البحث عن وساطة توصل الخطاب إلى المسؤول العثماني الأكبر في الدولة.

ولعل من الخطابات المهمة التي ضمها هذا التصنيف الخطاب الذي بعثه شيخ الأحامدة من قبيلة حرب الشيخ حذيفة بن سعد بن جزا في ١٥ شوال ١٣١٥هـ، يطلب فيها إرسال مخصصاتهم المالية التي خصصتها لهم الدولة، مقابل توفير الأمن لمنطقة ما بين الحرمين الشريفين، وأنه على الرغم من مرور فترة طويلة على تخصيص تلك الأموال لم يصلهم شيء، طالباً إرسال الأوامر اللازمة إلى والي الحجاز وأمير مكة المكرمة بدفعها إليهم. (HR.MTV. 720/44).

ومن الخطابات العـربيــة الطريفـة التي تناولت بعض الأشــعـار، الخطاب الذي بعثه من جزيرة رودس بعض اليمنيين المنفيين إليـها، والذي وضع عليه ختمه الشريف محمد بن عبدالله الحسني في (١٩ كـانون الأول ١٣١٢ رومي/٢٦ رجب ١٣١٤هـ/٣١ ديسـمـبـر ١٨٩٦م)، والذي بدأت مقدمته بالأبيات الآتية (HR.MTV. 720/30):

وكيل أمير المؤمنين جئتك قاصداً أرجـو رضـاك وأحـتـمي بحـمـاك
فـلأنت أكـرم شـافـع ومـشـفـع ومن التـجـأ بحـمـاك نـال وفـاك

ومنها الخطاب العربي الذي بعثه إسكندر شلهوب - مدير ورئيس تحرير صحيفة السلطنة - من مصر في ٢٦ نوفمبر ١٨٩٧م، يطلب فيه من الصدر الأعظم السماح لصحيفته السلطنة بالتداول في الأراضي العثمانية، وأنه مؤيد لسياسات الحكومة وغير معارض لها (HR.MTV. 720/74).

ومنها الخطاب الذي بعثه أعيان آل سعدون - شيوخ المنتفق - إلى الصدر الأعظم في ١٣ كانون الأول ١٣١٢ رومي، يطلبون فيه منه تخفيف الضرائب عليهم، فكلما جاءهم إلى المنطقة مسؤول إداري زاد من نسبة الضرائب التي يدفعونها إلى الدولة. وقد ضم الخطاب أكثر من أربعين اسماً، معظمهم من آل سعدون (HR.MTV. 720/16).

ومن ذلك أيضاً الخطابات المتنوعة التي بعثها أهل الحديدة إلى السلطان العثماني التي تتناول مختلف القضايا الخاصة بها. ويوجد ملف كامل (أي حوالي مئة خطاب على وجه التقريب) عن تلك الخطابات في هذا التصنيف تحت الرقم (HR.MTV. 742).

كما اشتمل هذا التصنيف على معلومات مهمة عن أعمال اللورد كرومر في مصر، والمراسلات التي بعثتها الحكومة المصرية إلى الباب العالي عنه، كما ضم مخطوطة عن تلك الأعمال التي كان يقوم بها في مصر (HR.MTV. 723/66).

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الثاني ربيع الآخر ١٤٢٨هـ، السنة الثالثة والثلاثون
الدارة

ومن الوثائق التي ضمها هذا التصنيف أيضاً الخطابات العربية الكثيرة التي بعثها محمد عارف ترجمان ولاية حلب إلى الباب العالي، يعرض فيها مختلف الأوضاع السياسية والاجتماعية في ولاية حلب في الفترة الأخيرة من العهد العثماني. من تلك الخطابات ما ضمه (HR.MTV. 722/18)، وكذلك وثائق أخرى في هذا التصنيف، ولابد من مسحه بالكامل؛ للاطلاع على الخطابات كافة التي بعثها محمد عارف ترجمان الحلبي. ومما يجدر ذكره هنا أيضاً ما أرسله أحد الأشخاص باسم مستعار "مخبر صادق" من الخطابات العربية المرسلة إلى الباب العالي، والذي عرض فيها شكواه من مختلف الموظفين والأعلام البارزين في بعض المناطق ببلاد الشام (HR.MTV. 722/67).

ومما لفت نظري الخطابات العربية الكثيرة التي بعثها إلى الباب العالي المنفيون من الدروز إلى مدينة قرشهير (الواقعة في الأناضول الأوسط)؛ حيث طلبوا فيها إخلاء سبيلهم، والسماح لهم بالعودة إلى حوران (HR.MTV. 722/66).

ومن تلك الخطابات المحضر الذي بعث به بعض الأعيان من أهالي عسير إلى الصدر الأعظم في (٢٥ صفر ١٣١٤هـ/٥ أغسطس ١٨٩٦م). وقد كتب الخطاب في الرابع من شهر صفر، وأرسل إلى إسطنبول في التاريخ المذكور بعد اكتمال وضع أختام الأعيان المذكورين. وفيما يأتي نص هذا المحضر العربي المحفوظ في تصنيف الخارجية/متنوع (HR. MTV. 719/40) دون تحليل لمضمونه أو شرح للظروف التي كتب فيها :

[إلى] مقام جليل حضرة صدارة أفخمية

دولتلو فخامتلو أفندم حضرتلري [سيدي صاحب الدولة والفخامة]

بعد رفع الأكف إلى الله بالدعاء والابتهال إلى حضرة بارينا ذو [ذي] القدرة والجلال بدوام بقائكم وعلو ارتقائكم على ممر الأيام والليالي، قد عرضنا إلى حضرة دولتكم العلية وعواطف المراحم السنية بأننا أعيان وعقال الأهالي الإسلامية المجاورين لمركز الحكومة في موقع متصرفية لواء عسير في أبها. ومن المعلوم عندنا وعند غيرنا من الأمة المحمدية الإسلامية على نبيها أفضل الصلاة والسلام والتحية أن حضرة مولانا السلطان الأعظم نصره الله وأدامه وقرن بالعدل أحكامه، خليفة الله على أمته والقائم من بعده بشريعته وعدالته بين الأمة المحمدية مثل الشمس شارقة وفيض إحسانه عليها كل حين ووقت بارقة سلطان الإسلام والمسلمين، خادم الشريعة المحمدية، قامع الكفرة والمتمردين، فنرجو الله أن يوفقه، ويلهمه فينا العدل والصواب بإجرائه الشريعة المحمدية بيننا بنص حكم الكتاب، آمين. ثم لا يخفى [على] دولتكم أفندم أنه حل بنا وحشة عظيمة ملمة، وظلمة شديدة مدلهمة؛ حيث صرنا من عدالة دولتنا مأيوسين [يائسين] ومن مراحمها محرومين، ووالله ثم والله إن حضرتكم عند الله مسؤولين، [و]دليله قول الرسول الأمين: "كلكم راع ومسؤول عن رعيته". وهذا الأمر في يدكم؛ حيث إن الخليفة الأعظم سلمنا إلى حضرتكم، وبلادنا اليوم في حال عظيم؛ حيث إن الفساد يوماً فيوماً في زيادة، وعم الفساد وطم من جميع الوجوه، بسفك الدماء ونهب الأموال وقطع الأسبال وعدم الأمان بين البادية والسكان. وليس لذلك سبب إلا أن الله تعالى قد وفق [رزقنا] بمتصرف يعرف طبيعة البلاد وأحوال العباد. وعدم اعتنا[ء] حكومة مركزنا بنا وبأحوالنا، والإهمال والتراخي واقعاً بعدم معرفة المتصرفين الموجودين عندنا اليوم بلساننا وطبائعنا، ولا يفرقون بين الطيب والخبيث والصادق من الكاذب، ولا ينظروا [ينظرون] في أمورنا، ولا ينصفون مظلومـ[اً] من ظالم، حتا [حتى] صرنا مجبورين بأخذ كل شخص حقه من غريمه

بيده؛ حتا [حتى] أفضى بنا ذلك الحال إلى وقوع الفتن بيننا فوق العادة، وصارت وسط المركز وأطرافه قتل ونهب. والمحكمة الشرعية ما عاد يدخل فيها أحد إلا أفراد من الأصناف والقبائل فيما بينهم من قتل ودعاوي المرافعة فيها عائدة على المحكمة الشرعية، يترافعون فيها إلى الطواغيت. [و]أسبابه إهمال الحكومة وتراخيها في حقوق العباد؛ حتا [حتى] إن الأكثر من أصحاب الحقوق إذا جاءوا إلى الحكومة يعرضون دعاويهم وأحوالهم عند المتصرف المشار إليه دائماً، يطردهم ما يشوف [ما ينظر] في دعاويهم، ويصعب عليه النظر في دعايهم من كبر سنه وعدم معرفته. ومع هذا ما له معرفة بوقت التحصيلات، ولا وقت الأيسار من الأعسار، ولا وقت الفرصة. وعندنا اليوم في المركز أمير من أمراء العسكرية موجود، يعرفنا ويعرف البلاد مدة خمسة [خمس] عشرة سنة، وهو ميرآلاء حسن شكري بيك [بك]. رجل عاقل كامل صادق الدولة، صادق الأهالي، صاحب معرفة ودراية وسياسة. وشجاعته وسطوته مشهورة على العاصين والمتمردين والمخالفين والأشقيا[ء] ... في فسادهم وشقاوتهم التي اشتهرت بين عموم سناغ [سنجق] عسير. فمن شجاعته ودرايته قطع فسادهم وبدد شملهم وهزم جمعهم وجعلهم عبرة للسائرين. ومشا [سيَّر] مأمورين في تحصيلات ناحية شهران وقحطان، وتحصل منهم حقوق الدولة على الوجه المناسب من غير وقوع أدنا [أدنى] وقوعات، لا قتل ولا نهب ولا ضاع على الأهالي قرش واحد، ولا على الخزينة. فمن أجل ما نعلم فيه من الصلاح لنا وللدولة العلية نسترحم من المراحم السنية أن تحيلوا [تعهدوا] إليه متصرفية لوائنا؛ حيث نجزم يقيناً أنكم إن جعلتوه [جعلتموه] متصرفاً في لوائنا أن يصلحه صلاحاً تاماً في مدة قليلة، ويريح البلاد والعباد. والمرجوا [المرجو] من حضرت [حضرة] دولتكم تجرون الأمر بأحالة [بإحالة] متصرفية لوائنا إلى الميرآلاي المومى

إليه. وقد تجاسرنا بتقديم هذا المحضر نامه إلى أعتابكم الجليلة، وجوابكم مطلوب. وعلى كل الوجوه الأمر لمن له الأمر أفندم.

٤ صفر الخير ١٣١٤[هـ]

(طابع معاملات بقيمة قروش واحد [وعليه تاريخ]) ٢٥ صفر الخير ١٣١٤[هـ]

أعيان قبيلة بني مغيد عسير

محمد بن أحمد (الختم)

محمد بن علي (الختم)

لاحق بن علي (الختم)

عايض بن فايع (الختم)

عامر بن علي (الختم)

عايض بن يحيى (الختم)

عبدالله بن محمد (الختم: قمشا بن محمد)

سعيد بن عبدالله (الختم)

محمد بن أحمد (الختم)

محمد بن [غير واضح] (الختم)

أحمد بن محمد (الختم)

شفلوت بن عايض (الختم)

سعيد بن عبدالله (الختم)

أبو عاطر علي (الختم)

مشبب بن علي (الختم)

سعد بن حسين (الختم)

أعيان قبيلة علكم عسير

عبدالله بن معيض (بصمة)

علي بن محرز [؟](الختم)

مريع بن يحيى (بصمة)

مشبب كامر [؟] (بصمة)
صالح يحيى (الختم)
ناصر بن عبدالله (الختم: ناصر بن مرعي)
علي (الختم)

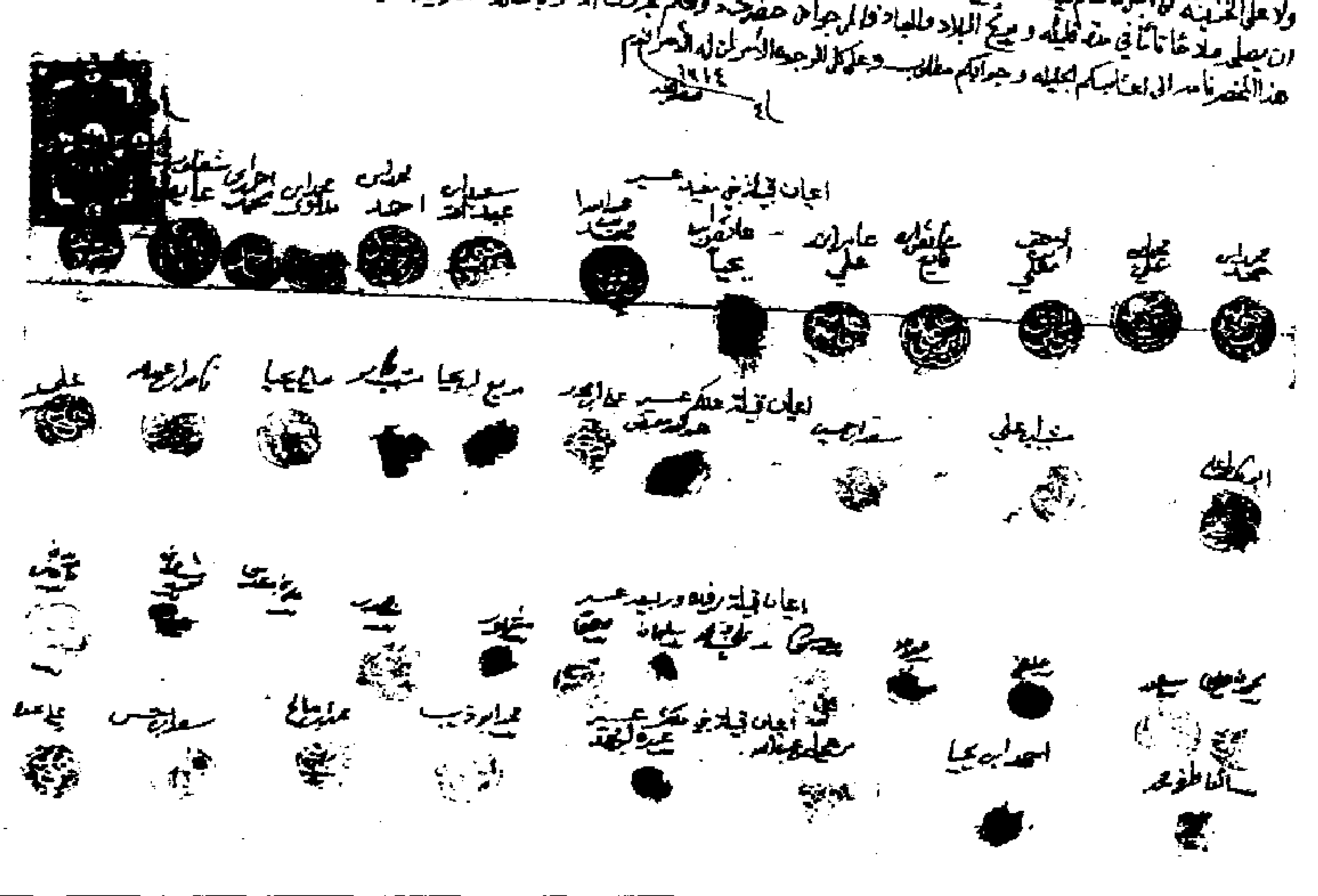
أعيان قبيلة رفيدة وربيعة عسير

محمد بن علي (الختم)
ابن سعيد (الختم)
ابن عايض [؟] (بصمة)
ابن عبدالله (بصمة)
بن موسى (بصمة)
بن علي ومحمد
بن سليمان (بصمة)
لاحق (الختم)
مشهور (بصمة)
منصور (الختم)
علي بن سعدي [؟]
سعيد بن محمد (بصمة)
عبدالله بن عامر (الختم)

أعيان قبيلة بنو [بني] مالك عسير

العاطفي [؟] محمد (بصمة)
أحمد بن يحيى (بصمة)
مرعي بن عبدالله (الختم)
عبدالله بن محمد (بصمة)
محمد أبو ذيب (الختم)
محمد بن صالح (الختم)
سعد بن حسن (الختم)
علي عبدالله (الختم)

ملاحق



وثيقة رقم (١)

خطاب من أعيان وأهالي عسير إلى الصدر الأعظم



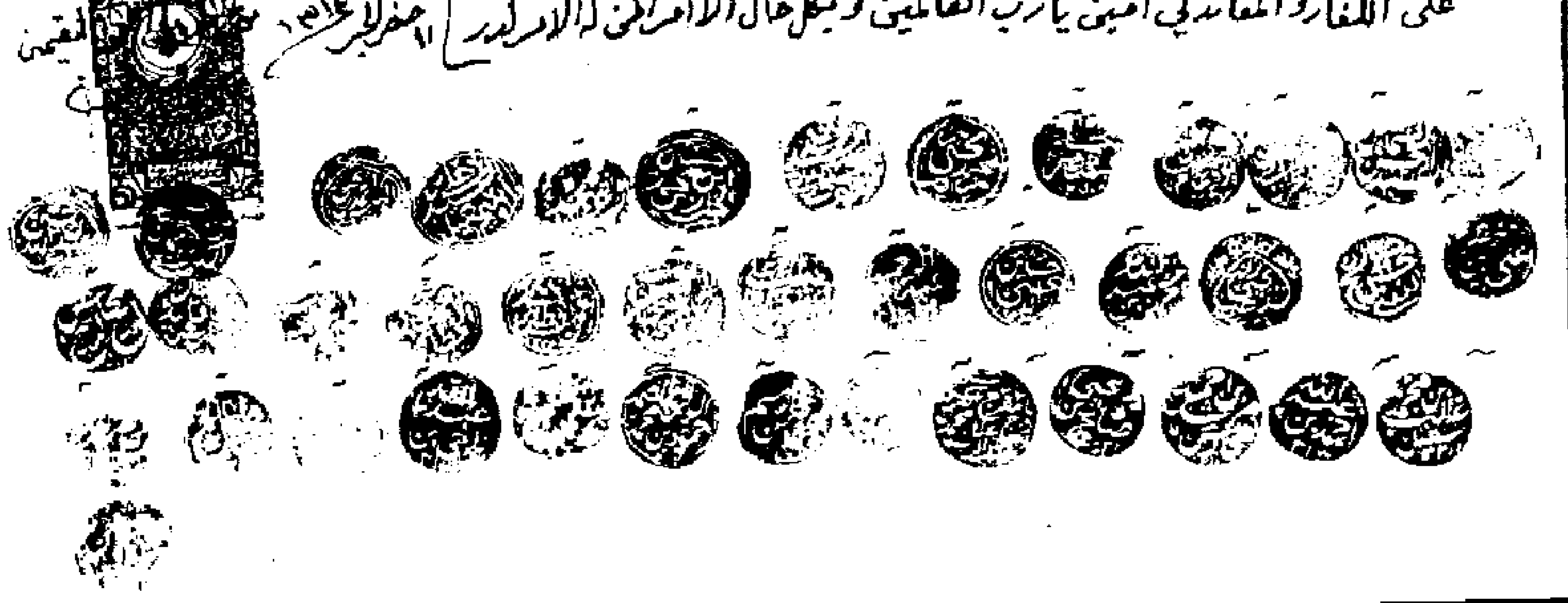


٥٠

حضور سامى جناب صدارتپناهى

دولتلو فخامتلو افخم حضرتلرى

نسألكم بالله وبعظمة الله تعالى انتبهوا على احوالنا لنا مغربون عن اهلنا واولادنا اربع سنين في رودس ولم نكن نستحق ما قد صار بنا
وباهلونا والآن في رودس من مدت ثلاثة أشهر ونصف مقطوع عنا اليومية وكلما طلبنا الحكومة تسليم اليومية لنا صار الجواب
انه لم يكن امر من الباب العالي بصرف اليومية لنا وعجزنا عن ما يقوم بنا من قوت الرقبه في رودس ونحن غربا ديار
بيننا وبين بلادنا مسافة شهرين وصرنا نتحملين الديون في رودس وعجزنا عن نفوسنا واهلونا واولادنا في اليمن
قد ضاق بهم الحال وعفوا سلطان المسلمين وخليفة رسول رب العالمين شامل لاهل الجرايم المستحقين التخليد اما عبيدكم الحقرا
فنحن ضعفا مساكين لا لنا جرم ولا قباحة توجب ما قد صار بنا وكلما قدمنا عرضحال الى الباب العالي من مدت اربع سنين
الى الآن فلا تحصل لنا افاده ولا جواب فيا غوثاه بالله وبسلطان المسلمين انتبهوا على احوالنا وسلكونا مسلك
الشريعة المحمدية على صاحبها افضل الصلوة والسلام والعدالة السنية السلطانية فنحن مسلمون لا نظلم بلا ذنب
واذا تقرر علينا ما يوجب تخليدنا بحكم الشريعة فنحن تحت امر الشريعة وامر امير المؤمنين السلطان الاعظم خلد الله دولته الى
منتهى الدوران يا غوثاه يا غوثاه بالله وبرسول الله وبسلطان المسلمين حامي حمى الحرمين الشريفين ايده الله ونصره
على الكفار والمعاندين امين يا رب العالمين وبكل حال الامر لمن له الامر



وثيقة رقم (٢)

خطاب من بعض اليمنيين المنفيين إلى جزيرة رودس إلى الصدر الأعظم

صفحات من نشاط حكيموف الدبلوماسي[١]

أ. د. فاديم كوزمين[٢]

ترجمة: زهير التجاني

بطريقة تراجيدية انتهت حياة الدبلوماسي السوفييتي كريم عبدالرؤوف حكيموف، الذي كان أول سفير للاتحاد السوفييتي في المملكة العربية السعودية، حيث راح ضحية القمع الستاليني في الثلاثينيات من القرن الماضي. ورغم أن المحكمة العسكرية العليا أعادت الاعتبار الكامل لحكيموف عام ١٩٥٦م (١٣٧٥هـ) إلاّ أن اسم "حكيموف" لم يظهر تقريبًا على صفحات الأدبيات العلمية، كما لم يرد ذكره في الطبعات الثلاث الأولى من "القاموس الدبلوماسي" الذي صدر في الخمسينيات والسبعينيات الميلادية. وفي البحث الضخم الذي أنجزه الباحث الروسي المعروف ألكسي فاسيلييف عن تاريخ العربية السعودية الصادر عام ١٩٨٢م (١٤٠٢هـ) لم تتم حتى الإشارة إلى حكيموف. أما السكندر أومنوف، الخبير في تاريخ العلاقات الدولية بالشرق الأوسط، فعدَّ في إحدى مقالاته عام ١٩٨٩م (١٤٠٩هـ) - التي أشار فيها إلى عمل حكيموف في المملكة العربية السعودية - أن هذا الأخير ينحدر من إحدى دول آسيا الوسطى، رغم أن حكيموف ابن فلاح فقير من بشكيريا. إن هذه

---

(١) نشر هذا البحث باللغة الروسية في مجلة جامعة أورال الحكومية، المجلد السابع، عام ١٩٩٧م، ص ٥٠-٥٧.

(٢) رئيس قسم الاستشراق بكلية العلاقات الدولية بجامعة أورال الحكومية في روسيا.

الوقائع وغيرها تشهد على أن سيرة حياة حكيموف وبعض تفاصيل عمله الدبلوماسي في بلدان الشرق خلال العشرينيات والثلاثينيات غير معروفة بشكل جيد حتى بين المستشرقين ومؤرخي العلاقات الدولية(٣).

ولد حكيموف بتاريخ ٢٨ نوفمبر ١٨٩٢م (١٣١٠/٥/٩هـ) في قرية دوسيانيفو على الحدود بين بشكيريا وإقليم أرينبورغ. وفي الثانية عشرة من عمره بدأ العمل أجيرًا زراعيًا في أراضي الباي المجاورة. ورغم الوضع المادي الصعب الذي كانت تعانيه أسرته، أظهر كريم ولعًا بالدراسة، فبعثه والده إلى كُتّاب القرية. حيث تعلّم الكتابة العربية، وقرأ القرآن وكثيرًا من الكتب الإسلامية، وفي شهر أغسطس ١٩٠٦م (١٣٢٤هـ) غادر حكيموف مسقط رأسه بحثًا عن لقمة العيش.

---

(٣) إن هذا البحث نشر عام ١٩٩٧م (١٤١٨هـ)، ولهذا السبب من الطبيعي لم يتم ذكر البحوث والمقالات التي نشرت بعد هذا التاريخ في الموضوع نفسه سواء كانت باللغة العربية أو باللغة الروسية، حيث نشرت الأعمال الآتية:

- عبدالله حسين عبدالمحسن: العلاقات السعودية الروسية (١٩٢٦-١٩٧٨) وثائق سوفيتية، الرياض، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- د. فهد السماري: مهمة كريم حكيموف لمقابلة الملك عبدالعزيز، مجلة الدارة، ع ٣، س ٢٦، ١٤٢١هـ، ص ١٥٥-١٦٤.
- د. رضا الحكيم: جانب من العلاقات السعودية الروسية، مجلة الحرس الوطني.
- طائر منصوروف: القصة التاريخية للسفير نذير تيورياقولوف في الجزيرة العربية، موسكو، ٢٠٠٢م، (باللغة الروسية). ونشر باللغة العربية بعنوان: نظير تورياكولوف مبعوث الاتحاد السوفيتي في المملكة العربية السعودية ١٩٢٨-١٩٣٥م، ترجمة د. ماجد التركي، ٢٠٠٤م.
- د. علي محمد أحمد الشهري: العلاقات السعودية السوفيتية والسعودية الروسية (١٩٢٦-١٩٩٧م)، الرياض، دار أشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- د. ماجد بن عبدالعزيز التركي: العلاقات السعودية الروسية في ضوء المتغيرات الدولية (١٩٢٦-٢٠٠٤م)، الرياض، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- كريم حكيموف: سنوات من حياته في أرينبورغ (الإنسان وعهده)، في كتاب صفحات مجهولة في الاستشراق الروسي، موسكو، ٢٠٠٤م. (باللغة الروسية).
- بشكير توستان، الموسوعة الموجزة، أوفا، ١٩٩٦م. (باللغة الروسية).

وبعد أن قطع ٢٠٠ فرسخ ماشيًا على قدميه وصل إلى أرينبورغ حيث عمل بوابًا، وقد ساعده بائع في أحد المتاجر على تعلم اللغة الروسية، فأجادها قراءة وكتابة. وفي صيف ١٩٠٧م (١٣٢٥هـ) غادر حكيموف أرينبورغ إلى محطة تشيلكار، وهي إحدى محطات خط سكة حديد طشقند، حيث عمل في البداية عند أحد التجار فرّاشًا ثم عاملاً بالسكة الحديد. وفي خريف العام نفسه حلّ بقرية كارغالي الكبيرة في ضواحي أرينبورغ، وبالقليل من المال الذي ادخره التحق بالمدرسة الدينية. وإلى جانب ذلك كان يعمل خادمًا عند زملائه التلاميذ ومرافقًا لأحد العميان. وغادر حكيموف مدرسة كارغالي الدينية، ليعود إلى أرينبورغ من أجل مواصلة الدراسة، إلاّ أنه لم يعثر هناك على عمل؛ فغادر المدينة في ربيع ١٩٠٨م (١٣٢٦هـ) نحو سهوب كازاخستان حيث عمل معلمًا للغة التركية لأبناء أحد الأغنياء القوزاق. ومن جديد عاد حكيموف إلى أرينبورغ خريف السنة نفسها حيث التحق بالمدرسة الدينية التترية. وبعد أن قضى فترة الشتاء في الدراسة عاد إلى القرية الكازاخية، ليعود بعدها مرة أخرى خلال الشتاء التالي للدراسة في المدرسة التترية بقرية نيكولسك في إقليم أرينبورغ.

في خريف ١٩١٠م (١٣٢٨هـ) التحق كريم حكيموف بالمدرسة الدينية الشهيرة "غاليا" بمدينة "أوفا"، حيث كانوا يدرّسون مواد متنوعة عامة إلى جانب المواد الدينية، إضافة إلى اللغة الروسية، ومع ذلك فحتى هذه المدرسة لم ترض حكيموف. وفي ربيع ١٩١١م (١٣٢٩هـ) تركها ليسافر إلى آسيا الوسطى، حيث قضى جزءًا من سنوات حياته يجوب المدن بحثًا عن مصدر العيش، فاحترف مهنًا مختلفة من عامل يدوي إلى عامل بمناجم الفحم في وادي فرغانة وغيرها.



في تلك السنوات الصعبة لم يكن حكيموف ليتصور أن خبرته الحياتية واحتكاكه بتقاليد الشعوب المسلمة وعاداتها بروسيا القيصرية وتعليمه الديني الذي حصّله من المدارس الدينية ستساعده كثيرًا في إتقان العمل الديبلوماسي، ممثلاً لمصالح الدولة الجديدة التي ظهرت بدل الإمبراطورية الروسية بعد ثورتي فبراير وأكتوبر ١٩١٧م (١٣٣٥هـ) في مختلف بلدان الشرق.

شارك حكيموف في الحرب الأهلية كبلشفي قائدًا في الجيش الأحمر، واشتبك في الأورال مع القوزاق من الجيش الأبيض الذي يقوده القائد دوتوف، وشارك في تشكيل الفرقة المسلمة للجيش الأحمر، وكان عضوًا باللجنة الحزبية الثورية الإسلامية، عمل قوميسارًا (وزيرًا) إقليميًا للتعليم الشعبي، وسكرتيرًا للجنة المركزية للحزب الشيوعي في تركستان ثم عمل سكرتير للجنة المركزية للحزب الشيوعي في بخارى. وعن شجاعته وجرأته كانت تُروى الأساطير، وكان الناس يُقدّرون فيه طيبته ونزاهته، بالمعنى العميق لهذه الكلمة. وقد عمل وحارب في بعض المراحل تحت قيادة ف. كويبيشيف الذي قال عنه في تقرير أعده عن نشاطه بناء على طلب اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي) لروسيا "عرفته سنوات ١٩١٩-١٩٢٠م (١٣٣٧ - ١٣٣٨هـ) في تركستان. وبين العاملين المسلمين كان منظمًا بطريقة شيوعية دون أي نزعة قومية، عمل بداية في القسم السياسي للجبهة، ثم سكرتيرًا عامًا للجنة المركزية بتركستان، ثم نائبًا لي في بخارى.. أعتقد أن الرفيق حكيموف عضو نزيه بالحزب. وهو ينحدر من أصل بروليتارية"(٤)، وكان كويبيشيف تحديدًا من رشح حكيموف للعمل في الحقل الدبلوماسي.

بدأ كريم حكيموف نشاطه الديبلوماسي عام١٩٢٠م (١٣٣٨هـ) عندما أصبح نائبًا للممثل المفوض لجمهورية روسيا السوفييتية

---

(٤) ل. عاديلوف - ف. غوميروف - الديبلوماسي الثوري - أوفا ١٩٧٧م، ص٨٣.

(ممثل الجمهورية كان كويبشيف) في جمهورية بخارى الشعبية السوفييتية. وفي أغسطس ١٩٢١م (ذي الحجة ١٣٣٩هـ) تم نقل حكيموف إلى موسكو للعمل بوزارة الخارجية السوفييتية، حيثُ كُلِّف بمهمة جديدة في بلاد فارس (إيران) كقنصل عام في مدينة مشهد التي وصلها في بداية أكتوبر ١٩٢١م (صفر ١٣٤٠هـ) مكلفًا بمتابعة عمل السلطات المحلية بخصوص تنفيذ بنود الاتفاق السوفييتي - الإيراني الموقع في ٢٦ فبراير عام ١٩٢١م (١٨ جمادى الآخرة ١٣٣٩هـ).

وخلال عمل حكيموف في مدينة مشهد برزت موهبته الفطرية تجاه اللغات الأجنبية. فعند وصوله إلى إيران لم يكن يعرف إطلاقًا أي شيء عن اللغة الفارسية، فاتخذ بستانيًا ليعلمه اللغة الفارسية، وكان يستمع باهتمام للأحاديث التي تدور في الشارع والأسواق، وبعد شهرين استطاع إلقاء كلمة أمام الإيرانيين، وبعد خمسة أشهر أصبح يتحدث الفارسية بطلاقة لغتهم، وفيما بعد تمكّن من اللغة العربية أيضًا، كما كان يتكلم اللغات الفرنسية والإيطالية والتركية، وكان يعمل دون اللجوء إلى مترجمين.

في مايو ١٩٢٢م (رمضان ١٣٤٠هـ) عُين حكيموف قنصلاً عاما للاتحاد السوفييتي في ريشته (إيران)، ثم عمل في لجنة الحدود السوفييتية الإيرانية المشتركة. وفي يناير عام ١٩٢٤م (جمادى الآخرة ١٣٤١هـ) دُعي إلى موسكو حيث كُلِّف بمهمة جديدة، إذ أصبح أول قنصل عام للاتحاد السوفييتي في مملكة الحجاز في شبه الجزيرة العربية.

وقبل ذلك في ديسمبر ١٩٢٢م (جمادى الأولى ١٣٤١هـ) خلال فعاليات مؤتمر لوزان عقد اجتماع بين وزير خارجية جمهورية روسيا السوفييتية غ. تشيتشيرن مع ممثل ملك الحجاز الأمير حبيب لطف الله. وقد كتب تشيتشيرن إلى نائبه م. ليتفنيوف رسالة حول مضمون

ذلك اللقاء، جاء فيها: "لقد تحدثت عن تطلعنا إلى إنشاء قنصلية روسية في جدة، وقد أصر [الأمير لطف الله] أيضًا على ذلك، إني أرى فعلاً أنه من المهم جداً أن يكون لنا قنصل في جدة، فهي تقع بالقرب من مكة التي لا يسمح لغير المسلمين بالعيش فيها، وجدة هي عاصمة مملكة الحجاز، ولذلك فإن قنصلنا فيها سيكون في قلب العالم الإسلامي: لأن الحجاج يمرون من هناك، ومن ثم سيتمكن قنصلنا من متابعة معظم الحركات السياسية في العالم الإسلامي التي كانت بعيدة عن أنظارنا، وانطلاقًا من سياستنا تجاه الدول الإسلامية، أعتقد أنه لابد أن يكون لنا ممثل في قلب العالم الإسلامي"(٥).

إن قنصلنا فيها سيكون في قلب العالم الإسلامي؛ لأن الحجاج يمرون من هناك

وقد دامت المباحثات حول إقامة علاقات رسمية بين الاتحاد السوفييتي والحجاز قرابة سنتين، وكان سبب طول مدة المباحثات غياب اتصالات مباشرة ومنتظمة، وهي الاتصالات التي لم تتنظم سوى في نهاية عام ١٩٢٣م (١٣٤٢هـ) عندما حل الأمير لطف الله ممثلاً للحجاز بروما، حيث توجد سفارة دائمة للاتحاد السوفييتي.

بتاريخ ٣ أبريل ١٩٢٤م (٢٨ شعبان ١٣٤٢هـ) كتب تشيتشيرن رسالة إلى سفير الاتحاد السوفييتي في إيطاليا يورينف يبلغه فيها قرار موسكو تعيين كريم حكيموف قنصلاً عامًا للاتحاد السوفييتي في الحجاز. جاء في الرسالة بهذا الخصوص: "إن قرار إقامة علاقات ديبلوماسية مع الحجاز، اتخذه أقوى جهاز (المقصود المكتب السياسي للبلاشفة - الكاتب) خلال وجودي في لوزان... وقد تم تنفيذ ذلك... ففي الحجاز، كما في دول أخرى، سيكون للاتحاد السوفييتي قنصلية عامة مثله مثل باقي الدول، وبالمقابل سيكون

(٥) دورية وزارة خارجية الاتحاد السوفييتي، ١٩٩٠م، العدد ٢١، ص٣٧.

للحجاز في موسكو سفير...، وبالنسبة لنا فإن وجودنا في مكة يأتي في الدرجة الأولى من حيث الأهمية، ولهذا تحديدًا تم تعيين مسلم في منصب القنصل العام؛ حتى يتمكن من البقاء في مكة. وباستثناء حكيموف لم نجد مسلمًا آخر يناسب هذا المنصب، رغم أننا بحثنا طويلاً.

إن للرفيق حكيموف نواقصه، ولكنها لا تقارن بنواقص المرشحين الآخرين، لقد تعود الرفيق حكيموف سياستنا؛ لأنه شغل لدينا عدة مناصب، لقد قررنا أن يسافر حكيموف إلى الحجاز في القريب"(٦).

وجاء في برقية وزير خارجية الحجاز التي تلقتها موسكو يوم ٢٤ أبريل ١٩٢٤م (٢٠ رمضان ١٣٤٢هـ) أن المراسلات بين الاتحاد السوفييتي والحجاز عبر سفيرنا في روما أثبتت رغبة الحجاز القوية في إقامة علاقات رسمية مع الاتحاد السوفييتي، وكتب "إننا في انتظار وصول ممثلكم الذي تعينونه ووفق رؤيتكم"(٧)، وفي اليوم نفسه وقع م. كالينين رئيس اللجنة التنفيذية لاتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية أوراق اعتماد كريم حكيموف قنصلاً عامًا للاتحاد السوفييتي في الحجاز.

في يونيو ١٩٢٤م (ذي القعدة ١٣٤٢هـ) غادر أول ممثل للاتحاد السوفييتي في الجزيرة العربية موسكو متوجهًا إلى الحجاز، وقبيل مغادرته استقبله تشيتشيرن، وأحاطه بصورة الوضع في الحجاز وشبه الجزيرة العربية، ولم يخف عنه تشيتشيرن أن العمل سيكون صعبًا، وزوده بنصائح عملية قيّمة، وطلب منه أن يولي اهتمامًا خاصًا بمتابعة تحركات بريطانيا في هذه المنطقة، حيث تتمتع بموقع قوي.

(٦) المصدر نفسه، ص٣٨.

(٧) وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي. موسكو، ١٩٦٣م، المجلد٧، ص١٦٢.

في نهاية يوليو وصل حكيموف مع أسرته وموظفي القنصلية إلى جدة، ولأن المبعوث السوفييتي كان مسلمًا فقد سُمح له أن يقدم أوراق اعتماده لملك الحجاز الحسين بن علي في مكة يوم ٩ أغسطس ١٩٢٤م (٩ المحرم ١٣٤٣هـ)، وأصبحت هذه البعثة هي أول ممثلية رسمية للاتحاد السوفييتي في البلدان العربية.

في ذلك الحين شهدت الجزيرة العربية بداية أحداث مهمة، فقد دشن سلطان نجد الملك عبدالعزيز، المعروف بقوة إرادته وعزمه الزحف نحو الحجاز بهدف توحيد الجزء الأكبر من الجزيرة العربية تحت سلطته، وفي هذا الإطار بعث تشيتشيرن رسالة بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٩٢٤م (١٦ ربيع الأول ١٣٤٣هـ) يكلف فيها حكيموف بالمهمة الآتية: "الحفاظ على علاقة الصداقة مع الحجاز... وعدم تفويت أي فرصة للاتصال بابن سعود، القوة الجديدة الصاعدة في الجزيرة العربية"، إن مصالحنا تجاه القضية العربية تتمثل في توحيد الأراضي العربية في دولة واحدة، فإذا كان ابن سعود ينتهج سياسة توحيد العرب، فإن ذلك سيكون متطابقًا مع مصالحنا، وسيكون علينا محاولة التقارب معه كما فعلنا ذلك في علاقتنا بالحسين الذي حاول توحيد الجزيرة العربية"(٨).

في ديسمبر ١٩٢٤م (جمادى الأولى ١٣٤٣هـ) دخلت قوات الملك عبدالعزيز مكة، وأصبح حكيموف، الذي عين ممثلاً دبلوماسيًا لدى حكومة الحجاز، في وضع صعب للغاية، وقد تفهم تشيتشيرن ذلك، فبعث لحكيموف بتوجيهاته في رسالة بتاريخ ١٧ مارس ١٩٢٥م (٢٢ شعبان ١٣٤٣هـ)، جاء فيها: "يبدو أن أحداث الحجاز تقترب من نهايتها، ويجب أن نبني تكتيكنا بطريقة تمكننا من الحفاظ على قنصليتنا في "الأراضي المقدسة"، فإذا لم تستول قوات ابن

---

(٨) دورية وزارة خارجية الاتحاد السوفييتي ١٩٩٠م، العدد ٢١، ص٤٣.

سعود على جدة، سيكون علينا الاستمرار في تأدية دور أصدقاء الهاشميين ودعم العلاقات الدبلوماسية مع الحكومة الحجازية...، أما إذا أخذت الأحداث مجرى آخر، واستولى ابن سعود على جدة، وطرد الهاشميين من "الأراضي المقدسة"، فسيكون علينا آنذاك منح وجودكم في الحجاز وضعاً آخر...، لابد من الاستفادة من كل إمكانية متاحة للحفاظ على قاعدة للوجود السوفييتي في شبه الجزيرة"(٩).

وتنفيذاً لتعليمات تشيتشيرن، توجه حكيموف إلى مكة، حيث استطاع لقاء الملك عبدالعزيز، وهو اللقاء الذي أشاد به تشيتشيرن في رسالة إلى حكيموف بتاريخ ٩ يوليو ١٩٢٥م (١٦ شوال ١٣٤٣هـ)، كتب فيها: "لقد حققت زيارتك إلى مكة نجاحاً كبيراً، فقد أثرت معلوماتنا عن حقيقة وضع الملك عبدالعزيز ونواياه، وبالنظر إلى أن الزيارة سمحت بإقامة أولى الاتصالات معه فيمكن عدّ ذلك نتائج طيبة"(١٠).

وفي الرسالة نفسها كلّف تشيتشيرن بعثة حكيموف في الجزيرة العربية بمهمات جديدة أوسع: "إن آفاق التعاون العربي - التركي تهمنا جداً، ولهذا نود أن نتلقى منكم معلومات أشمل قدر الإمكان حول هذه المسألة، ولابد من القيام بالإعداد التمهيدي للاتصال بالإمام يحيى وأنتم من موقعكم أدرى بكيفية تحقيق ذلك. ويهمنا بالخصوص إن كان يمكن عن طريق موظفينا الذين يستجمون في إريتيريا إقامة اتصالات مع الحبشة ومحاولة جس نبض حكومة الحبشة بطريقة غير رسمية حول استئناف العلاقات وبعث ممثلنا إلى تلك البلاد. وفي الوقت نفسه انتقد تشيتشيرن حكيموف؛ لأنه "لم يول، في تقاريره إلى وزارة الخارجية السوفييتية، اهتماماً كافياً للعلاقات بين الملك عبدالعزيز والإمام يحيى"(١١).

(٩) المصدر نفسه، ص٤٠-٤١.

(١٠) المصدر نفسه، ص٤٣.

(١١) المصدر نفسه، ص٤٤.

في ديسمبر ١٩٢٥م (١٣٤٤هـ) بسطت قوات ابن سعود سلطتها على جدة، وفي بداية ١٩٢٦م (١٣٤٤هـ) أصبح يحمل لقب "ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها" مؤسسًا بذلك الدولة التي ستسمى فيما بعد (ابتداء من سبتمبر ١٩٣٢م) المملكة العربية السعودية. وفي ١٦ فبراير ١٩٢٦م (٤ شعبان ١٣٤٤هـ) كان الاتحاد السوفييتي أول دولة تعترف بالدولة الجديدة في شبه الجزيرة العربية. ففي ذلك اليوم انطلق القنصل العام السوفييتي كريم حكيموف مغامرًا بحياته على متن سيارته، التي تحمل العلم السوفييتي، يقودها بنفسه، وتحت تبادل إطلاق النار، عبر الصحراء من جدة إلى معسكر الملك عبدالعزيز ليسلمه مذكرة رسمية، جاء فيها: "إن حكومة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، وانطلاقًا من مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها تعترف بكم ملكًا للحجاز وسلطان نجد وملحقاتها. انطلاقًا من ذلك فإن الحكومة السوفييتية مستعدة لإقامة علاقات ديبلوماسية طبيعية مع حكومة جلالتكم"، وفي المذكرة الجوابية عبر الملك عبدالعزيز عن "استعداده الكامل للعلاقات مع الحكومة السوفييتية ومواطنيها بالشكل الذي يميز العلاقة بين الدول الصديقة"(١٢).

وكان لموقف الحكومة السوفييتية، بصفته أول من اعترف بالدولة السعودية - أهمية كبيرة في تعزيز وضع المملكة العربية السعودية على المستوى الدولي، وكما أبلغ حكيموف موسكو، فقد دفع الاعتراف السوفييتي بريطانيا ودول أخرى إلى الاعتراف أيضًا بالدولة السعودية. وكتب حكيموف: "يمكن النظر إلى اعتراف بريطانيا، الذي تميز بالاستعجال، بأنه كان اضطرارياً"(١٣).

كان لموقف الحكومة السوفييتية، كأول من اعترف بالدولة السعودية، أهمية كبيرة في تعزيز وضع المملكة

(١٢) الاتحاد السوفييتي والبلدان العربية ١٩١٧-١٩٦٠م، وثائق ومواد، موسكو، ١٩٦١م، ص٦١-٦٢.

(١٣) وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي، موسكو ١٩٦٥م، المجلد ١٠، ص١٣٤.

عمل كريم حكيموف في الحجاز أربع سنوات، أصبح خلالها معروفًا لدى مختلف فئات السكان في شبة الجزيرة العربية، وأطلق عليه العرب اسم كريم بيه. وكان وزير الخارجية تشيتشيرن راضيًا عن عمله، وكما تشهد عليه وثائق أرشيف السياسة الخارجية السوفييتية المنشورة مؤخرًا، فقد كانت تقارير حكيموف عما يجري في المملكة والعلاقات الدولية وسياسة الدول الأخرى في هذه المنطقة، تُدرس وتُحلل بعناية في وزارة الخارجية السوفييتية. وفي ملاحظات تشيتشيرن التقييمية لعمل حكيموف كثيرًا ما نصادف عبارات، مثل: "صحيح تمامًا"، إن ملاحظاتكم (مخاطبًا حكيموف) العملية ستكون محل اهتمامنًا"(١٤). أليس هذا اعترافًا بالكفاءة العالية التي بلغها كريم حكيموف وهو يشغل منصبه الديبلوماسي في جدة !.

في سبتمبر ١٩٢٨م (١٣٤٧هـ) تم تعيين نذير تيورياكولوف قنصلاً سوفييتيًا عامًا في جدة، أما حكيموف فقد عُين ممثلاً للجنة الدولة للاتحاد السوفييتي للتجارة مع دول الشرق الأوسط في اليمن. وكما كتب المؤرخ إ. سينتشينكو: "بهذه الخطة" "الشطرنجية" يبدو أن الحكومة السوفييتية حكمها تصور واسع ينطلق من أن حكيموف يستطيع، ليس فقط تعزيز موقع الاتحاد السوفييتي في اليمن، كما قام بذلك في المملكة العربية السعودية، بل والعمل على تسوية العلاقات بين الإمام يحيى والملك عبدالعزيز في شبه الجزيرة العربية، ورفع اهتمامهما بالاتحاد السوفييتي"(١٥).

في رسالة بتاريخ ٣٠ أبريل ١٩٢٩م (١٣٤٧/١١/٢١هـ) أبلغ م. كالينين، الإمام يحيى، مصادقة الاتحاد السوفييتي على معاهدة الصداقة والتجارة السوفييتية - اليمنية الموقعة عام ١٩٢٨م،

---

(١٤) انظر دورية وزارة خارجية الاتحاد السوفييتي، ١٩٩٠م، العدد٢١، ص٤٣ و٤٨ وأخرى.

(١٥) ب. سينتشينكو، الخليج العربي: نظرة عبر مئة سنة. موسكو ١٩٩١م، ص٩٨.

واستعداد الحكومة السوفييتية "العمل على تطوير وتعزيز علاقات الصداقة المنصوص عليها في هذه المعاهدة"، و"إن المواطن كريم حكيموف الذي سيسلمكم هذه الرسالة يتمتع بثقتنا الكاملة، وأرجو أن تكونوا على ثقة كاملة أنه سيتشرف بتمثيل الاتحاد السوفييتي. وبتزكيتنا له، آمل أن يحظى بعطف جلالتكم"[١٦].

عمل حكيموف في اليمن أكثر بقليل من سنتين، من منتصف ١٩٢٩م حتى يناير ١٩٣٢م (١٣٤٨ - ١٣٥٠هـ)، ومع ذلك فقد عمل الكثير خلال هذه الفترة القصيرة لتطوير العلاقات السوفييتية - اليمنية وتعزيزها. وفي وصف ف. بوبوف لعمل كريم حكيموف في الجزيرة العربية كتب السفير السوفييتي بالجمهورية العربية اليمنية عام ١٩٩٠م (١٤١٠هـ): يصعب تقييم كل ما قام به هذا الرجل دبلوماسيًا كممثل لبلادنا. فبإسهامه الشخصي إلى حد كبير، وضع أساس العلاقات بين الدولة السوفييتية الفتية والعالم العربي... وبفضل معرفته العميقة بتاريخ وتقاليد وعادات العرب، ولباقته غير العادية وقدرته على كسب تعاطف الناس، استطاع حكيموف أن يتمتع لدى اليمنيين والسعوديين باحترام كبير، لقد أتقن اللغة العربية بشكل مدهش، حتى إن العرب كانوا يندهشون من قدرته على عرض أفكاره بهذا القدر من العمق بأسلوب عربي صاف. إن قراءة الوثائق التي كتبها بخط يده تمثل في حد ذاتها متعة لا تضاهى: فبأي إتقان ودقة كتبت، وأي لغة تعبيرية ذلقة. لقد كان ضيفًا مرحبًا به في القصور، وبكل سعادة كان يستقبله الفقراء في بيوتهم البسيطة، وكان بيته دائما مزدحمًا بالضيوف، يأتيه التجار والمقربون من العائلة المالكة، وكذلك بسطاء الناس[١٧]، وبلغة معاصرة يمكن القول: إن حكيموف

---

(١٦) وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي، موسكو ١٩٦٧م، المجلد١٢، ص٢٥٦.

(١٧) ف. بوبوف - في أقصى جنوب شبه الجزيرة العربية - الحياة الدولية ١٩٩٠م، العدد ٦، ص٧٠.

كان إنسانًا نادرًا في قدرته على التواصل مع الناس. لم يكن طويل القامة، وكانت تنتشر على جلده آثار جدري قديم بسبب غبار الفحم، وبنظراته الثاقبة كان يتحول بسرعة إلى الوجه الرئيس في أي جلسة، وكان يجيد الغناء، وفي اللحظات الصعبة كان يستطيع الحفاظ على روح المرح. ويتذكرون في العاصمة اليمنية كيف كان خلال الأمسيات كثيرًا ما يعزف على الكمان ألحانا رائعة ينتشر صداها عبر كل المدينة. كانت أبواب دار الممثلية للتجارة مع دول الشرق الأوسط المكونة من ثلاثة طوابق مفتوحة في وجه الجميع، سواءً كانوا تجارًا أو رجال دين أو مثقفين.

كان اليمنيون يُستضافون عادة في الطابق الثاني، الذي كان عادة دون نوافذ، وقد فرش بالسجاد يجلس فوقه الضيوف يحتسون فناجين القهوة والشاي مع الأرغفة البشكيرية والنرجيلة التي تتناقلها الأيدي وهم يتداولون أحاديث هادئة، وقد وصفه كل من عرفه بأنه رجل محترم في كل أعماله وإنسان بالغ الطيبة والتواضع وماهر في جميع الحرف. وخلال سنوات عمله الديبلوماسي في الجزيرة العربية اضطر لأن يكون سائقًا وميكانيكيا، وأن يقوم بنفسه بإصلاح المحطة الكهربائية، وصنع أثاث المنزل.

كانت الظروف التي عمل فيها موظفو البعثات السوفييتية الأولى في الجزيرة العربية (البعثة السوفييتية في صنعاء تكونت من عشرة أشخاص فقط) قاسية جدًا: حرارة لا تطاق، وأمراض منتشرة ونقص المياه الصالحة للشرب والمواد الغذائية، كانت المنطقة كأنها قطعة خالصة من القرن الثالث عشر!.

وبسبب المرض غادر حكيموف اليمن إلى موسكو في يناير ١٩٣٢م (شعبان ١٣٥٠هـ)، حيث وصلها في الخامس من فبراير (١٣٥٠/٩/٢٨هـ)، وسرعان ما كلف بمهمة ديبلوماسية جديدة، ففي مايو ١٩٣٢م (ذي الحجة ١٣٥٠هـ) زار الاتحاد السوفييتي وفد

حكومي من مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها، وقد ترأس هذا الوفد نجل الملك عبدالعزيز ونائبه في الحجاز والقائم بأعمال وزير الخارجية، الأمير فيصل. وبأمر من قيادة وزارة الخارجية سافر حكيموف بوصفه الممثل السابق للاتحاد السوفييتي في الحجاز، ليستقبل الأمير على الحدود السوفييتية البولندية في محطة سكة حديد نيجوريلوي، وفور وصوله إلى موسكو التقى الأمير فيصل، بمرافقة حكيموف، مع م. كالينين في الكرملين.

في أكتوبر ١٩٣٢م (جمادى الآخرة ١٣٥١هـ) زكت القيادة الحزبية حكيموف للدراسة في معهد الأساتذة بقسم الاقتصاد الدولي والسياسة الدولية. وفي يناير ١٩٣٥م (شوال ١٣٥٣هـ) خلال العطلة الشتوية، سافر حكيموف، بعد غيبة طويلة، إلى مسقط رأسه بشكيريا. وفي أوفا علم بوفاة ف. كويبيشيف الذي يدين له حكيموف بالكثير في مصير حياته.

وبعد تخرجه من المعهد عام ١٩٣٥م (١٣٥٤هـ) التحق كريم حكيموف من جديد بالعمل الدبلوماسي، حيث عين سفيرًا للاتحاد السوفييتي بالمملكة العربية السعودية. وقد أدت عودته إلى شبه الجزيرة العربية إلى بعث حياة جديدة في العلاقات السوفييتية - السعودية. وبفضل سمعة حكيموف في ديوان الملك عبدالعزيز وديناميكيته ومعرفته إيجاد الطريق إلى قلوب العرب، تم استئناف الحوار السياسي بين الاتحاد السوفييتي والمملكة العربية السعودية، ومن جديد بدأ التجار العرب يتقدمون باقتراحات عملية مع الاتحاد السوفييتي. إلا أن آفاق تنشيط العلاقات السوفييتية - السعودية سرعان ما وصلت إلى طريق مسدود بسبب الأحداث السياسية التراجيدية التي كان الاتحاد السوفييتي قد بدأ يشهدها. فحملة القمع الستاليني التي اجتاحت المجتمع السوفييتي أثرت سلبًا على السياسة الخارجية للدولة، حيث تمت إبادة الكوادر الدبلوماسية.

وكان خيرة الممثلين الديبلوماسيين يُستدعون إلى البلاد ليختفوا دون أثر وراء جدارن وزارة الداخلية.

ولم تسلم من آلة القمع، الممثلية السوفييتية في جدة أيضًا، ففي ٦ سبتمبر ١٩٣٧م (١ رجب ١٣٥٦هـ) تم استدعاء كريم حكيموف إلى موسكو فجأة، حيث اعتُقل بناء على بلاغ كاذب لأحد موظفي الممثلية، واتُهم بـ"النشاط المفرط" و"التجسس" لحساب دول عدة، وحوكم على أنه عدو للشعب" ليعدم عام ١٩٣٨م (١٣٥٧هـ). وعندما علم الملك عبدالعزيز بذلك تأثر بشدة، وأعلن أنه لا يريد سفيرًا سوفييتيا آخر. وردا على ذلك قررت موسكو بمبادرة من وزير الخارجية م. ليتفينوف تطبيق مبدأ خفض العاملين في البعثة الدبلوماسية السوفييتية في جدة. وفي ١٣ أبريل ١٩٣٨م (١٣ صفر ١٣٥٧هـ) تقرر إغلاق السفارة السوفييتية في المملكة العربية السعودية. وفي ١١ سبتمبر ١٩٣٨م (١٧ رجب ١٣٥٧هـ) غادر كل موظفي البعثة السوفييتية في جدة. وهكذا أصبحت العلاقات الرسمية بين الاتحاد السوفييتي والمملكة العربية السعودية التي لم تقطع شكليا ضحية من ضحايا القمع الستاليني. وفي ١٧ سبتمبر ١٩٩٠م (٢٧ صفر ١٤١١هـ) فقط قرر الاتحاد السوفييتي والمملكة العربية السعودية استعادة العلاقات الديبلوماسية على مستوى السفراء.

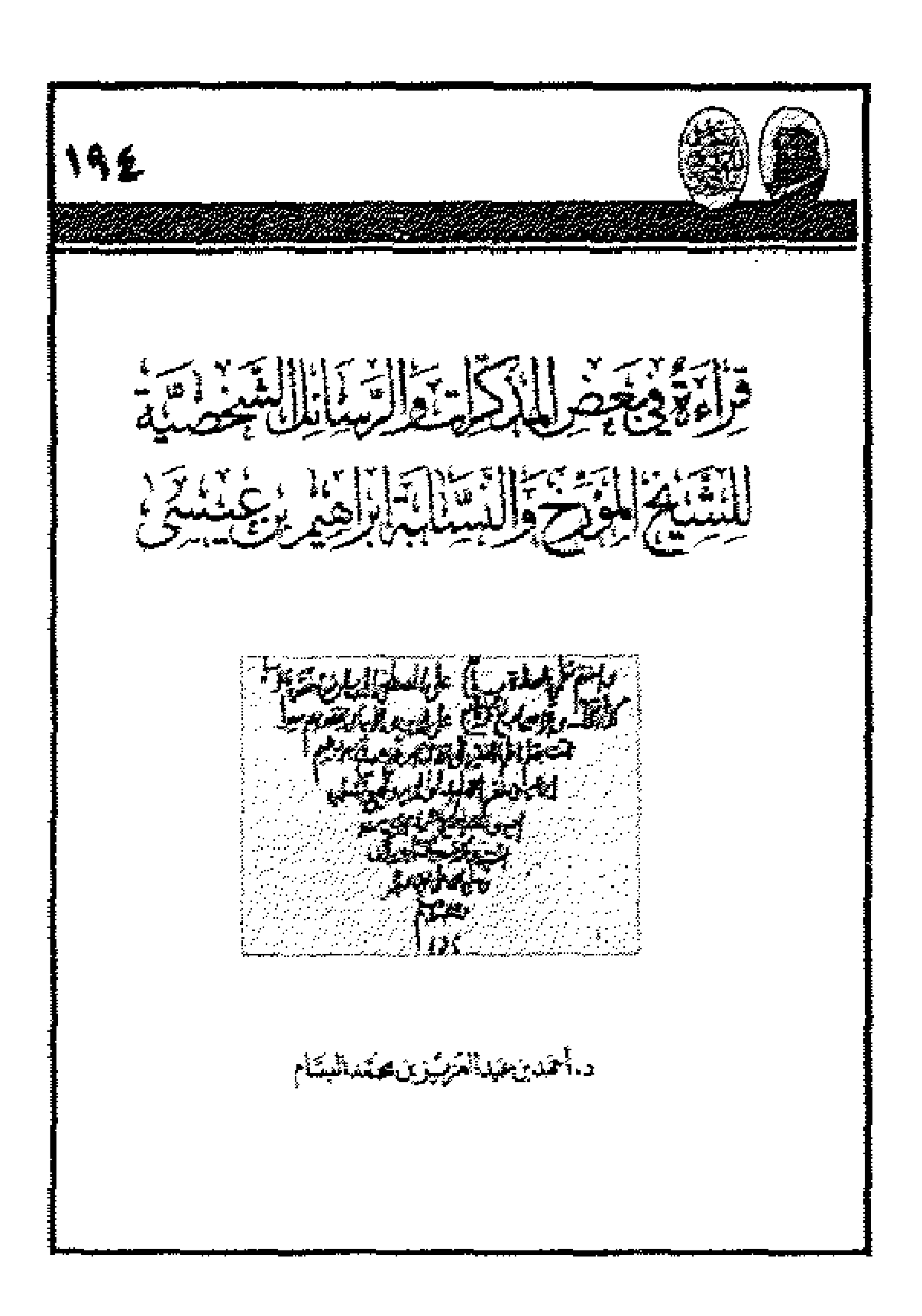
إن دور كريم حكيموف في إيصال الديبلوماسية السوفييتية إلى الشرق يستحق بكل المقاييس التذكار. وقد أقيم متحف عن حياة ونشاط كريم حكيموف في مسقط رأسه بشكيريا، وتحديدًا في قريته ديوسيانوفا، كما أطلق اسمه على عدد من الشوارع في مدن أرينبورغ وبخارى وطشقند وأوفا، وعلى خشبة مسرح بشكيريا الدرامي تعرض بنجاح على مدى سنوات طويلة مسرحية الكاتب ن. أسانبايف "الباشا الأحمر"، والتي تروي نشاط حكيموف الديبلوماسي في الجزيرة العربية.

قراءة في بعض المذكرات والرسائل الشخصية للشيخ المؤرخ والنسابة إبراهيم بن عيسى

إعداد

د. أحمد بن عبدالعزيز بن محمد البسام

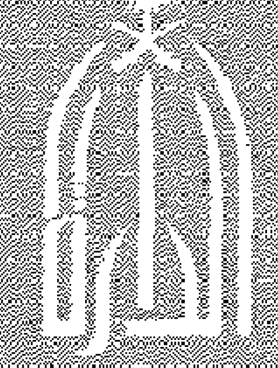
٢٠٨ صفحة



يقدم هذا الكتاب قراءة في بعض المذكرات والرسائل الشخصية للشيخ المؤرخ والنسابة إبراهيم بن عيسى رحمه الله، ويتناول فيها الكتابات الخاصة بالشيخ ابن عيسى وأسرته، واتصالاته بالعلماء وطلبه للعلم، ورحلاته العلمية، وما نقله من كتابات لبعض العلماء ورسائلهم ووصاياهم.

وتأتي أهمية الكتاب من مكانة الشيخ ابن عيسى الذي يعد أحد أبرز مؤرخي الجزيرة العربية في عصورها المتأخرة إلى جانب أن هذه المذكرات والرسائل كتبت في مرحلة تاريخية مهمة من مراحل تاريخ الجزيرة العربية الحديث، وهي سقوط الدولة السعودية الثانية، وقيام الدولة السعودية الثالثة على يد المؤسس الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله.





ص.ب ٢٩٤٥ - الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩/٤٠٢١٦٤ - فاكس ٤٠١٣٥٩٧
بريد الكتروني info@darah.org.sa

شخصيات رائدة من الأحساء

جمع وإعداد: معاذ بن عبدالله المبارك

الخبر: الدار الوطنية الجديدة، ١٤٢٥هـ، ٢٣٢ صفحة

د. عبدالرحمن بن مديرس المديرس
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

تتناول المراجعة النقاط الآتية:

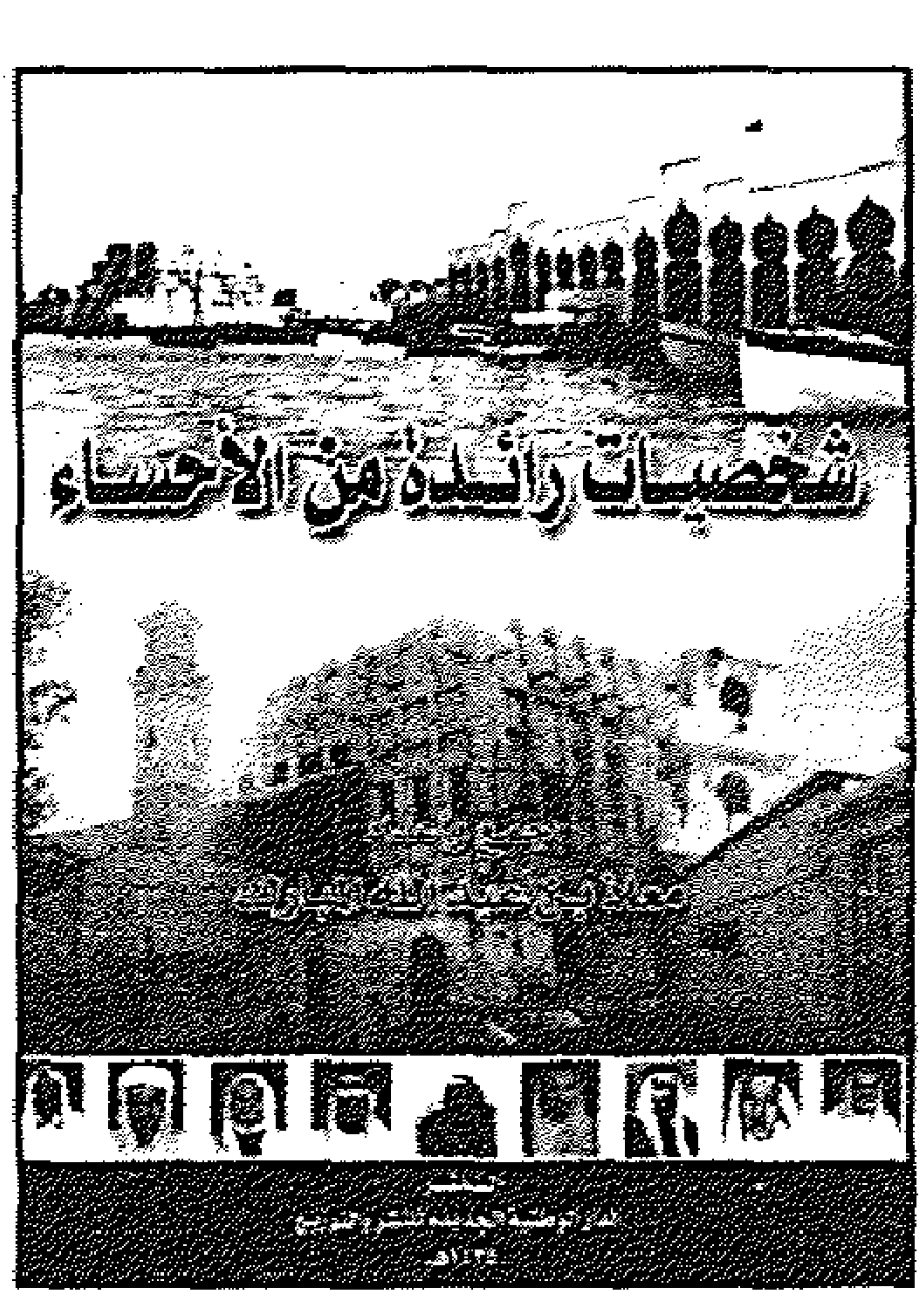
أولاً: موضوع الكتاب

قبل الحديث عن هذه النقطة تستحسن الإشارة إلى العنوان "شخصيات رائدة من الأحساء"، إذ لم يحدد الباحث في مقدمة الكتاب المعايير الدقيقة للريادة التي اعتمدها للمترجم لهم، فالريادة هي الانفراد بالتفوق وغزارة العلم والمعرفة والتأليف والإسهام الكبير في المجالات المختلفة أو إحداها علمية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية أو غيرها؛ لذا أرى تعديل العنوان ليكون مثلاً "شخصيات من الأحساء"؛ حتى يتفق مع محتوى الكتاب.

أما موضوع الكتاب فيتناول الترجمة لـ (٣٤) شخصية أحسائية ذات نشاط علمي واجتماعي واقتصادي، وتغلب الخلفية العلمية للمترجم لهم، حيث اشتمل الكتاب على (٢٩) ترجمة، وقد تبوأت بعض تلك الشخصيات مناصب ومسؤوليات كبيرة في الدولة، مثل: الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي وزير العمل الحالي، والدكتور محمد عبداللطيف الملحم وزير الدولة عضو مجلس الوزراء السابق، والأستاذ عبدالعزيز منصور التركي - رحمه الله - مدير التعليم في



المنطقة الشرقية، والملحق الثقافي في لندن. واشتمل الكتاب على الترجمة لخمس شخصيات ذات أدوار اجتماعية واقتصادية في الأحساء. ويلحظ أن اثنين من المترجم لهم ليسا من أبناء المنطقة بل قدما إليها، فقد قدم الأول وهو محمد بن علي بن عبدالهادي بن علي (أفندي) من مدينة الموصل بالعراق إلى الأحساء سنة ١٣١٤هـ، واشتغل مع إخوته بالتجارة، ثم عمل في أعمال ومناصب حكومية عدة. أما الشخصية الثانية فهو الأستاذ عبدالعزيز منصور التركي رحمه الله، "وأصله من الهلالية بالقصيم"، قدم من المدينة المنورة سنة ١٣٦١هـ، وتولى مناصب تعليمية عدة، كان آخرها مديراً للتعليم بالمنطقة الشرقية، ثم أصبح ملحقاً ثقافياً في لندن.



لم يحدد الباحث الإطار الزمني للدراسة سواءً في عنوان الكتاب أو مقدمته، إنما التزم الباحث بالإطار المكاني للأحساء.

يغلب على الكتاب الطابع العلمي بجميع جوانبه الفقهية والأدبية والفكرية وغيرها. فيما تحدث عن بعض جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والإدارية من خلال بعض التراجم.

ثانياً: منهج الباحث

انتهج الباحث أسلوب السرد التاريخي الوصفي في ترجمة أغلب الشخصيات، وهي الطريقة التقليدية التي تبدأ بنسبه ومولده وتعليمه ورحلاته العلمية وأساتذته ثم تلاميذه وإنتاجه العلمي ومعلومات أخرى ضمن نطاق سيرته الذاتية ثم وفاته، ولكنه لم يلتزم بهذه الطريقة في كل ترجمة.

أما مصادره فقد اعتمد بالدرجة الأولى على البحث الميداني الذي يتمثل في المقابلات الشخصية أو ما يعرف بالرواية الشفاهية أو الرواية الشفوية مع اعتماده على بعض المراجع القليلة من كتب ومجلات وصحف.

ثالثاً: إضافات الباحث واستدراكاته على من سبقه

يظهر أن الباحث قد جمع معلومات جيّدة عن عدد من تلك الشخصيات من خلال المقابلات الشخصية (الرواية الشفهية)، التي يشكل بعضها إضافات واستدراكات على من سبقه، رغم أن بعض المعلومات لها وجود من خلال الدراسات والأبحاث التي نشرت قبل ذلك.

رابعاً: النقد الموضوعي

الإيجابيات:

يمثل الكتاب إضافة جيّدة للدراسات عن تاريخ الأحساء، وإبراز بعض الشخصيات التي لم تتم الترجمة لهم من قبل، كما أن استخدام الباحث للرواية الشفهية يؤكد أهمية هذا المصدر في الدراسات والأبحاث العلمية.

السلبيات:

لم يستخدم الباحث المنهج العلمي المتبع في الدراسات والبحوث العلمية من خلال تبويب البحث وتنظيمه، واستخدم الأسلوب التحليلي النقدي في الدراسة، ويمكن توضيح ذلك من خلال ما يأتي:

١ - لم يحدد الباحث الحدود الزمنية للدراسة في عنوان البحث.

٢ - استخدم الباحث في ترتيب التراجم أسلوباً غير معتاد في الأبحاث والدراسات العلمية، وهو الترتيب حسب الميلاد.

٣ - لم يحدد الباحث منهجاً ثابتاً في ترجمة الشخصيات، بل اختلف التبويب والتنظيم للتراجم من شخصية لأخرى .



٤ - تفتقر الدراسة للتوثيق الشامل بالاعتماد على المصادر والوثائق والمراجع وغيرها ورصدها في الحاشية ضمن صفحات الكتاب رغم إشارة الباحث في المقدمة إلى وجود تلك المصادر في حوزته.

٥ - لم يشر الباحث في غلاف الكتاب أنه الجزء الثاني، فيما ذكر ذلك في مقدمة الكتاب ص٥، فلابد من توحيد المنهج.

٦ - لم يشر الباحث في مقدمة الكتاب ص ٥ - ٨ إلى مصادر الدراسة عدا الرواية الشفوية.

٧ - بعض المعلومات حول السيرة الذاتية لبعض الشخصيات غير دقيقة، وبحاجة إلى مراجعة، ومنها ص١٢٧ تاريخ مولد الشيخ عبدالله بن عمر بن دهيش ١٣١٦هـ بدلاً من ١٣٢٠هـ، وص١٨٩ حول التحاق عبدالله المبارك بالثانوية سنة ١٣٦٥هـ ومن المعلوم أن المدرسة الثانوية بالأحساء لم تفتح إلا سنة ١٣٦٧هـ، والصحيح أنه التحق بدار التوحيد بالطائف سنة ١٣٦٤هـ وتخرج منها.

خامساً: الإضافات والمقترحات

١ - تعديل العنوان ليصبح مثلاً "شخصيات من الأحساء".

٢ - تحديد الإطار الزمني ووضعه أسفل عنوان الكتاب.

٣ - تنظيم التراجم بطريقة منهجية، واستخدام الأسلوب التحليلي والنقدي، ومحاولة التوصل لبعض الآراء والنتائج لكل ترجمة.

٤ - ترتيب التراجم إما حسب التسلسل الأبجدي أو حسب تاريخ الوفاة وليس تاريخ الميلاد. أما من هم على قيد الحياة فيتم ترتيبهم حسب تاريخ الميلاد.

٥ - توثيق المادة العلمية بالاعتماد على جميع المصادر والمراجع والوثائق والإشارة إليها في ثنايا البحث.

٦ - اختصار القصائد الواردة في الكتاب، والاكتفاء بأمثلة من أبيات عدة لكل مترجم.

٧ - إضافة بعض النصوص الأدبية (النثرية) إن وجد لدى بعض العلماء والأدباء المترجم لهم.

٨ - الاهتمام في الخاتمة بالنتائج التي توصل إليها الباحث من خلال الدراسة، حيث إنها حصيلة جهد ودراسة الباحث والتي يوضح من خلالها مدى أهمية الدراسة.

٩ - نقل الصور إلى نهاية الكتاب وجعلها ضمن الملاحق إذا كانت تلك الصور ضرورية أو إلغاؤها، مع العلم أن إحدى تلك الصور ص١٣٨ التي تشير إلى منزل سعد القصيبي بحي النعاثل والمنقولة من كتاب في شبه الجزيرة العربية المجهولة لتشيزمان هي لمكتب القصيبي بالهفوف ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م، وليس منزلهم كما ذكر الباحث انظر في شبه الجزيرة العربية المجهولة ص١١٦.

١٠ - معلومات الباحث عن أسرة القصيبي حاشية ص٨٨ نقلاً عن الشيخ حمد الجاسر في مقال بجريدة الرياض نقلاً عن كتاب التجار علمًا أنه كان لابد من العودة إلى المرجع الأساسي، حيث أشار إلى ذلك مايكل فيلد الجزء الثاني ص٥٩. أما ما يتعلق بأبناء عبدالله القصيبي الذين انتقلوا إلى الأحساء فهم ثلاثة وليسوا اثنين كما ذكر الباحث، أكبرهم محمد، وأوسطهم حسن، وأصغرهم إبراهيم.

١١ - رصد المقابلات الشخصية ضمن مصادر ومراجع الدراسة، وتوضيح زمان ومكان تلك المقابلات لتوثيق الدراسة، ورصد مصادر ومراجع الدراسة ووضعها في نهاية الكتاب.

١٢ - العودة إلى بعض المراجع التي أشارت إلى بعض الشخصيات،

ومنها كتاب الأعلام للزركلي، علماء نجد خلال ثمانية قرون لعبدالله البسام، القسم الثاني من كتاب محمد آل عبدالقادر تحفة المستفيد الخاص بالعلم والأدب، مظاهر ازدهار الحركة العلمية في الأحساء خلال ثلاثة قرون لعبدالله بن عيسى الذرمان، فتاوى علماء الأحساء ومسائلهم لعبدالعزيز بن أحمد العصفور (٢ ج)، وبعض مؤلفات الأستاذ عبدالله الشباط حول الأحساء التي رصدها الباحث ضمن ترجمته لتلك الشخصية.

١٣ - من المستحسن عمل كشاف للأعلام والقبائل والأماكن الواردة في ثنايا الكتاب.

١٤ - إذا كان لدى الباحث بعض الوثائق الخطية فيمكن إضافتها للكتاب لتكون ضمن ملاحق الدراسة لإعطاء الكتاب أهمية علمية عن تاريخ الأحساء.

في الختام، هذا الكتاب إضافة جيدة لتاريخ الأحساء والحركة العلمية فيها.

al_darah

SUBSCRIPTION FORM

I wish to subscribe to Al-darah for :

❑ One year ❑ Tow years ❑ Five years

Please forward my copies to the following address :

Address

Name ....

Street..

P.O Box................ Code .... Tel............................. Fax ....

City......................... Country...

Form of Payment

❑ Certified Cheque drawn to King Abdul Aziz Foundation for Research and Archives account No. 24612300000300 drawn by the .... Bank.

Subscription form to be mailed to :
P.O Box : 2945, Riyadh - 11461,
Kingdom of Saudi Arabia
Tel : 4011999/2016, Fax : 4013894

Subscription fee :

❑ One year SR. 20 ($6.00)
❑ Two years SR. 40 ($12.00)
❑ Five years SR.100 ($30.00)

al_darah

GIFT SUBSCRIPTION FORM

I wish to subscribe to Al-darah for :

❑ One year ❑ Tow years ❑ Five years

Please forward my copies to the following address :

Address

Name ....

City......................... Street............................ Country...

P.O Box................ Code .... Tel............................. Fax ....

Form of Payment

❑ Certified Cheque drawn to King Abdul Aziz Foundation for Research and Archives account No. 24612300000300 drawn by the .... Bank.

❑ Cash.

From .... Address ....
P.O Box...Code ....

Subscription form to be mailed to :
P.O Box : 2945, Riyadh - 11461,
Kingdom of Saudi Arabia
Tel : 4011999/2016, Fax : 4013894

Subscription fee :

❑ One year SR. 20 ($6.00)
❑ Two years SR. 40 ($12.00)
❑ Five years SR.100 ($30.00)

تعقيب على مراجعة عبدالله المنيف لكتاب "لمع الشهاب"

اطلعت في مجلة الدارة (العدد الأول، السنة الثالثة والثلاثون ١٤٢٨هـ) على مراجعة الدكتور/ عبدالله بن محمد المنيف لكتاب: "لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب"، وهو بتحقيق الأستاذ الدكتور/ عبدالله الصالح العثيمين، وصدر عن دارة الملك عبدالعزيز عام ١٤٢٦هـ، فكان لي مع مراجعة الدكتور/ المنيف بعض الوقفات؛ لتبيين أخطاء وقع بها في مراجعته تلك. ولكن قبل الولوج إلى ذكر تلك الأخطاء أحب أن أسجل كلمة شكر وتقدير للقائمين على دارة الملك عبدالعزيز على أريحيتهم وسعة أفقهم في نشر التعقيب والاستدراك على إصداراتهم في مجلتهم.

أما مراجعة الدكتور المنيف لكتاب لمع الشهاب فقد أجاد في بعض النقاط التي لها اتصال بتخصصه مثل معرفته (للكلك) وهو أحد أنواع الورق الناعم والشفاف كما بين، وكذلك نقده لترتيب قائمة المصادر والمراجع، وتصحيحه لتاريخ طباعة بعض الكتب، فله الشكر على ذلك. إلاّ أن المراجع قد وقع في أخطاء ما كان ينبغي أن يقع بها لو أمعن النظر في تعقيبه، وسأل أهل الاختصاص، ولم يتعجل الكتابة.

وفيما يأتي ذكر هذه الأخطاء:

١ - قال في ص٢٣٧: "وقد لفت نظري أول ما اطلعت عليه تسجيل اسم المؤلف في غلاف الكتاب بعد أن كان مطبوعاً في المرتين السابقتين تحت اسم (مؤلف مجهول)".

والجواب على ذلك أنه لا مجال للتعجب خصوصاً إذا علمنا أنه ليس لهذا الكتاب الآن إلا أصل خطي واحد في العالم[١]، وقد دون في آخره أن كاتبه حسن بن جمال بن أحمد الريكي، وكذلك كتب اسمه على غلاف الكتاب؛ لذا لا يبعد أن يكون هو المؤلف حتى يتبين غير ذلك في قابل الأيام فيما لو كشف عن نسخة أخرى للمخطوط، بالإضافة إلى دلائل أخرى ذكرها المحقق، انظر: ص٢٣، وص٣٤ من الكتاب.

٢ - قال في الملحوظات العامة فقرة (١): "عدم محاولة المحقق البحث عن نسخة أخرى للمخطوط".

فأقول: ما الذي أدرى المراجع أن المحقق لم يبحث عن نسخة أخرى للمخطوط ؟ أم هل نفهم من ملاحظته هذه أنه وقف على نسخة أخرى للمخطوط ؟ فليتحف القراء والمحقق بها، وليبين الاختلافات أو الزيادات إن وجدت بينها وبين النسخة الوحيدة المعروفة التي اعتمد عليها المحققان السابقان للكتاب (أبوحاكمة/آل الشيخ).

٣ - قال في الملحوظات العامة فقرة (٢): "عدم ضبط عنوان الكتاب، حيث كان من المفترض أن يشار إلى أصح السبل لضبط الكتاب بالحركات ؛ لأن في الأمر خلافاً".

فأقول: كان من المفترض أن يبين الأخ المراجع أوجه الخلاف في ضبط اسم الكتاب، ومن القائلين بذلك الاختلاف، ومن ثم يذكر القول الراجح لديه في ضبط اسم الكتاب إن كان لديه علم بذلك.

٤ - قال في الملحوظات العامة فقرة (٥): "أثقل المحقق مقدمته بكثير من النقد والنقول المكررة عن التحقيقات السابقة بهدف بيان أهمية التحقيق ودواعيه".

والجواب على ذلك أن نقد التحقيقات السابقة لأي كتاب هو من أصول المنهج العلمي في تحقيق المخطوطات، قال بذلك وعمل به كبار

---

(١) محفوظ في المتحف البريطاني تحت رقم ADD. 23346/1

المحققين من العلماء في العصر الحديث(٢)، كما أن الجهة الناشرة وهي دارة الملك عبدالعزيز مقتنعة تماماً بوجود أخطاء في التحقيق السابق، وإلاّ ما معنى تكليفها للمحقق العثيمين أن يعيد تحقيق الكتاب بعد نفاد نسخ التحقيق السابق؟ ثم إن المحقق العثيمين لم ينقد تحقيق أبي حاكمة وآل الشيخ إلا في ثلاث صفحات لكل منهما، علماً أنه أثنى على التحقيقين بما يستحقان.

٥ - ذكر في الملحوظات العامة فقرة (٧) ما ملخصه: "أن المحقق لم يستفد من محاضرة الشيخ الدكتور سلطان القاسمي التي ألقاها في مركز الملك فيصل للدراسات الإسلامية والبحوث، حيث تعرض لذكر الريكي مؤلف كتاب لمع الشهاب".

والجواب على ذلك طالما أن المراجع ممن حضر تلك المحاضرة - كما صرح بذلك - فلماذا لا يوقف القراء على أبرز ما جاء فيها مما يخدم به موضوع الكتاب المحقَّق ومؤلفه؟ أما إن كان المراجع يقصد أن الشيخ الدكتور القاسمي قد نسب المؤلف الريكي إلى بندر ريق على الساحل الإيراني، وأنه يرى أن صحة ضبط نسب المؤلف إلى (الريقي) لا إلى (الريكي)، فأقول: إن أهل تلك البلاد من العرب الذين يقطنون سواحل بلاد فارس وكذلك أهل العراق ممن يقلب حرف القاف إلى كاف، كما يقلب أهل الخليج حرف الجيم إلى الياء، وهذا كثير في اللهجات العربية، والخلاف سهل.

٦ - قال في الملحوظات العامة فقرة (٨): "عدم الترجمة للأعلام الواردة خاصة العثمانية منها، انظر ص٥٣ هامش (٦) و (٧) وص٥٥".

قلت: إن هذه الملاحظة فيها من عدم المصداقية والتهويل على القارئ الشيء الكثير، فمن يتأمل نص عبارة المراجع، ولم يطلع على الكتاب

(٢) انظر كتاب "تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل"، للأستاذ الدكتور/ عبدالله عسيلان، من ص٧٢ إلى ص٧٥، من إصدارات مكتبة الملك فهد الوطنية.

يظن أن المحقق لم يترجم لأي عَلَم من الأعلام الذين وردوا في ثنايا الكتاب. وهذا قولٌ منافٍ للحقيقة، وفيه غمط لجهد المحقق، والمسألة لا تعدو أن المحقق لم يتوصل إلى معرفة ترجمة ثلاثة من الأعلام الذين سماهم المراجع أعلامًا عثمانية فيما بين يديه من المصادر. فهل تكرم الأستاذ المراجع بذكر تراجم هؤلاء الأعلام؛ لكي يستفيد المحقق وجمهور القراء؟

أما ما جاء في ملحوظات المراجع التفصيلية فقد وقع المراجع في خطأين كبيرين: الأول في ضبط اسم أحد الأعلام، والثاني في الأنساب، وهذان الخطآن هما:

١ - توجيهه النقد للمحقق في عدم تصحيحه في الحاشية لاسم (عريعر) الذي يرد في متن الكتاب بأنه (عرعر)، وقد بنى رأيه ذلك على ما ورد في المصادر التاريخية، وعند أهل المنطقة كما يزعم، انظر ص ٢٤١.

فأقول: إن صحة اسم (عريعر) هو (عرعر) كما ذكر المؤلف الريكي، والذي يظهر أنه استقى هذه المعلومة من أهل المنطقة، كما أن

صحة اسم (عريعر) هو (عرعر) كما ذكره الريكي الذي استقاه من أهل المنطقة

المصادر التاريخية غير النجدية تضبط الاسم بأنه (عرعر) مثل كتاب ابن سند البصري المسمى "مطالع السعود"[٣] وغيره. بالإضافة إلى الوثائق المحلية التي اطلعت على بعض منها والتي لا تذكره إلا أنه (عرعر)، ومن هذه الوثائق وثيقة عليها ختم ابنه (زيد بن عرعر)[٤]. وفي اعتقادي أن الوثائق المحلية مقدمة على غيرها من المصادر لقربها الزماني والمكاني من الأحداث والأعلام. أما أول من غيّر اسم (عرعر بن دجين) الأمير الخالدي المعروف (ت١١٨٨هـ) إلى (عريعر) ففي ظني أنه المؤرخ حسين بن غنام الأحسائي ثم النجدي (ت١٢٢٥هـ) في كتابه "روضة الأفكار والأفهام"،

---

(٣) انظر الصفحات ٢١٦، ٢١٧، ٢٢١، ٣١٣، ٣٥٥ من مطالع السعود.

(٤) انظر الملحق رقم (١).

وتابعه على ذلك من أتى بعده من المؤرخين النجديين كابن لعبون والفاخري وابن بشر وابن عيسى وغيرهم. ومن يتأمل الاسم (عرعر) يعلم أن تصغيره هو (عريعر)، والتصغير في اللغة إما للتمليح أو للتقبيح، والأخير هو ما قصده المؤرخ ابن غنام، وذلك لمحاربة عرعر بن دجين للدعوة السلفية في نجد ودولتها السعودية.

٢ - توجيهه النقد للمحقق عندما قال في الحاشية رقم (٢) ص٢٧٥ أن الأوغان هم الأفغان. ثم علّق المراجع في تعقيبه بما نصه: "وهذا الأمر غير صحيح، فالأوغان الذين ذكرهم المؤلف هم سكان السليمانية في شمال العراق، وهم إحدى القبائل العربية المعروفة هناك ...".

قلت: قد وقع المراجع هنا في خطأٍ مركب، فجزم أن الأوغان من القبائل العربية، وعدهم من سكان مدينة السليمانية في العراق. والواقع أن الأوغان ليسوا عرباً، وليسوا من سكان السليمانية العراقية، وفيما يأتي بيان الأدلة على ما ذكرت:

فالأوغان هم سكان إقليم خراسان[٥]، وزابل اللذين يقعان الآن ضمن دولة أفغانستان، وبعض منهم في الهند، فقد ذكر ابن الأثير في أحداث سنة ٦٠٢هـ ما نصه: "وخرج عليهم (أي الوزير مؤيد الملك وزير شهاب الدين الغوري ملك غزنة وبعض خراسان وعسكره) الأمم الذين في تلك الجبال التيراهية وأوغان وغيرهم، فنالوا من أطراف العسكر"[٦]، كما ذكر النويري[٧] "جبال أوغان" بالقرب من مدينة غزنة التي هي قصبة إقليم زابل، كما أن في تلك البلاد مدينة يقال لها: (سليماناباذ[٨])، وهي بالقرب من مدينة جرجان التي تقع في إقليم

(٥) قال ياقوت الحموي: خراسان بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق، وآخر حدودها مما يلي الهند . معجم البلدان ٢١٨/٣.

(٦) الكامل في التاريخ ٢١٦/١٠.

(٧) نهاية الأرب في فنون الأدب، ص ٣١٩٦، موقع الوراق على الإنترنت www.alwaraq.net.

(٨) كلمة (أباذ) تعني العمارة باللغة الفارسية، فسليماناباذ معناها: عمارة سليمان، انظر معجم البلدان ٤٠/١.

خراسان[٩]، والنسبة إليها (سليمانابادي) التي خففت إلى (سليماني)، وهو ما دعا أولئك الأوغان ادعاء الانتساب إلى سليمان بن خالد بن الوليد[١٠]، فتصدر بعض العلماء إلى تفنيد ذلك الزعم الباطل، ومنهم قطب الدين النهروالي (ت٩٩٠هـ) في كتابه المخطوط المسمى "تذكرة النهروالي"، حيث قال ما نصه: "وفي الهند طايفة كبيرة يقال لهم: الأوغان، منهم شيرخان الخارج على السلطان الهمايون شاه بن باير يزعمون أنهم من ذرية خالد بن الوليد، والله أعلم بذلك ..."[١١]، وكذلك عبدالرحمن الأنصاري (ت بعد ١١٩٧هـ) في كتابه "تحفة المحبين والأصحاب"، حيث قال: "بيت الأوغاني نسبة إلى الأوغان السليمانية، ويزعمون أنهم ينتسبون إلى خالد بن الوليد القرشي المخزومي رضي الله عنه، ولا أصل لذلك، وقد ذكر العلامة ابن قتيبة في معارفه أن ذريته قد انقرضت، والله أعلم"[١٢].

كما قد ترجم بعض العلماء لبعض أعلام أولئك الأوغان، ونسبوهم إلى العجم، فأذكر منهم:

- إبراهيم بن يونس بن محمود الأوغاني العجمي سمّع على السخاوي بمكة، كما ذكر السخاوي في ترجمته في كتابه "الضوء اللامع"[١٣].

---

(٩) انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ٣/٤٢، ٥/٦٤.

(١٠) سليمان بن خالد بن الوليد استشهد في سنة ٢١هـ في فتوحات البهنسا من صعيد مصر، كما أن والده خالد بن الوليد نص علماء الأنساب المتقدمون على انقطاع عقبه، مثل: المصعب الزبيري (ت٢٣٦هـ) والزبير بن بكار (ت٢٥٦هـ) وغيرهما.

(١١) "تذكرة النهروالي" كتاب مخطوط ص٥٣ بترقيمي. وأصل هذا المخطوط بمكتبة ولي الدين المضمومة إلى مكتبة بايزيد العامة، برقم (٢٤٤٠). وعنه صورة محفوظة بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، انظر عن هذا الكتاب مقدمة تحقيق الشيخ حمد الجاسر لكتاب البرق اليماني للنهروالي ص٤١، وانظر صورة صفحة المخطوط في الملحق (٢) .

(١٢) كتاب "تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب". تحقيق محمد العروسي المطوي، ص ٧٣.

(١٣) الضوء اللامع، ١/١٨٣.

- إسماعيل بن عيسى بن دولات أو دولت البلكشهري المولد الحنفي نزيل الحرمين، ويعرف بالأوغاني[١٤]، قدم من بلاده مع أبيه، وقطنا بيت المقدس، ثم مات أبوه، وعاد فقطن مكة، وتوفي بها سنة ٨٩٢هـ[١٥].
- مبارك بن إسماعيل، وسماه ابن طولون أحمد بن محمد المدعو الشيخ مبارك ثم الشيخ إسماعيل الأوغاني ثم الدمشقي الحنفي، توفي بدمشق سنة ٩٣٠هـ[١٦].

أما قول المراجع أنهم (أي الأوغان) من مدينة السليمانية التي تقع في شمال العراق فهو قولٌ غير صحيح، فمدينة السليمانية العراقية لم تنشأ إلا في عام ١١٩٩هـ، أنشأها إبراهيم باشا وسماها (السليمانية) تيمناً باسم سليمان باشا والي بغداد، كما أنه ليس من بين سكانها أو قبائلها من يقال لهم: الأوغان. راجع في ذلك كتاب محمد أمين زكي الكردي (ت١٣٦٧هـ) المسمى (تاريخ السليمانية وأنحائها)، وقد كتبه باللغة الكردية، ونقله إلى العربية الملا جميل أحمد الروزبياني[١٧]. وفي الخلاصة أن (الخطا والغز والتيراهية والأوغان والدز والغورية) شعوبٌ غير عربية، تسكن بلاد الأفغان وشمال الهند لا يجوز تنسيبهم في العرب حتى لا يقع المسلم في المحظور الشرعي.

وفي الختام فهذه ثمانية أخطاء وقع بها الدكتور المراجع عبدالله المنيف آمل أن يستفيد منها، وأن يتسع صدره لها، فما منا إلا رادٌ ومردودٌ عليه كما قال الإمام مالك رحمه الله. والله أعلم وأحكم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

علي بن سالم الصيخان

(١٤) سماه عبدالعزيز بن فهد المكي (ت٩٢٢هـ) إسماعيل العجمي أخو الخواجا إسحاق في كتابه بلوغ القرى، ٤٨٩/١.

(١٥) الضوء اللامع، ٣٠٤/٢.

(١٦) الكواكب السائرة للغزي (ت١٠٦١هـ)، ٣٠٣/١.

(١٧) ص٩٤-٩٥.

الملاحق

ملحق رقم (١)

بسم الله أقول وأنا الفقير إلى الله عمر بن دجين بأن حمدي بن سعد
قد أوصى بثلاثة عشر موسمة تخرج من العقار المسمى بالخزيمة الكائنة
بطرف المحمل وعين له في ذلك أضحية كل سنة وطعما في شهر رمضان كل
وقراءة جزء من القرآن كل يوم على الدوام وإهداء ثوابه له وجعل الوصي
على ذلك والمتولي له عبد الله بن محمد بن عبد القادر ثم من بعده على الصالح
من أولاده ثم من بعدهم على أولادهم وقد قررت أحمد بن عبد الله فيما هو
متولي له ثم أولاده من بعده بشرط القيام بما عينه الموصي في ذلك تقريرا
شرعيا ولعنة الله على من غير ذلك أو سعى في تبطيله فمن بدله بعد
ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم جرى ذلك
بحضرة عبد الله العبد المحسن وعبد الرحمن بن تمام وكفى بالله شهيدا

ملحق رقم (٢)

TRANSLATED ARTICLES

Pages from the Diplomatic Activity of Hakimof
By Prof. Dr. Vadim Cosmin
Translated by Zuhayr al-Tijani

Hakimof was a diplomat of the Soviet Republic of Russia. He worked in a number of diplomatic positions in Russia and abroad and in A.H.1341/ 1924, he became the first Soviet consul in the Kingdom of Hijaz during the reign of King Husayn b. Ali and was a witness to King Abdul Aziz's takeover of the Hijaz. He dealt with this event with political finesses which enabled him to retain the Russian consulate in the Hijaz. The Soviet government recognized the Saudi state, which prompted Britain and other countries to do likewise. After four years, Hakimof was charged with an official mission to Yemen, and he played a pioneer role in strengthening Soviet-Yemeni ties. Afterwards, he was appointed ambassador of the Soviet Union in Saudi Arabia and he played a role in diplomatic dialogue between the two countries. However, political circumstances in Russia came to affect the diplomatic corps, and Hakimof was suddenly recalled and imprisoned on false charges of spying for certain countries. He was executed in A.H.1357/1938.

(197 - 211)

BOOK REVIEWS

Leading Personalities from al-Ahsa
Collected and prepared by Mu'adh A. al-Mubarak
Reviewed by Dr. Abd al-Rahman al-Mudayris
(213 - 218)

REVIEWS AND COMMENTS

(219 - 227)

Dr. Vitaly Naumkin

Russian Diplomacy in the Arabian Peninsula and the Arabian Gulf from the End of the Nineteenth to the Beginning of the Twentieth Centuries

Russia began to concern itself politically and economically with the region towards the end of the nineteenth century and began to open consulates. The Russian consulate which was opened in Jeddah in A.H.1308/1891 was charged with the task of protecting and monitoring pilgrims and answering their needs. This was in addition to the political and mercantile aspects of the Russian empire's interest in the Arabian Peninsula, as well as the military and strategic dimensions which appeared after Russia began to confront not only its traditional rival, the Ottoman Empire, but also Britain which increasingly became important in the region.

(143 - 183)

DOCUMENTS

Dr. Suhayl Saban

Arabic Letters in the (Foreign Affairs - Miscellaneous) Classification in the Ottoman Archives

This classification comprises thousands of letters written in Arabic and directed to the Ottoman Sultan Abdulhamid II from Arabs living in different parts of the Arab World, as well as from some Ottoman officials working in Arab lands. These letters have been preserved in fifty files ordered according to the date they were received by the sultan. All were composed in Arabic, although some files were written in French along with an Ottoman Turkish summary. The contents of these letters consisted for the most part of complaints or descriptions of circumstances in some Arab regions, such as the letters sent by Arabs in Palestine, or those sent by residents of Egypt, Aleppo, Syria, Idlib, Basra and Mosul.

(185 - 196)

Dr. Hamud M. al-Nujaydi

The Armenian Period in the History of the Ubaydids

This study is concerned with the history of the era of Armenian influence in Egypt during the Ubaydid period (909-1171), which began in the middle of the year A.H.466/1074 and lasted until 531/1137. During this period, Armenians occupied the position of wazir in the Ubaydid state. Their relations with the Ubaydid caliphs were predicated upon their tokeover of power from them, the incitement of struggles and divisions within the Ubaydid family and the attempt of the Armenian wazirs to gain popular support through improvement of economic conditions. They also expended efforts to develop the financial resources of the Ubaydid state. This policy of despotism practiced by the Armenian wazirs led to a reaction on the part of the Ubaydid caliphs, who realized the grave danger they posed. The wazirs' involvement in internal affairs and attention to their own interests and spheres of influence in the regions came at the expense of involvement with external affairs. The despotic rule of the Armenian wazirs is one of the political causes behind the fall of the Ubaydid dynasty.

(59 - 105)

Dr. Muhammad Amin

The Letter of the Sultan of Morocco Ismail b. al-Sharif b. Ali al-Hasani to Sharif Sa'd b. Zayd, Sultan of the Two Holy Cities (A.H.1105/1693)

The content of this letter can be summarized as the advice given by the Sultan of Morocco Ismail b. al-Sharif b. Ali al-Hasani to Sharif Sa'd b. Zayd in matters pertaining to his rule in Makkah and Madinah. It reflects the strength of relations between the sharifs of Morocco and those of the Hijaz. At the same time, it reveals an unstable political scene which had a negative impact on the local population as well as pilgrims. The plain advice contained in the letter reveals the extent of the Sultan of Morocco's awareness of cónditions in the Hijaz as well as his desire to improve matters and stabilize the region. The letter discussed the special nature of the two holy cities and the divine reward due to its rulers. It also concentrated on the need for the Sharif of the two holy cities to realize the importance and the honor of the burden placed on his shoulders, as well as the circumstances which led to his removal from power in the past, followed by his return to office, and the need for him to exercise resolve and justice in ruling.

(107 - 142)

CONTENTS

ARTICLES

Dr. Hissa A. al-Qunayir

Dictionary of Cultural Concepts in the Kingdom of Saudi Arabia during the Formative Period from 1924 to 1953 through *Umm al-Qura* Newspaper

The establishment of the Kingdom of Saudi Arabia necessitated the introduction of a vast number of new cultural concepts, embracing many aspects of life in the political, economic, scientific and social spheres. This was accomplished through laws and decrees issued by the Saudi state, which were published in *Umm al-Qura*, which was perceived as the official newspaper of the government.

Research revealed that the language which was used to convey the concepts discussed in *Umm al-Qura* was a correct form of Arabic, free to a large extent of dialect and intrusions. Those responsible for this newspaper are to be commended for their preservation of the classical Arabic language. When they did have recourse to using words from the local dialect or others of non-Arabic origin, it was a result of the widespread usage of such words. The majority of concepts were expressed in this newspaper using descriptive or possessive compound terms, and the same was true of complicated sentences composed of many words. Some words in such expressions incorporated changes reflecting developments on the political, administrative and social levels, which confirms for us that the Kingdom passed through two important periods in its formative stage.

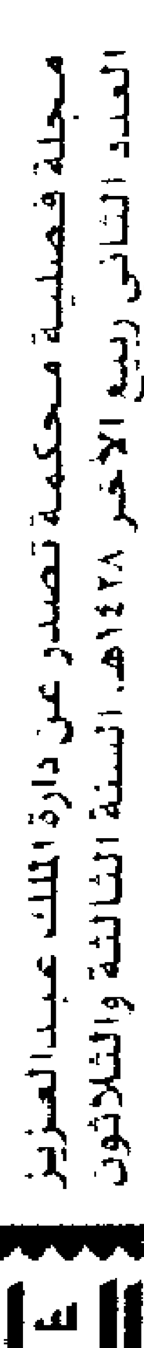
(11 - 37)

Dr. Abdallah U. al-Kharashi

The *Bay'a* of Mu'awiya b. Yazid and the End of the Sufyanid Period in the History of the Umayyads

Yazid b. Mu'awiya nominated his son Mu'awiya as crown prince, to rule after him. Upon Yazid's death, Mu'awiya, who was less than twenty years of age, became ruler. Because of his illness, youth and inexperience in the burdens of government, the administration and public affairs became disorganized. Nevertheless, contrary to the opinions of some historians, he did not remove himself from power, nor did he appoint a crown prince. This led to the rise of individuals who began to compete for power, such as Abdallah b. al-Zubayr in Makkah, who was given the oath of allegiance as caliph, thereby bringing the Sufyanid period of Umayyad rule to an abrupt close. Nevertheless, the efforts of Marwan b. al-Hakam and his son Abd al-Malik restored power to the Umayyads, through the Marwanid line.

(39 - 57)





A Quarterly
Issued by
King Abdul Aziz Foundation
for Research and Archives

Issue No. 2
Year 33
2007



A Quarterly
Issued by
King Abdul aziz Foundation
for Research and Archives

Issue No. 2
Year 33
2007